

الحمد لله
 السون الشقي
 ١١/١٩

توليق الحكيم

الحجر

المكتبة العربية الشقية
 برت - مكتبة
 ١١/١٩



مكتبة الادب ومطبعتها بالجامع ١١٩٣٧٧

المطبعة النموذجية
 مكة المكرمة

• أُملي أكبر من جهدي ...

• وجهدي أكبر من موهبتي ...

• وموهبتي سجيننة طبيعي ...

• ولكني أقاوم

هذه الصفحات ليست مجرد سرد وتاريخ لحياة ... إنها تحليل
وتفسير لحياة ... إنني أرفع فيها الغطاء عن جهازى الآدمى لأفحص
تركيب ذلك ، المحرك ، الذى نسميه الطبيعة أو الطبع ... هذا
المحرك المتحكم فى قدرتى ، الموجه لمسيرى ...

من أى شىء صنع ؟ ... من أى الأجزاء شكل وركب ؟ ...
لنبدأ إذن من البداية : من يوم وجدت على هذه الأرض
كما يوجد كل مخلوق حى . بالميلاد من أب وأم ...

وما دمنا لانستطيع أن نختار والدينا ... ما دمنا لانستطيع
أن نختار الأجزاء التى منها نصنع ، فلنفحص إذن هذه الأجزاء
التى منها تكوننا ، فحماً دقيقاً صادقاً ، ولا نتخرج من الخروج
قليلاً عما اعتدناه فى بلادنا من وضع الأهل والآباء داخل قوالب
جامدة وأطر ثابتة لصور الكمال والورع والصلاح إلى حد يحول
دون أى تحليل إنسانى ... لا بد إذن من بعض الشجاعة والصراحة
لنعرف على الأقل شيئاً عن تركيب طبيعنا ؛ هذا الطبع الذى
يسجننا طول العمر ...

صباح اليوم فوجدته مثل أبيه ، ولسكن بدون « شوارب » ...
انتهى كلام العديل الفاضل ... وقد أشر والدي على هذا
الخطاب بالقلم الرصاص ، موضحاً بما فطر عليه من دقة سـنـرى
دلائلها فيما بعد ... كتب يقول :
« كنت هذا اليوم موجوداً بالسنطة ، فورد لي تلغراف من
الأخ عديلي صورته :

« رزقتم ولداً فأطمئنتكم وأهنتكم ،

وقد كنت في ذلك الوقت في أودة الجلسة أتكلم مع القاضي
على بك جلال في شئون مختلفة ، وكانت الساعة وقتئذ ١٢ ونصف
أفرنجي . »

ونقل والدي هذه التأشيرة إلى دفتر صغير خاص اعتاد أن
يدون فيه بعض شئونه — عثرت على هذا الدفتر بين خلفاته بعد
وفاته — أضاف فيه إلى ما تقدم هذه العبارة : « تحرر إلى خطاب
آخر من عديلي يطلب تسمية المولود ، فلم أوفق إلى اسم له ، فحررت
لأبيه جواباً بأنني فوضت الأمر إلى والدته في التسمية ... ثم ذهبت
إلى الإسكندرية وزرت زوجي فوجدتها متمسحة بالصحة وأخبرتني

لم يرني والدي يوم ولدت ... كان متغيباً في عمله بعيداً ، في بلدة
صغيرة من بلاد الريف ... كان وقتئذ وكيلاً لنيابة مركز « السنطة » ،
فترك والدتي تذهب لتلدني في بلدتها « الإسكندرية » حيث تتوفر
لها العناية الصحية ... وهناك ... في هذا الثغر ، وفي حي « محرم بك » ،
بمنزل أخيها الكبرى هبطت إلى الدنيا ... وقد بعث زوج الأخت :
أى عديل والدي بخطاب إليه يقول فيه بالنص :

« أرسلنا إليكم اليوم تلغرافاً تبشيراً بقدوم نجلكم السعيد ...
وتفصيل الخبر أنه في الساعة العاشرة مساء أمس شعرت السيدة
حرمكم بألم يشبه الطلق ، فأردت إرسال الخادم إلى القابلة ،
فامتنعت بقولها : ربما لا يكون الأمر كذلك ... ولم نزل مترقبين
حالتها إلى الساعة الثانية بعد منتصف الليل حيث اشتد الألم ، ولم
يعد هناك شك في اقتراب الوضع . وعندها أرسلنا الخادم ...
وفي الساعة الثالثة حضرت القابلة وباشرت أعمالها ... إلى أن
كانت الرابعة أقبل « أخينا » مصحوباً بسلامة الوصول وقد رأيته

أن الغلام سمي باسم « حسين توفيق الحكيم » فلم يرق هذا الاسم عندي ، وصممت على تغييره بالطريقة القانونية ... وفي نفس اليوم توجهت إلى المصوراتي ، وظهر حاوي ، وطلبت منه أن يصورني في ست لوحات ، لأنني أردت الاشتراك في السكة الحديدية بين محل عملي في الريف والإسكندرية ...

هذا ما كتبه والدي في دفتره خاصاً بمولدي ... ولست أعرف شيئاً بالطبع عن اللحظة التي ولدت فيها ... وهذا من سوء حظي ؛ بل من سوء حظ البشر جميعاً أن نولد في غيبوبة تامة من عقولنا ... فكل عضو من أعضائنا يتحرك حين نولد ، إلا ذلك الجزء منا الذي تدرك به الحياة التي هيطننا إليها ... ترى ماذا كان يحدث لو أننا واجهنا الحياة بعقول مدركة منذ اللحظة الأولى ؟ ... كان يحدث العجب ... كنا نفقد عقولنا للفور من هول الإعجوبة ... أعجوبة الحياة في انكشافها المفاجيء أمام القادم من عالم الظلام والعدم ... ولكن الحياة تتكشف لنا على مهل سترأ بعد ستر وحجابا بعد حجاب ، وتتمزق من حولنا الأغلفة ، غلافا بعد غلاف ... فنعتاد الحياة ونغفل عن الأعجوبة فيها ...

روت والدتي — فيما بعد — أنني هبطت إلى الدنيا في صمت ، دون بكاء أو صخب أو عويل ، شأن الكثير من الأطفال ، فحسبتي نزلت ميتة ، فارتاعت وهي على فراش وضمها ، وسألت القابلة ، التي ألفت بي بعيداً لتعني بالأم : « لماذا لا يبكي ويصيح ككل المواليد الأصحاء ؟ ... » والتفت الجميع إلى ناحيتي فوجدوني أنظر — كما زعموا — إلى ضوء المصباح وإصبعي في فمي شأن المتعجب ... يا له من زعم ! ... إن كل أم تريد أن ترى في ابنها معجزة كمعجزة المسيح ! ... لأنها في هذه الحالة ستكون هي مريم ! ... إذا ثبت حقاً أنني نزلت بغير صياح ، فلعل السبب هو أنني كنت مجهداً تعباً مكدوداً من شدة الجذب إلى هذه الدنيا ، أو أنه كان بلساني علة من العلل ، أو أنه الضعف العام ... وربما كان أفضل من ذلك جميعاً أن يقال — كما قيل في الكبر — إني آثرت الصمت والسكون بخلا أو اقتصاداً في صياح لا طائل تحته ! ... ومع ذلك ، فلماذا لا تحاك مثل هذه الأساطير عن ساعة الميلاد إلا فيما بعد دائماً ... عندما تحدد لنا صورة ما في المجتمع الذي نعيش فيه ... كذلك الحال في ساعة الوفاة ... ساعة نولد وساعة نموت .. ساعتان يلعب فيهما خيال

الآخرين ، لأنهما ليستا في حوزتنا ...

لا أستطيع كذلك بالطبع أن أصف الحجرة التي ولدت فيها ...
ولكن الذى أعلمه أن منزل العديل — زوج خالتي — الذى هبطت
إلى الدنيا فيه لابد أن يكون مناسباً لوضعه الاجتماعى ... فقد كان
على شيء من اليسار ... كان موظفاً بالدائرة السنية ومستحقاً فى
وقف ... رأيت هذا المنزل فيما بعد عندما بلغت الخامسة أو السادسة ،
وبدأت أعى ... إنه منزل صغير مكون من طابق واحد ، به حديقة
صغيرة فيها تكعيبية عنب خيل إلى يومئذ أنها حرش من الأحراش .
وكان ينفق كثيراً ... خصوصاً على شرايه وسهراته ... فقد كان
وقت مولدى فى شبابه يحب الكاس والطاس وعشرة الظرفاء من
الناس ، يسمرون ويعمرون الليالى بالفكاهات والنكات ، وكان
هو نفسه — كما قيل لى وكما رأيت بنفسى فيما بعد — شيق الحديث
بارع الدعابة ، على قدر طيب من التعليم والاطلاع ، يبدو ذلك
من أسلوبه فى الخطاب الذى أرسله إلى والدى معلناً قدومى
« بغير شوارب » ، ...

كان العهد عهد « كرومر » ، وكل من وفد على مصر يومئذ

اعتبر نفسه سيداً لنا أو مرشحاً للسيادة .

يروى زوج خالتي هذا أنه كان جالساً بين أصحابه ذات يوم فجاءه
ماسح أحذية من الأجانب الوافدين ... فبعد الانتهاء من مسح حذائه
أخرج مع الأجر بطاقته وقدمها للماسح الأجنبى قائلاً بنبرة الجد :
هاك اسمى وعنوانى لتتذكرنى وتشملنى بنظرة عندما تصبح
فى بلادنا من أصحاب الجاه والمال والمناصب ! ...

أما زوجته الأخت الكبرى لوالدى فكانت أمية لا تقرأ
ولا تكتب ، بل ولا تحسن غير التفكير فى الخرافات الشائعة
بين نساء جيلها . كانت على غرار أمها — جدتى — ولعل هذا
كان السر فى فرار زوجها المتعلم الأريب إلى مجالس الدهر
والسكر والظرفاء والأدباء ... أما والدتى فكانت الابنة الصغرى .
بينها وبين أختها الكبرى ستة أولاد مانوا كلهم قبل الوضع
ولهذا الموت الملمح سر فى رأى جدتى ، إنها تعزو ذلك إلى
« جنية » تحت الأرض اسمها « القطاية » . تظهر أحياناً فى صورة
قطعة سوداء ... وفى ذات ليلة ظهرت أمامها ساعة العشاء ، وكانت
تأكل سمكا مشوياً . فماتت القطعة تطلب قطعة ، فلطمتها جدتى بظفر

كفها فاخفت ... منذ تلك الليلة ما حملت مرة إلا وشعرت كأن لكمة تصيب بطنها فيسقط الحمل لتوه ... إلى أن جاء الحمل السابع ، فنصحها الناصحون أن تأتي بمنجم معروف وقتئذ اسمه «أبو عجيلة» ليحجبها بالأحجية إلى تدرأ عنها السوء ... فجاءت به وحجبها بسبعة أحجية ، وعاشت والدتي ... كانت هذه الجدة طيبة القلب هادئة الطبع ، هكذا بدت لي عندما أخذت أعي وأشب وأترعرع ، لقد بدت لي على نقيض ابنتها الكبرى والصغرى ، بما ركبتا عليه من طبع حاد ، تثير أعصابهما أقل كلمة وأتفه حادث ... على أني لم أعرف الجدة إلا في كهولتها . أما في شبابها ، فقد كانت — كما قيل لي — تماثل الإبنيتين في الطبع الحاد والخلق الناري ... ولم أر قط — منذ وعيت — الاختين على وفاق ، كانت الخصومة والمقاطعة بينهما هي الحياة العادية ... أما لحظات الصلاح فكانت عابرة كسحب الصيف ، أو استثناء أو شذوذاً لا يصدق إمكان بقائه الطرفان ... وهل يمكن أن يقوم برد وسلام بين نار ونار ؟ ... لن أنسى أبداً حيرة جدتي المسكينة بين ابنتيها المتخاصمتين على الدوام . كان لاهم لها ولا شاغل إلا التوفيق بينهما دون جدوى ...

كانت أسرة والدتي من أهل البحر ... من أطلق عليهم اسم «البوغازية» ... ويظهر أن أصل هذه الأسرة من الترك أو الفرس أو البانيا ... لا أدري بالضبط ، إن سحنة والدتي وجدتي وما لها من عبون زرقاء تتم عن أصل غريب على كل حال . ولم أرث أنا ولا شقيق هذه الزرقاء ولا ما يقرب منها ، لأن سحنة والدي الفلاح القمح كانت فيما يبدو قديرة على صبغ بحر أزرق بأكله ... وكان جد والدتي لأمها يسمى «كلا يوسف» ، وقيل إنه من «قولة» وجدها لأبيها كان يسمى الحاج «ميلاد البسطاي» وابنه ، وهو أبوها ، اسمه «سليمان البسطامي» . وقيل إنه كانت لديه شجرة نسب تلحقه بأبي يزيد البسطامي الصوفي المعروف . وقد ذكر في والدتي أن أصلهم من فارس ، ولكن أهلهم نزحوا إلى تركيا ثم وفدوا بعد ذلك إلى مصر ... كل هذا سمعته دون أن ألقى إليه بالاً أو أعيره اهتماماً ؛ إنما أنا أروى هنا ما لحق بهذا كرتي مما حكى حولي وأنا صغير ... كان رجال البوغاز هؤلاء يتوارثون المهنة أباً عن جد ، ويحذقونها بالمهارة . وكانت لهم قواربهم البخارية التي يقودون بها السفن إلى البوغاز ... كانوا يشترونها بأموالهم الخاصة شركة بينهم ،

ويقتسمون أرباح العمل بمقتضى حصص توزع على الأسرة بعد وفاة عائلها ... فلما مات جدى لوالدى ورثت عنه حصة . وكانت هى صغيرة السن ، لم تجاوز عامها الثالث يوم مات والدها ، وهو لم يزل شاباً فى الخامسة والثلاثين ... مات ولم تره ولم تعرفه . فظلت طول حياتها تسأل عنه من رآه ومن عرفه : ما شكلة؟ ... ما صورته؟ ... ما خلقه؟ ... ما صفاته؟ ... قالت لى إنه كان بمن أطلق عليهم الخديو فى ذلك العهد اسم « العصاة » ، لأنه كان من أنصار عرابى . ولبثت عمرها كله ترسم له فى مخيلها صورة الأبطال والأنبياء والقديسين ، فما كان عندها قسم أغاظ ولا أهم من القسم ، بسيدى البسطامى ، هكذا كانت تعلمنى وأنا صغير . وربما كان قولى يحتمل الكذب عندها إذا قالت : « وحياة النبى » . أما إذا قلت : « وحياة سيدى البسطامى » ، فما كان يغتفر لى أن أحنث به ... كان لا بد لقولى أن يكون صادقا ، وإلا فهو الجرم فى نظرها الذى لا جرم بعده ...

كانت جدتى أيضاً فى أوج شبابه حين مات عنها زوجها . فنصحها الناصحون أن تقبل الاقتران بزوج أختها المتوفاة ... بذلك

ترعى أولاد أختها كما ترعى أولادها فى كنف زوج ليس بالزريب عنها ولا الدخيل على الأسرة ... رأى طيب ومعقول ... ولكن الذى حدث ، كما يحدث فى كثير من الأحيان ، هو أن الآراء الطبية والمعقولة تنقلب إلى نقيضها عندما تتحول إلى واقع . فقد احتضنت جدتى أولادها هى ، أى البنيتين ، وخصهما بكل رعاية وإعزاز ، ونبتت وأهملت أولاد الأخت ، وعاملتهم كما تعامل أولاد الأعداء ، وكان الزوج يلاحظ ذلك ويتغاضى ... وقد بلغ من تدليلها لابنتها أن والدتى لم يكن يحلو لها أن تنصب « أرجوحتها » ، إلا على باب حجرة زوج أمها ، وتظل معاقبة بحبال الأرجوحة ، تهزها هزاً عنيفاً حتى تنخلع مفاصل الباب ، فإذا عاد الرجل إلى بيته متعباً مكدر دأ بعد عمل مرهق فى البحر ، ورأى ما حل باب حجراته ، وأبدى ملاحظة ، هبت فى وجهه البنت الصغيرة باكياً وسارعت إلى أمها شاكية ، فنقوم قيامة الأم لإغضابه واليتمة ، ابنتها ... أما الابنة اليتيمة فكانت تخرج لتوها إلى الحارة تذاكى وتصيح كذباً :

« زوج أمى ضربنى ! ... زوج أمى ضربنى ! ... »

فيمصص الجيران بشفاهم قائلين مترحمين :

ولا حول ولا قول إلا بالله ! ... مسكينة البنت ! ... طبعاً
زوج أم وماذا ينتظر من زوج الأم !!! ...
كان من بين أولاده هذا الزوج ابن شاب قد تعلم القراءة ،
وهوى قراءة القصص ... فإذا فرغ من المطالعة جعل يقص على
الأسرة ما قرأ من أعاجيب قصص ألف ليلة وغيرها ... وكانت
والدتي تسر لسماع هذه القصص سروراً كبيراً ، فكانت بدلالها
على جميع أهل البيت وبقوة شخصيتها منذ صغرها ترغم ابن خالتها
هذا على أن يترك عمله في البوغاز ، أو يتأخر عنه قليلاً ، ويسهر
الليل ، ليقص عليها المزيد مما في تلك الروايات والقصص ...
ويبدو أن افضل كان له في دفعها إلى تعلم القراءة والكتابة ...
ذلك الأمر المريب بالنسبة إلى فتاة في ذلك العصر ... إن كل
ما كان يصح لبنت مثامها أن تتلقاه من ضروب التعليم هو الإمام
بمبادئ التطريز والحياكة والتفصيل عند المعلمة ، وكانت
بالأسكندرية وقتئذ معلمة أجنبية فتحت مدرسة أو شيئاً كهذا
ذهبت إليها أمي مع أترابها فتلقت عندها ضرباً من التعليم ...
لكن هذا الشاب ابن الخالة ظل بأبيه والبنت وأمها حتى سمح

له بأن يحضر لها شيخاً يحفظها القرآن ويأقنها حروف الهجاء ...
وانتهى بها الأمر إلى تعلم مبادئ القراءة والكتابة ، وتكفل
بالباقى طبعها الحديدي وما فيه من عناد وإرادة وإصرار مع ذكائها
الفطري ، وروحها المتوثب الطامح ورغبتها الجامحة في أن تقرأ
بنفسها القصص والروايات التي سحرت لها ... فلم يرض عليها قليل
وقت حتى كانت قد تعلمت فك الخط ، واستطاعت أن تصل
إلى شيء من العلم بالقراءة والكتابة ، مكنها من الاطلاع على
ما تريد الاطلاع عليه ...
وبذلك أصبحت أكثر تنوراً من كل نساء جيلها في أسرتها .
وكان هناك بون شاسع وهوة سحيقة بينها وبين أمها وأختها
الكبرى ؛ إذ لم يكن العلم أو التعليم كلمات لها وجود في دنيا تلك
الأم والأخت قد يبدو غريباً في عصرنا أن نتصور عالماً بأسره
عاش يوماً — وربما ظل يعيش حتى الآن في مكان ما — وليس
في قاموس لغته كلمة علم أو معرفة . فنحن اليوم في عالم يتميز بأن
الناس فيه يريدون أن يفتحوا عيونهم كل صباح على شيء جديد
يعرفونه ، والمعرفة تأتيهم كل صباح مع فنجان القهوة أو الشاي ،

في صورة جريدة من الجرائد ، أو إذاعة من إذاعات الراديو .
فن لا يستطيع القراءة ، يستطيع الاستماع .

مامن أحد يستطيع اليوم أن يكون بمعزل تام عن مصادر
المعرفة الجارية كما يجري الماء في الأنابيب . ولقد تغير من المعرفة
تبعاً لذلك ، فأصبحت أنواعاً ودرجات ... منها العميق ومنها الضحل
منها الهام ، ومنها التافه . والخيار للناس فيما يتناولون من ألوان
المعرفة . هذا الخيار لم يكن معروفاً لأهل العصور السابقة . وهذه
الوسائل السهلة لم تكن مهياة لهم ... فدرنهم وأى نوع من أنواع
العلم أو المعرفة حواجز قائمة لا بد لهم من اجتيازها بالكفاح
والإرادة . لذلك أدرك قيمة إرادة كبرياء والدني في أن تتعلم
لتقرأ . كما أدرك الصعوبات التي قامت في وجه امرأة كجدتي
لتكون شيئاً آخر غير ما كانت عليه ...

وهي لم تكن الوحيدة في بيتها وعصرها . كان كل اهتمامها
منحصرأ في وسائل السيطرة على بيت زوجها وعلى أولاده ،
وقد تم لها ما أرادت ... فقد فهمت عن والدتي أنها هي وأختها
الكبرى كانتا حقاً الأمرتين مع أمها في البيت .

ولم يكن الجميع - من زوج الأم إلى أولاده العديدين - إلا رهن
إشارتهما في كل رغبة ونزوة . كانت الهدايا واللعب وعرائس الحلوى
في الأعياد والموائد لا تأتي إلا لهما . وكان كل هذا محتملاً ويؤدي
عن طيب خاطر . إلى أن حدث ما ألقى ستار الختام على هذا الحال :
فقد تزوجت الابنة الكبرى ، أخت والدتي ، وجهزت وزفت إلى
زوجها في بيته ... منذ ذلك الحين طار ما تبقى من عقل في رأس
جدتي ؛ فإذا هي لا توجد إلا في بيت ابنتها الكبرى . تجلس
بجوارها وتعاونها وتدلل كل مولود لها جديد ، وكانوا بحمد الله
كثيرين ، كل منهم فوق رأس الآخر كما يقولون ... هذا فضلاً عن
تشابه الأم وابنتها الكبرى في العقلية ، وانفاق وقتهما الخالي في
السحر لزوج الأم حتى يرب الخلاف بينه وبين أولاده فيخلو لها
الجو ... وبلغ الحال من السوء حداً لم يستطع معه زوج الأم
صبراً ، ففي ذات يوم ذهبت زوجته تمضي أياماً عند ابنتها الكبرى ؛
فإذا هي تباعث بورقة الطلاق مرسلتها إليها مع خادم ...

طول طفولتي وأنا أسمع من والدتي وجدتي مأساة الطلاق -
هذه وكأنها مأساة مقتل الحسين في كربلاء ...

كنت وأنا غلام أجلس إلى جوارها وهي تصنع قهوتها
بنفسها ؛ أصغى إلى مأساتها وأتأسر معها . كانت تحبني كثيراً
لأنى كنت أحسن الإصغاء إليها وإلى أملها الوحيد في الحياة
وقتئذ وهو أن يسود الوفاق بين الأختين . إذ لم يكن لها من
مأوى غير بيتيهما .

تلك هي جدتي وابنتها الكبرى . أما الابنة الصغرى ، وهي
والدتي فقد سارت حياتها على النحو الذي تقدم وصفه إلى أن
تزوجت هي الأخرى . وحكت لى قصة هذا الزواج فقالت : إن
عمة العريس وأخته وهما من أهل الريف حضرتا إلى الإسكندرية
للبحث عن عروس ؛ لأن أمه متروفاة وإذا القدر أو المصادفات أو
الحكمة الخفية المحمولة حتى الآن ابني الإنسان ، تلك النى تتجلى دائماً
في هذه الظروف ، فتجتمع بين اثنين من دون الملايين ، لينتج عن
اجتماعهما من التامخ ما لا يخطر على بال . قادهما القدر إلى والدتي ،
أبصرهما في فرح من الأفراح فإذا هي في نظرهما المطلب والبغية
فهي يتيمة لا أب لها ، ومثلها يعيش في كنف الزوج بلا تدلل
ولا تكبر . . . جاءت العمة والأخت مرتديتين ، الملس ، لامعاً
جديداً ، يفوح منهما العطر الفلاحي من الخزام والزعفران ،
وأحضرتا معهما صورة شمسية على الصفيح - شأن التصوير في ذلك
العهد - للعريس وهو متشبع بوسام عضو النيابة . فما كادت أمي

بعلم وحيها ترى هذا الوسام حتى ذهب لبها وعقدت العزم في سرها على التمسك به ... ذلك أنها كانت تعلم معنى هذا الوسام ، فقد كان لمنزل أسرتها نوافذ تطل على ما كان يسمى « سكة الباشا » أى الطريق الموصل إلى سراى رأس النين حيث كانت تمر يوم العيد مواكب رجال الحكومة الكبار فى ملابس التشريفة ، ومن بينهم رجال القضاء بمثل هذه الأوسمة ، من يومها وهى تمنى نفسها بزواج له مثل هذا الوسام . تلك كانت أحلامها كفتاة . لقد تقدم إليها تجار وبوغازية من رجال البحر فكانت تبكى وترغم أمها على الرفض ... أما هذا المتشحح بالوسام فقد تهلل له وجهها ؛ إلا أن أهل هذا العريس لم يتقدموا بمهر محترم . قالوا إنه شاب فى مصتهل حياته عظمه مازال طرياً ، لا يحتمل كاهله المبلغ الطائل بعد ... وهاجت الأم وماجت . ورفضت وهى تضرب على صدرها : « يا شمانة الاعادى أسلم بنتى بتراب الفلوس ؟ » ، ويظهر أن المهر كان ضئيلاً حقاً . لا يجاوز الخمسين « بنتو » . والبنتو هى العملة الذهبية فى ذلك الوقت الى نقل عن الجنيه ... طردت الأم أهل العريس ، ولكن البنت الراغبة أرسلت خلفهم خفية خادمة لها تقول لهم سرّاً أن ارجعوا

فالأم قد قبلت ... ولم يسع الأم إلا النزول آخر الأمر على إرادة ابنها المصرة ... ولم ينفع التعنيف ولا التقريع ... ولا صياحها بلمجتها الاسكندرانية القحة :

« ما بهاش أى ما بفاش غير البنات يحكموا رأيهم ويختاروا العرسان ... »

لكن مامن شيء كان يقف أمام إرادة والدق إذا طلبت شيئاً وصممت عليه فلا بد أن تناله ... وإن لها لمقدرة عجيبة فى إخضاع جميع من هم لإرادتها ... كان هذا شأنها مع أمها وزوج أمها وأولاده جميعاً ، ثم زوجها هى فيما بعد ... لم يقف أحد فى وجهها إلا أختها ، ولهذا خاصمتها وعادتها طول العمر ...

أما والدى فقد كتب بالقلم الرصاص فى دفتره الصغير المعهود صفحة عنوانها « تاريخ الزواج » ، قال فيها بالصر والحرف « ليلة الدخول كانت ليلة الجمعة أى مساء الخميس الموافق ٢٥ إبريل الموافق ليلة ٧ محرم بالاسكندرية بنزل حضرة « زوج الأم » ... وأقيمت بالمنزل بصفة ضيف مع الدروس إلى يوم الخميس الموافق ٢ مايو ... ثم قمت قاصداً العزبة بصفط الملوك — دية صد عزبة والده الشيخ

أحمد الحكيم ، - وفي نفس اليوم سافرت إلى ناحية زرقون للاحتفال بعرس أولاد الحاج ... من الأقرباء ، ورجعت مع والدى إلى العزبة يوم السبت ٤ منه ... وفي يوم الأحد قمت قاصداً المحلة الكبرى حيث محل وظيفتى ، لانتهاى الأجازة المصرح بها لمدة عشرين يوماً ، وفي يوم الأربعاء مساء قمت قاصداً الإسكندرية ، وقابلنى على المحطة حضرة عديلي وذهبت معه توأ إلى منزله ، وهناك كانت عروسى ، فأقمت إلى يوم السبت ٩ مايو ، ثم حضرنا جميعاً أنا وعروسى وحماى إلى المحلة الكبرى ، ...

هذا كل ما كتبه والدى فى هذا الموضوع ... فإذا قلنا الصفحة وجدناه قد كتب عنوانا آخر فى رأسها بهذا النص والحرف :

« بيان ما صرف بسبب الزواج ابتداء من ١٥ إبريل من

جيبى الخاص ... »

ثم يمضى بعد ذلك فى سرد قائمة طويلة طريفة فى تفصيلاتها وودقتها ... أذكر منها ما بلى وهى أيضاً بالحرف والنص :

١٧ قرشاً صاغاً تذكرة درجة ثانية من المحلة إلى صفط الملوك

فى ١٤ إبريل ...

١٠ قروش صاغ ليد عبده الخادم من ماهيته .
٣ قرشاً صاغاً أجرة حمار فى تاريخه .
٥ قروش صاغ أجرة التخليص على فراخ إلى الاسكندرية .
٥ قروش صاغ بقدشيش للخدم يوم تاريخه .

ولم يذكر فى دفتره مناسبات هذه المصروفات ، فلست أدرى أين ركب هذا الحمار المدون أجره بقرشين ١٩ ... ولماذا كان ركوب الحمار بسبب الزواج ١٩ ... كما أنه لم يوضح من هم الخدم الذين نفحهم الخمسة القروش ١٩ ... لكن مادام هذا كله قد دون تحت بند الزواج وبسببه فلا بد أن يكونوا من خدم أهل العروس ، أى ممن يخدمون فى بيت زوج الأم وبيت العديل ؛ لأنه كان قد تنقل بين البيتين بصفة ضيف ١ ...

لست أعتقد مع ذلك أن والدى كان بخيلاً بطبعه ... لأن البخل الحقيقى يجب أن يقترن بالرغبة فى كثر المال . وهو لم يكن لديه مال ليكنزه . كان فقيراً ، كل اعتماده على مرتبه البسيط فى ذلك الوقت ... حقاً كان والده يمتلك فى صفط الملوك بمديرية البحيرة نحو ثمانين فدانا . لكن ما نفع ذلك والوالد له على

ذمته أربع زوجات ، عدا المطلقات . ولكل زوجة ومطلقة أولاد منه بلغوا في مجموعهم عدداً كبيراً ... لقد كان يحكى أن المازواجين في الريف ، ما كان يعرف الواحد منهم أولاده أو يميز بعضهم من بعض ... كان إذا جلس على المسطبة ومر أمامه صبي منهم أو غلام سأله : « انت ابن مين يا ولد ؟ » فيجيبه مثلاً . « أنا ابن ستوتة أو خدوجة أو هانم أو خضره ، وهلم جراً .. وما كانت هناك طريقة للفرز أو التمييز سوى ملابس الأولاد . يكنى النظر إلى ثياب الولد فإذا كانت سابعة متقنة التفصيل فهو من أولاد زوجة جديدة . أما من كانت أثوابهم لا تغطي الركب فهم قطعاً من أبناء القديمات ! ... فالوالد الكبير في الريف كان يأتى أيام الأعياد بالقماش ويسلمه كله للجديدة المحظية على أنه للجميع ، فتبدأ هى بنفسها وأولادها فتفصل منه ماشاءت ، ثم تلقى بما فضل للآخرى . كان والدى ابن الزوجة الأولى ... وقد ماتت وهو صبي . ولست أعرف بالضبط تفصيلات طفولته ، ولا ظروف تربيته الأولى فقد كان بطبعه قليل الكلام كثير الكتمان فيما يتعلق بشخصه وشؤونه . كل ما سمعت في هذا الصدد هو أن فكرة التعليم أو

الاستمرار فيه كانت تلقى دائماً معارضة من أكثر الآباء في الريف في ذلك العهد . كانوا يريدون من أبنائهم البقاء في الأرض يزرعون غير أن والدى كان يصف أباه دائماً بأنه رجل متنور وأنه جاور في الأزهر وزامل الشيخ محمد عبده في مبدأ الدراسة ثم عاد إلى بلده يزرع الأرض التي ورثها عن آباءه ، وأنه لو لا هذه الأفدنة التي آلت لإبيه لاستمر في العلم كما استمر زميله القديم العظيم ... ولقد أدركت جدى هذا في أواخر حياته ، فرأيت فيه شيخاً جليلاً مهيب الطلعة ، يرتدى الجبة والقفطان والعمامة ، ويضع على عينيه نظارة سميكة . كانت هيئته حقاً أقرب إلى صورة الشيخ محمد عبده التي لعلمها جميعاً .

وكان والدى باراً بأبيه معظماً له مدافعاً عنه وعن تصرفاته . كان يذكر مثلاً أنه لم يكثر من الزواج إلا لعدم توفيقه إلى الزوجة المرتفعة إلى مداركه ، وأنه كلما ظن أنه وفق خاب أمله . وإذا هو يخرج من خطأ إلى خطأ ، وهو مصر على تصحيح الأخطاء ، لأن تصحيح الخطأ فضيلة . إلى أن اهتدى ووفق آخر الأمر إلى الزوجة المتمدنة فسكن إليها . وهو قول معقول ... ولقد كان والدى يصف لي

دائماً ما كان يقتضيه حب العلم والتعليم يومئذ من جهد وجهاد ...
فما كان يصل إلى آخر الشوط فيه إلا المهر المتشبه . فقد كان
هو وبعض إخوة له ممن أحبوا كتاب القرية وتعلقوا بالتعليم ،
يأتون في كل عام دراسي جديد بمن يتشفع لهم لدى والدهم كي
يستمرروا عاماً آخر ... فكان - مع رغبته في تعليمهم - يقبل بشرط
أن يكون العام المطلوب هر العام الأخير ثم يعودون بعده إلى
الزراعة . فإذا مضى العام عادوا إلى الرجاء مرة أخرى مقسمين أنه
الأخير ... ويظل العام يلد العام إلى أن اجتازوا مراحل الدراسة
التجهيزية ، وأصبح والدي على أبواب مدرسة الحقوق . فسكت
عنه والده وقد طمع في أن يرى أحد أولاده من الحكام ... كانوا
شباباً يجاهد جهاد المستميت في سبيل الحصول على التعليم . كل
القوى كانت ضدهم : أهلهم ومجتمعهم وحكومتهم ... وكانوا
يقنعون بالقليل ؛ بل بأقل القليل . كان والدي مع بعض إخوته
وأقاربهم وزملائهم من نزحوا إلى القاهرة للطلاب ، يعيشون في
سكن واحد ؟ ... ويطبخون لأنفسهم الطعام مرة كل أسبوع . هو
يوم الجمعة : يوم العطلة ... أما في بقية الأيام فكان طعامهم مما يجلب

من السوق كالجبن أو الفول . لأن إنيهما كهم في الدراسة كان
يغفلهم عن إعداد طعام منزلي ... أما يوم الجمعة فهو يوم الترف
والتنعم عندهم . يقبلون فيه على الطبخ . وماذا كانوا يطبخون ؟ ...
صنفاً واحداً لا يتغير لخصه . وحسبه غزراً ولذة وإمتاعاً أنه
ما يطبخ على النار ... وهذا وحده يكفي : إنه العدس ...
وفي يوم الجمعة اضطروا إلى ترك حلة العدس فوق النار ، في
همة أخيه الأصغر وخرجوا لبعض شأنهم ، فما أن ذهبوا حتى
خرج أخوهم هذا بدوره يلهم مع رفاق له - كان هو من دونهم
الذي يكثر من اللعب والحرب من الدراسة ولم يفلح في مدرسة رغم
تعنيفهم له وضربهم إياه - فلما تذكر حلة العدس التي في عهده وعاد
إليها وجد ما فيها قد غلى وفار وقاض على أرض الحجرة وامتزج
بترابها ، فما كان منه إلا أن غرف بكفيه العدس الممتزج بالتراب
وأعادته إلى الحلة ، ورجع أحوته بالفجل والكرات يمتنون النفس
بالأكلة الشهية ، وأقبلوا على الطعام فاكتشفوا التراب في أفواههم -
أكثر من العدس ، فانقضوا على أخيه وظلوا به حتى اعترف ...
فخربوه - وقد أضاع عليهم طبخهم الأسبوعي الوحيد - فهرب ...

وكان جهدهم في البحث عنه أشق من جهدهم في تقويمه و- ثم على
الدرس... وأخيراً وجدوه... ورأى والدي بعدئذ - كي يأمن هروبه -
مرة أخرى - أن يربطه من وسطه بحبل ويعلقه بواسطة بكرة
في سقف الحجرة... وهكذا كانوا إذا تركوه وحده كسفوف ثم
شدوا الحبل المتصل بالبكرة فإذا جسمه قد ارتفع ولاصق السقف
كأنه مصباح دكاوب، غاز... فكرة عجيبة تدل على عبقرية والدي.
لست أدري كيف خطرت له... على أن كل هذا التأديب لم يمنع
أعظام هذا من الأعباء؛ فقد حدث يوماً أن عاد أحدهم من البلد
أي القرية، ومعه قدر من الأرز وأزواج من الحمام، فاحتفلوا جميعاً
بالأكلة الباذخة الزادرة، وجاءوا بقصعة كبيرة يسمونها في الريف
«المنسف»... فوضعوا فيها الأرز - بعد طهوه - فصار كومة كبيرة
عالية، وسلقوا الحمام، وكان نصيب كل واحد منهم حمامة، جعلها
أمامه فوق الأرز، واجتمعوا كلهم حول القصعة، وأخذوا في
الأكل... فما كان أسرع الأخ الأصغر إلى التهام حمامته بهظماً، ثم
دس يده بخفة تحت كومة الأرز، وتسلى بأصابعه في شبه نفق أو
شبه غواصة حتى صارت تحت الحمامة التي أمام الجالس في واجهته،

فمسحها بمهارة إلى أسفل وجذبها ناحيته... وكان صاحبها مشغولاً
بازدراء الأرض، فما شعر إلا وحمامته قد اختفت من أمامه فجأة
دون أن يرى يداً امتدت إليها، ولم يتبين الحقيقة إلا عندما لمحها
في ذلك الأخ الأصفر... فهاج وماج. وهاج الجميع لهياجه...
وقام والدي يصيح:

«هاتوا كاشة أخلع أسنان هذا الملامون...»

وخاف الأخ الأصغر من تنفيذ الوعيد فهرب... ترك لهم
القطر كله هذه المرة ومضى إلى الشام على مركب شراعى، عمل به
لوتياً... ثم ظهر بعد سنوات في بلده وعاش فيها يزرع ويمرح،
ويمرح أكثر مما يزرع...

أما والدي فقد استمر مع البقية في الدرس باجتهاد وصبر،
ولم يذهب مع ذلك إلى مدرسة الحقوق مباشرة كأغلب الزملاء؛
بل فضل الإلتحاق بمدرسة اللسان مع زميل له هو «عبد العزيز»
فهيمى، إلى أن تبين لها فيما بعد أن مستقبل مدرسة الحقوق أفضل؛
فسارعا بترك اللسان إلى الحقوق...

وكان فيما يبدو من خيرة طالبة مدرسة الحقوق.. عثرت بين

أوراقه وأشياءه وأناصبى على قطعة نحاسية كنت ألعب بها
ولأعرف معناها... فلما بدأت أُم بالقراءة طالعت منقوشا عليها
«مجلة الشرائع»... وإذا هي ختم بما يحتم به إيصالات الإشتراك...
ثم وقع بين يدي عدد قديم من هذه المجلة، قرأت عليه أن مؤسسها
هم ثلاثة من طلاب الحقوق: «إسماعيل صدقي»، و«لطفى السيد»،
و«إسماعيل الحكيم»... كان هؤلاء الطلاب إذن على جانب من
النضج وسعة الأفق... مامن شك أن كثيراً من طلبة ذلك العهد
كانوا يدركون قيمة التكوين الثقافى، وكان لهم جلد عجيب على
الاطلاع والتحصيل — بعضهم ومنهم والدى و«عبد العزيز
فهمى» — كانوا ممن اتصلوا بالأزهر بعض الاتصال وداوموا
القراءة فى القرآن وكتب الفقه وغاصوا فى كتب الشعر والأدب
القديمة... وجدت فى بيتنا من تلك الكتب الصفراء عدداً يملأ
صناديق وصحاحير، انتفعت ببعضها فيما بعد... كان جيلاً مدهشاً
فى رجولته... يبدو ذلك حتى فى مداعباته ومعابباته... ما أرى
صورة تبرز هذا الجانب الفكه خيراً من تلك الصورة التى رسمها
«عباس محمود العقاد» ونشرها فى أخبار اليوم ديونيه ١٩٥٤، يوم

شاملى القدر العجيب أن أنتخب عضواً فى المجمع اللغوى فى كرسى
«هدد العزيز فهمى» بالذات... كتب العقاد يقول :
«هذه فكرة... تأتى فى أوانها بعد استقبالى زميلنا «توفيق
الحكيم» والمجمع اللغوى... وبعد استقباله فى مكان «عبد العزيز
فهمى» رحمه الله... لم يكن يدور بخلد الأديب الفقيد الكبير أن
يقدم إلينا خبايته فى المجمع... بين حدثى نحو ساعة عن توفيق
الحكيم وإسماعيل الحكيم... قال :
«الله يرحم والده... كان مثل ابنه صاحب «تواليف»...
وحدثى بعدئذى عن إسماعيل زميله فى المدرسة، ثم فى سلك
القضاء، فقال :
إنه «طالع فى رأسه، ذات مرة أن يخترع نوعاً من التبغ غير
الذى يدخنه الناس، وتساءل :
من ذا الذى فرض علينا تبغ أمريكا وحرم علينا أن ندخن
تبغاً من زرع بلادنا؟... وكانت تجربته الأولى فى «السعتر الجاف»،
وبعض الأعشاب التى يبيعها العطارون، ولكنه لم يثابر على هذه
التجربة غير أيام... قال الأديب الفقيه الكبير رحمه الله :

وكان زميلنا في المدرسة محمود عبد الغفار مفلوقاً من زميلنا
إسماعيل كرامة لهذه التواليف أو لهذه الفلسفة ، أو لهذه
القنطرة ... فتعمد يوماً — عندما جاء دوره في طبع المذكرات
المدرسية — أن ينقص منها واحدة ، ووزع المذكرات على طلبة
الفصل جميعاً ، وعددهم اثني عشر طالباً ، ما عدا إسماعيل ...
وجاء دور إسماعيل في طبع المذكرات بعد أسبوع ، فلم ينس
ثأره القريب ، وأحال الأمر على قلة الغراء في المطبعة ... ولكنه
كشف السر بيدين من نظمه ، أثبتهما على ذيل المذكرة
وقال فيهما :

طبعت من الم لازم ستين وقصر في مطابعتنا الغراء
فن يحرم فلا يعتب علينا فواحدة بواحدة جزاء
وقهقه الشيخ الوقور ضاحكاً وهو يستطرد في حديثه قائلاً :
وأطلعت على النسخ وعلت أنها عيطه ، بين محمود عبد الغفار
بسطوته الريفية ، وإسماعيل الحكيم بتقاليعه الشعرية ، وذهبت
إلى عبد الغفار أقول له :

« الحق ! ... ليس لك مذكرة في هذا الأسبوع ، ... »

فهجم عبد الغفار على حجرة المطبعة وانتزع الأوراق وبسطها
جميعاً أمامه وانتقى أوصحها وأنظفها ومضى بها ، وإسماعيل ينظر
إليه ويستمع له وهو يناديه بعد أن تخطى الباب : امضغ الستين
يا حضرة الفيلسوف ! ...

ثم روى لي قصة من قصص كثيرة بينه وبين لطفي - يعني
الأستاذ الجليل أحمد لطفي السيد - وإسماعيل الحكيم قال :
« كنا نجلس على قهوة بميدان الأوبرا ، إذ أقبل علينا إسماعيل
من بعيد فناديتيه مداعباً :

« يا مرحباً بالفلسفه ... »

فما كان أسرع منه أن قال مجيباً :

« إن لم يكن فيها سفه ... »

وعقب الأستاذ عبد الميز فقال :

« وهكذا غلبنا ، وكان يغلبنا دائماً بسرعة الجواب وارتجال

الشعر والخطاب ... »

انتهى مقال العقاد .

غير أنه عاد فكتب في نفس هذا الموضوع بمناسبة أخرى

في جريدة الاخبار بتاريخ ٢١ أغسطس ١٩٦٣ ما نصه :

« قرأت اليوم في الصحف بشرى المدخنين ؛ لأنهم يستطيعون قريبا أن يدخنوا سجائر محشوة بالتفاح والبنجر والخضر والفاكهة بدلا من السجائر المحشوة بالنيكوتين ... وقبل أكثر من عشر سنوات سمعت عن خلطة جديدة للسجائر من اختراع « اسماعيل الحكيم » والد زميلنا ، توفيق الحكيم ، وقوامها نخبة من الأعشاب ، والزعر على الخصوص ... على أثر معركة من معارك اللغة في الجمع دعاني زميلنا الكبير عبد العزيز فهمي « باشا » إلى تناول الغذاء معه بمنزله في شارع بطرس باشا المجاور للشارع الذي أسكن فيه .

وجد شيخ القضاة عند دخوله حجرة الاستقبال نسخة من كتاب جديد للأستاذ توفيق الحكيم ، فقال متمتا :

« الله يرحم والده ... هل صاحبكم ياترى كأييه في فلسفته ؟ ... » قلت :

« هل كان أبوه فيلسوفا ؟ ... » قال :

« على نحو ما نعم ... كان يجب أن يبتدع له بدعة في كل

شيء ، حتى التدخين . وخطر له يوماً أن يسأل نفسه لماذا يمنع الناس السجائر من الدخان ولا يصنعونها من الأعشاب الكثيرة التي تمتلئ بها أحقاق العطارين عندنا ؟ ... من الزعر مثلا ، وهو أطيب رائحة وأحسن مذاقا .. وجاءنا يوما وكنت أنا ولطفي على قهوة بميدان الأوبرا ، وفي يده سيجارة من تلك السجائر الفلسفية ... ثم أخذ في شرح فلسفته التدخينية مع فلسفات أخرى في شتى مسائل القانون والاجتماع ، وقد كنا ندرسها معاً بمدرسة الحقوق ، ... انتهى كلام عبد العزيز فهمي . ويختم العقاد مقاله بقوله : « ذكرت ذلك الاختراع القديم حين قرأت هذا الاختراع الأمر بكافي الجديد وأحببت أن أذكر به زميلنا توفيق الحكيم لكيلا تفوته المطالبة بحق الاختراع الأول إذا نجحت التجربة ... وليست حجته القانونية بالنى تخفى عليه »

هذه الصورة الغريبة التي نقلها العقاد عن عبد العزيز فهمي لم أره أنا في والدي مع الأسف . فسرعة الجواب والخطاب كانت فيها يظهر قد انتهت واختفت عندما شببت ووعيت ... اختفت صورة الشاعر الفيلسوف المتفنن بعشونه أو لحيته الصغيرة التي كان

يبريها - كما علمت - ويتحدى بها الجميع .. إلى أن حلقها له زملاؤه
إسماعيل صدقي والآخرون ليلة زفافه ، رحمة بالعروس كما قالوا ...
اختفت معالم تلك الشخصية بطرافتها .

س - ولم أجد أنا أماً إلا رجلاً رزينا وقوراً مطيلاً في التفكير
متأملاً في الكلام قبل النطق به إلى حد يكاد يوحى ببطء الفهم
والبدية ، بما أطمع والدتي وأثار فيها شعوراً بالتفوق ، فكانت
تقول لي دائماً :

أنا أذكى من أيك ... أنا أسرع فهماً من أيك ...

كانت صورة والدي حقاً أقرب إلى الانطفاء . أما نواليفه وتفانيته
وفلسفته فإنني لأعجب أنها كانت له يوماً ... فإن الأب الذي عرفته
كان أبعد الناس عن كل هذه الأوصاف ... أترى مسئوليات القضاء
والزواج والأسرة قد حطمت فيه كل شاعرية ؟ ... لست أدري ...
هنالك مع ذلك لحظات وتصرفات وأحوال تبدو منه أحياناً
فتكشف عن المعدن القديم ؛ إلا أن لونها قد تغير ، كما تغير
إطارها ؛ فهي هنا تنصب على الواقع اليومي ... واقع حياته العملية
والوظيفية والزوجية ، ولا علاقة لها بالشعر والفكر والتفنن ،

ولم أسمع منه هو قط وصفاً أو ذكراً لأيام شبابه تلك ، وكأني به
قد نسيها أو تناساها ...

ما الذي حدث له بالضبط ؟ ... أهو مجرد الزواج وأعبائه ؟ ...
أهي والدتي بشخصيتها القوية الثائرة العنيفة المسيطرة وجهت مصير
زوجها كما أرادت هي ؟ ... فحشرت نشاطه داخل الإطار العائلي
المادي وحده ؟ ... لقد كانت والدتي فعلاً شديدة القلق دائماً على
أمر معاشها ولم يكن والدي يملك غير مرتبه ... فإن أمه كانت
معدمة ، وأبوه لم يرث عنه غير خمسة أفدنة مرهونة ضاعت في ديون
التركة ... مرتب وظيفته كان إذن هو كل الضمان عند والدتي ... ظل
هذا هو اعتقادي الذي نفرني من الزواج زمناً طويلاً ... لكن
والدتي أكدت لي أنها لم تكن مسئولة عن ذلك ... وأن طبيعة والدي
هي المسئولة ، إنه فعلاً ينطوي على قلب طيب يأبى عليه أن يسير في
طريق يتعارض مع واجباته كرجل أسرة ... إن الشعور بالمسئولية
والواجب أقوى عنده دائماً من كل شيء ، ولكي يحتفظ بصورته
المتحررة القديمة ؛ كان لابد أن يصدر عنه من المخاطر ما قد
يزعزع الحياة الزوجية ... وهو لا يرضى أن يحدث ضرراً بأهل بيته

الآبريا ... هناك طريق يحتاج أحيانا إلى الحركة الجنونية ...
لاحظت ذلك في بعض مواقف الحياة ، وكنت أقول :

— إن ما لا يحل بالعقل يجب أن يحل بالجنون

ولكن هناك أيضاً طبائع تأتي هذا الحل مهما يكن الأمر
إذا أضر بالآخرين ... وهذه طبيعة والدي ... إن شعوره
القوى بالواجب والمسئولية كرب أسرة كان يتضاد أيضاً أمام
شعوره بالتبعية والواجب كقاض ... امتحن هذا الشعور يوم
عرضت أمامه قضية التعذيب المشهورة في البحيرة خلال الحرب
العالمية الأولى : يوم دبر الإنجليز مؤامرة ضد مدير البحيرة
وحكمادها تنكيلا بهما ؛ لأنهما لم يظهر روح التعاون معهم ...
وشم والدي رائحة التمسيد والإرهاب تحوم حوله وأحس بأن
منصبه مهدد إذا عارض أو اعترض ... فما التفت إلا إلى صوت
ضميره وحده وحكم بعكس ما أراد الإنجليز ... فكسروا حكمه
وجاءوا بمن أعاد النظر فيه وحكم لهم بما أرادوا ... وتأخر والدي
بسببها في الترقية ... ثم ما كان من أمره يوم رأس محكمة أحد
أعضائها انجليزى ... فلما دقت ساعة الظهور طلب العضو

الإنجليزى وقف الجلسة ايذهب إلى منزله ويتغدى مع زوجته ؛
فقال له والدي بحزم :

جلستنا مستمرة حتى الثالثة ، وربما الرابعة ... واعمل حسابك
على ذلك يامستر ما دمت معنا هنا ... أما وقف الجلسة من أجل
أن تتغدى في بيتك فمستحيل ! ...

وكظمها القاضى الانجليزى ... وجاء صاغراً في اليوم التالى
يحمل سلة صغيرة فيها وجبة خفيفة يتناولها في الاستراحة ...

احترامه للواجب وطبعه الذى ينسكرك الدوران مع المصلحة
والوصول ... هذا الطبع كان من أهم أسباب تخلفه عن زملائه
في سلك الوظائف ، فهو ما قفز فيها قط قفزة ، ولا روعى أى
مراجعة أو حوبى أى محاباة ؛ إنما هو قد سار فيها من أول الطريق
إلى آخره ببطء السائر الطبيعى الذى لا يسنده غير مجرد عمله ...

ولنعد إلى دفتره أيام شبابه ، فهو وحده الذى نجد فيه بعض
الإشارات إلى حياته الماضية ، كتب يقول فى إحدى صفحاته :
« خرجت من مدرسة الحقوق ، وحصلت على الشهادة النهائية
فى علم الحقوق « ليسانسيه » وانسلكت ضمن مستخدمي الحكومة ،

وعينت كاتباً «ظهورات» في محكمة طنطا مع قاضي التحقيق محمد بك صالح وأحمد أفندي عبد الرازق ، ... انتهى كلامه .

ولعل ما يستلفت النظر فيه هو أن الحاصلين على الليسانس في ذلك الوقت على ندرتهم — كانت الدفعة تتراوح ما بين عشرة واثني عشر طالباً — كان المتخرج منهم بوضع في أول درجات السلم ... فلم يكن هناك من هو دونهم كما نرى ، غير السعاة والفراشين ، ومن هنا جاءت ولاشك متانة تكوينهم ؛ فقد عرفوا العمل من أساسه ، وفي مراتبه الدنيا ، وكانوا يصعدون بعد ذلك درجة درجة ... يقول والدي في نفس الصفحة :

«وعينت معاوناً للنيابة ، ونقلت إلى ملوى ، وأقيمت بها ثلاثة شهور ، ثم نقلت إلى أسيوط ، ثم إلى جرجا ... ثم عينت مساعداً للنيابة في إيتاي البارود ، ونظراً لكون بلدنا «صفط الملوك» هي في دائرة تلك النيابة نقلت إلى سوهاج . واعترااني مرض الدوسنطارية ولازمي ثلاثة أشهر ؛ فحررت خطاباً بالعربية إلى جناب النائب العمومي «كورت بك» لنقلني إلى نيابة في الوجه البحري ، فنقلت إلى نيابة بنها ... ومكثت بها إلى أن نقلت إلى نيابة المحلة الكبرى ...»

وفي صفحة أخرى من الدفتر كتب يقول :

«قررت نظارة الحقانية ترقيتي مساعداً للنيابة بمرتبة عشرة جنهات شهرياً ...» .

ويظلم أن والدي منذ أن بلغ مرتبه هذا المقدار بدأ يفكر في الزواج ...

ولعل ما كان فيه من وحدة ، وما اعتراه من مرض دفعه إلى ذلك دفعاً ، وكان لابد للبحث عن العروس من معاونة الأهل ... ولم يكن بين النساء من أهله في الريف من تستطيع القيام بهذه المهمة في البنادر غير واحدة : هي زوجة أبيه الجديدة : سيدة اسكندرانية الأصل ، بيضاء البشرة ، على جانب من الجمال والتدين جعل منها سيدة الناحية ذات الخطوة عند رب الأسرة وأولاده ونسائه القديمات جميعاً ... فأوصاها والدي كما أوصى العممة والأخت السابق ذكرهما بالبحث عن بغيته ... وأوضح طلبه قائلاً :

إنه لا يريد زوجة من بيوت الباشوات التي يجلس على أبوابها الأغوات ...

كان المعروف وقتئذ أن رجال القضاء تتخاطفهم الأسر
الكبيرة الثرية ، لما ينتظرهم من مستقبل في حكم البلاد ،
وقد تزوج أكثر زملائه بالفعل من بنات الباشوات ، ولكنه هو
— ربما لطبيعته الشعرية — لم يكن ذا مطامع من هذا القبيل ...
كان كل مطلبه زوجة ذات وجه حسن وعلى قدر من التعليم
والتنور ...

وهكذا تم العثور على والدتي ...

لاهرت العروس إلى الحلة الكبرى ... وما كادت تدخل بيت
... .. لم تجد هناك شيئاً يوكل ... اللهم إلهابة
صوتها لها قائل من السمن ، قد أغلق عليها بالقفل والمفتاح
فأباحت جواهرها ... ومالت زوجها عن مرتبه الحقيقي فقال :
عشره جنات ... فصرخت من الفزع وقالت : فقط ١٩ ...
إن أهله عند خطبتها قالوا : مرتبه أكثر من عشرين جناتها
لأنه الذي يحسن له ، ١٠ ... فصاح فيها :
... .. أنا وكيل لياقة ١٩ ... أيمن لو كيل نيابه نزيه
أن يدخل له شيء غير مرتبه الرسمي ... ومع ذلك فالعشرة
الجنات مخصص منها أيضا احتياطي المعاش ...

وهنا لطمت صدغها ، كما قالت لي ، وشعرت بالخوف
من المستقبل ... فقد كانت ذات طبيعة متناقضة : فيها جرأة
وفها خوف في نفس الوقت ... جرأة على الناس ، وخوف
على نفسها ... وجعلت تفكر طويلاً في طريقة تؤمن بها

حياتها ... قالت في سرها : إذا مات هذا الرجل في اليوم التالي
فماذا تصنع ؟ ... أما والدي فكان يرى الأمر طبيعياً ؛ لأن هذه
هو الوضع بالنسبة إلى أكثر زملائه . فقال لزوجته :
أحمدى ربك أنى لم أتزوجك بعد تعيينى كاتباً وظهورات ، بخمسة
جنيهاً كما فعل بهض الزملاء ... ماذا كنت ستفعلن إذن ؟ ...
على أن رقى وكيلاً للنيابة من الدرجة الرابعة بمرتبة خمسة عشر جنيهاً .
ورأى أن يرفه عن زوجته فعرض عليها السفر معه إلى أهله في صفت
الملك ، ليقدهما إلى أبيه ؛ لعله يظفر منه بشيء من المساعدة .
وكنتم قد ولدت منذ شهر ؛ فحملتني والدتي بين ذراعيها وركبت
القطار ، ووالدي إلى جوارها . وهى فرحة بالرحلة تمنى نفسها
بتزهوة في الريف جميلة : شهر عسل حقيقى وإن جاء متأخراً ...
ولم تكن وهى التى عاشت طول حياتها أمام البحر — تد شاهدت
الريف قط ؛ فكانت تخلط بين بين البقرة والجاموسة وهى تراهما في
الحقول من نافذة القطار ... وفجأة أحست كأن زوجها يريد أن
يقول لها شيئاً ويتردد . ثم رآته قد تشجع ومال على أذنها قائلاً :

عندى كلمة أحب أن تسمعيها ، فأصفت إليه وقد توجست
من لبرته ما أثار قلقها ... قال :
إذا وجهت إليك زوجة أبى كلمة جافية فحمليها ، ...
شمرت والدتي عندئذ — كما وصفت لى فيما بعد — بالدم
الجارى إياه صعد إلى راسها وأجابت على الفور :
والله لو قالت لى كلمة لأرد عليها بعشرين ...
والله والدتي يستهظفها :
أرجموك ... لأجل مخاطري وخاطر أبى ...
لم أحب ... واهنت طول الرحلة مغلفة الشفتين بمنغصة البال ،
ولم تسمع من والدها السفر وبهجة ... ووصلت إلى العزبة ،
فرجعت هناك بيتاً كبيراً ، أنزلوها هى وزوجها وطفلها في
حجرة منه ... بالجناح الذى تقيم فيه الزوجات القديمات ...
كانت كل واحدة منهن تختص بحجرة هى وأولادها ... أما الجناح
الأخر الأنظف في حجراته الأحسن في موقعه فقد كان مخصصاً
لرب الأسرة الكبير وزوجته الجديدة المتمدنة وأولادها ...
ولم تلبث الزوجات القديمات أن أحطن بوالدتي وجملن يحذرنها

من غطرسة الجديدة وكبرياتها ... وكانت إحداهن تفصل ثوباً
بمقص في يدها وهي تقول :

« غداً ترشقك بكلامها الحاد كالسيف » ...

فأجابت والدتي في انطلاقة المهم :

« والله لأقطع لسانها بهذا المقص الذي في يدك ! ... »

ولم تضر ساعة حتى كانت هذه الحكامة قد انقلت بنصها إلى
سيدة المسكان ! ... ولا تدري والدتي كيف نقلت ولا من التي
نقلتها من بين الحاضرات ... كل الذي تعلمه وتذكره دائماً طول
حياتها ولا تنساه هو أن الدنيا قامت وقعدت ... وإذا بمحكمة
تنصب ، وإذا بسيدة البيت تصبح بأعلى صوتها :

« نادوا سيدكم الكبير ! ... »

وإذا برب البيت يحضر بوقاره وشيئته وجبتته وقفطانه
ويجلس في صدر المكان ويطلب والدي ويأمره بأحضار زوجته
لتسأل هل تلفظت حقاً بهذه الكلمة ؟ ...

وحضرت والدتي تحملني بين ذراعيها ، ووقف بجوارها والدي
يمس في أذنها أن تكذب ما نقل عنها ... ولكنها قالت له بعصبيتها :

قلنا وأقولها مرة أخرى في مواجهتها .

فأفهمها والدي أنها إذا أصرت على هذا الموقف فإنه سيضطر
إلى طلاقها ... كانت والدتي تذكر لي مركزها هذا الدقيق وهي
ممددة بالطلاق وعلى ذراعيها طفل ... وليس أمامها إذا وقعت
الرافعة إلا شهادة روح أمها الذي كان يعتقد دائماً أن مثلها لن يفلح
في زواج ... أن يكون لها من مهر إلا المعيشة في بيت أختها التي
تكرهها ، والموت أهون لها من ذلك ... لكنها على الرغم من
هذا كله لم تنسك في تلك اللحظة إلا في موقفها الممين أمام تلك
الحكمة العجيبة المنصوبة لأذلالها ، وهي العروس الضيفة ! ...
و... تدار إلى الوجوه المحيطة بها... إن جميع من في هذا البيت
الكبير قد حضر المحاكاة ... كل الزوجات القديمات وأولادهن
ومن كان بالزينة من إخوة زوجها ونسائهم ... لم يبق أحد
لم يحضر لي شاهد ، أو لي شاهد بالحق وبالباطل لإرضاء لسيد البيت
وإنفاقاً لزوجته المفضلة .. لم يكن لها وقتئذ — وهي الزينة —
من سند وظهير بين كل هؤلاء إلا زوجها ... ولكن زوجها
كان كل همه أن لا يثير أزمة ... كان يريد أن تكذب

أو تعتذر... وكانت هي تنتظر منه أن يقف إلى جانبها وأن يثور لها وأن ينافح عنها ضد زوجة أبيه... ولو أدى الأمر إلى انسحابه والعودة معها فوراً من حيث جاء... لكنه وقف إلى جوارها كي يحثها على الإنكار أو الاعتذار... ولم تقبل هي واحداً منهما... لقد أصرت على أنها قالت ما قالت، وأن من يتجرأ على إهانتها فإنها تقطع لسانه بالمنص... وكررت الكلمة... وعند ذاك صرخت سيدة البيت وأهابت بالسيد الكبير أن ينزل سنخه ونقمة على زوجة ابنه الصليطة...

تقول والدي إن والدي سحبها من يدها وهو يهمهم بكلمة الطلاق أو يهدد بها... وخرج بها إلى حجرتها... كانت تقص على والدي هذا الموقف وهي منفعلة وتختم بقولها :
« خذني أبوك يومها... خذني بنذالة... »

لم أكن مع الأسف في السن التي تعي ما حدث، لأصدر رأيي، ولم أسمع القصة من والدي ولا رأيها فيها... ولكن الذي أعلمه أن والدي كان باراً بأبيه، شديد الحرص على إرضائه، وعلى إرضاء زوجة أبيه كرامة لأبيه... قالت والدي إن الموقف

لم ينقذه إلا السيد الكبير نفسه... فقد احترم فيها الشجاعة... وأدرك أنها ليست من طراز أولئك الزوجات القديمات، وأنه لا بد لها من حامله أخرى... فمضى إليها في حجرتها، ولطفها وأسلم الأوردها وبين زوجته...

المرء الذي خرج من رحله الريف هذه بأمرين : الأول تأملها المتدائمة إلى مثل هذه الحياة الزوجية... والثاني ضرورة إبعاد موردها عن غرائل الدهر... فما أن عاد الرقاد منها وبين زوجها على أتمه، وآنست منه إخلاصاً وعطفاً، حرمها منه، فقال لها إنه فلاح ولا يفهم إلا في الأرض... وكان لها من حصتها في البوغاز ومن نصيبها في البيت الكبير الماروث عن أبيها قدر من المال، استطاع زوج أخيها بما طبع طابعه من شهامة ومروءة وأخلاق كريمة أن يستخلصه ويدخره لها... جهزت بجزء منه، والجزء الباقي اشترى لها به عقاراً صغيراً في حي رأس التين... ولم يكن جهازها قد تم نقله كله إلى المحلة الكبرى، فكتبت إلى زوج أخيها تسأله أن يعرض الجهاز المتبقى للبيع وكذلك العقار... وقد تجمع لها من كل ذلك ما يقرب من

ألف جنيه وعارنها والدي خير معاونة وأصدقها في هذا المشروع ...
وجعل يبحث لها طويلا عن بغيتها ...

في صفحة من دفتره الصغير فقرة لا أدري أكانت تتعلق
بهذا الموضوع أم بغيره ... هذا نصها :

١٥٧٠ (ألف وخمسمائة وسبعون فداناً) ... بناحية البلقون
تعلق المرحوم أمين باشا سيد أحمد صهر حضرة اسماعيل بك
صدقى ... الوصول إليها بطريق الترمواى من كفر الدوار إلى
محطة سيدى غازى ... الأرض المذكورة هي بجوار عزبة الخواجة
مترى وعزبة الخواجة بابا المعروفة بعزبة شاكر شقير وعزبة
الخواجة سيدناوى ، الثمن المطلوب خمسة جنيهات للفدان ... ولكن
المراد أخذها من ٢ جنيه إلى ٣ جنيه ...

هذا ماسطاره والدي بالحرف ... ولم يتم بالطبع شراء هذه
الصفحة ... لكن من جهة أخرى هذا الفدان الذى عرض للبيع بمبلغ
خمسة جنيهات ، وأراده والدي بجنيهين أو ثلاثة ، ماذا كان نوعه
وصفته ؟ ... وماذا كان يمكن أن يثمر ؟ ... لاشك أنه كان سيحتاج
إلى استصلاح بأضعاف ثمنه ، وكان سيغرق في رماله وسبخه

وملحه ما ادخرته أمى وما يمكن أن تدخره طول حياتها ...
والدي له من النصائح المالية ما يفرق للأذان ، كما سنرى فيما
بعد ... فعلمنا معى أنا نفسى مرة عقب الحرب العالمية الأولى ...
عندما هبطت قيمة المارك الألمانى بعد هزيمة ألمانيا ... كنت
أدرك ... عشر جنيهات ، جميعها من مصر وفى طول عهد دراستى
العصر والحرمات ... جاء ذات يوم يزف البشرى ويقول :
إن المارك من الماركات سعده الآن فى البورصة عشرة
جنيهات ...

ومال لي يفرى حتى دفعت له الجنيهات العشرة مدخرى كله ،
فذهب بها وعاد إلى شريك طويل عريض على الدويش بنك ، تحرر
عليه بالألمانية مايون مارك .. قدمه إلى وقال بلمهجة الانتصار :
« أنت الآن يا ولد مليونير » ! ... كان دائماً ينادى بلفظ
« يا ولد ، أو « يا ولد يا توفيق ، ... حتى بعد تعيينى عضواً
بالنيابة ... وجعل يحسب لى بالقلم والورقة وهو يقول :

« لا بد من ارتفاع سعر المارك غداً ... لأنه من غير المعقول
أن يظل هكذا فى ألمانيا عندما تستتب الأمور ... فلنقرض مثلاً

أن قيمته ستصبح قرشا واحداً... إذن سيصبح معك عشرة آلاف جنيه... فلنفرض أسوأ الفروض ولنقل أنه أصبح بنصف قرش إذن سيكون عندك خمسة آلاف... خمسة آلاف جنيه على أسوأ فرض... ما رأيك؟...

وجعلت أحلم بهذه الآلاف... إلى أن أعلنت الحقيقة ذات يوم... الحقيقة المرة... لقد قررت ألمانيا إلغاء هذا المارك... وأصبح الشيك الطويل العريض الذي في يدي حبراً على ورق... وضاعت جنبها في العشرة... ..

لم أغتفر لو الذي يومئذ تلك النصيحة المالية التي خربتني... لذلك لست أشك في أن تلك السطور التي دونها في دفتره هي من وحيه المالي، وأن اتجاهه إلى البحث عن الأطنان التي تعد بالآلاف ونشترى بالقروش إنما هي من بنات أفكاره... ولكن الله سلم... لم يتحقق حلمه الذهبي... بل تحقق شيء آخر:

ظهر في ذلك الوقت قريب لإحدى زوجات جدي القديمات، كان رجلاً طيباً يحب والدي وأراد أن يخدم والدتي... سمع بنصح من نصحتها بشراء عشرة فدادين فقط جيدة بمبلغها هذا... فرفض

هذا الرأي وقال لو الدق: والله لأعثر لك على عربة لا تقل عن سبعين فدانا يمكن مع العمل أن تصبح جيدة... وكان ما قال وعثر لها فعلاً على عربة بهذا القدر بناحية أبي مسعود... كانت تسمى عربة نوري... وهذه العربة لا سمع ثلاثين جنبها للفدان... صالح أكثرها للزراعة... وهنا برزت عربة ثرى جملة المبلغ المطلوب ٢١٠٠ جنيه... وكل ما حصل المرحوم في يد والدتي حوالى ألف لا غير... ما العمل؟... لم يكن هناك من سبيل لشراء هذه الأرض إلا اقترض الباقى من البنك العقارى... وتم السعى لدى البنك فقبل بشرط أن يوفد خيراً يقدر قوة الأطنان... وكان الخير... لحسن المصادفة... من أصدقاء والدي منذ عهد الدراسة... كانا متجاورين في الحارة المذكورة التي سكنوا فيها أيام الطلب... أصبح مهندساً ومقاولاً وخبيراً... وقد ظل صديقاً للعائلة طول حياته... سيأتى ذكره هنا فيما بعد... فلا ذكر اسمه الأول فقط يوسف... هذا المهندس الصديق يوسف... قدر الأرض تقديراً طيباً سمح للبنك أن يقرض المبلغ على أن ترهن له الأطنان، ويسدد الدين على مدى ثلاثين عاماً بالفائدة... أسرد هذه التفاصيل، لأنى عشت طول شبابي الأول...

وتخرجت في مدرسة الحقوق ، وسافرت إلى أوروبا وعدت منها وعينت عضواً بالنيابة ، والرهن قائم والفوائد تدفع والأقساط تسدد ، وهذا القرض لا يزال راسخاً عتيداً لا يريد أن يزول ...
والدتي تعترف دائماً لوالدي بحميل سعيه وجريه واجتهاده بكل همة وإخلاص في موضوع شراء هذه الأرض ، حتى تمت كل تلك الإجراءات المضنية اللازمة لعقد شراء الأطيان وتسجيله .
— غير أنها فوجئت - كما تقول - ذات يوم في غيبة والدي باستلام أوراق ، ما أن اطلعت عليها حتى جن جنونها : لقد اكتشفت أن زوجها كتب لنفسه ثلاثين فدانا من الأطيان وكتب باسمها الأربعين الأخرى . ولكنها ليست باللقمة السائغة ولا الفريسة الهينة . إنها لم تكد ترى وجهه حتى استقبلته بالصراخ والزعيق واتهمته بسوء استغلال التوكيل عنها ، ورمته بألفاظ النصب والاحتيال ، وظلمت به تنكده عليه عيشته بما طبعت عليه من صلابة إرادة حتى استسلم وأذعن . ونهض يصحح الوضع كما شاءت هي . وبذلك أصبحت حجج الأطيان كلها باسمها هي وحدها ...

كل هذا وقع وأنا في السنوات الأولى من عمري ... في تلك السن التي لا تستطيع معها الذاكرة أن تحترق الضباب الكثيف المحيط بها . فحينئذ عندما أريد أن نرتد بناكرتنا إلى الطفولة بعدها قد انتهت إلى شبه جدار أسود أصم نصطدم به ... لا نبصر بعده شيئاً إلاهم إلا بعض صور مبتورة غامضة ، نحار في معناها ، وهم ما يحاول الكبار تفسيرها لنا ، فإن هذا التفسير يبدو أضال بكثير من الحجم الهائل الذي تبديت لنا فيه ... ذلك أن كل شيء لم يك في عالم الطفولة أعذ أشكالا لا يستطيع عقل الكبار أن يحيطوا به ليفسروه على حقيقة ، إلى ظهر بها في ذلك العالم الصغير الكبير الغامض ... من ذلك منظر تلك العفاريات ، المتدثرة في البياض أو السواد ، التي كانت تظهر لي خلف الأبواب ، ثم تختفي بسرعة البرق ... كنت أرتاع منها أشد الروع ، وكنت أحرار في تحليل طريقة ظهورها واختفائها ... قيل لي فيما بعد إنها الخادم والمرضعة كانتا تتدثران في ملء الفرش البيضاء أحيانا وفي ملء سوداء ،

لتخيفاني وتسكتاني... ذلك أنى كما يروون كنت طفلاً مزعجاً...
« بشقاوته وعفرتته... كان همى إلقاء أدوات المنزل وأواني من
ملاعق وشوك وسكاكين وأطباق وغيرها من النافذة... والفرجة
عليها والمرح بمنظرها وهى ملقاة بالطريق... وتعدى الأمر ذات
يوم إلى « نيمسة » ذهبية للرضع اشترتها بكل ما ادخرته من أجرها
غافلتها وانتزعتها من صدرها وألقيت بها فى الطريق... وكان باب
المنزل قد أغلقته علينا والدق بالمفتاح... كعادتها عند خروجها
لزيارة، حتى لا تنزل بي المرضعة إلى الطرقات... فلما ألقيت
بالحلية الذهبية، وقفت صاحبها فى النافذة تنظر إليها وهى ملقاة
فى الشارع وقد أصابها الخبل وجعلت تصيح وتستغيث بالمارة
والجيران، وأنا أنظر إليها ضاحكاً من منظرها كما قالوا...

لا أذكر تماماً مثل هذه الحوادث... إنها وقعت ولا شك
فى مرحلة خارج منطقة الوعي عندى... كل ما أستطيع أن
أذكره وأعيه فى تلك المرحلة هى صور العفاريث المتدثرة فى البياض
أو السواد... هذا ما استطاع أن يعلق بذاكرتى على نحو
باهت غامض...

ثم عقب هذا العهد مرحلة أخرى أكثر وضوحاً : مرضى
الطويل... لقد ولدت فيما عشت بمثل الصحة... ولكن هذه
الصحة لم تدم أكثر من سنوات قليلة، أربع أو خمس...
ثم أتت الأمراض... إلى أذكر هذه المرحلة... يجبل إلى أن
المرض كان معها يسمى لا يزرل إلا ليعود... لست أدري أى نوع
من الأمراض... لم تكن فقط مجرد أمراض الأطفال المعتادة،
من حمى وسعال ديكى وإسهال ونحو ذلك... إنها كانت
أمراضاً أخرى، علاوة على أمراض الطفولة تلك، استغرقت
عندى سنوات متتالية... كانت فترات الشفاء أندر من فترات
المرض... أذكر أن جدتى قالت لى يوماً ونحن فى الاسكندرية
ذات صيف : سأخذك لزيارة مقام سيدى الطرطوشى !... وهو
مشهور بشفائه للأمراض، وخاصة للحمى إلى كانت تلازمنى
ملازمة الرفيق السوء... كان هنالك شرط لا بد منه : أن أنى بنذره
المعروف : وهو الامتناع التام عن أكل الجبن الرومى... كان يقال
لأنه يعمت الجبن الرومى... وكنت بالطبع أصغر سنأ من أن أناقش هذا
القول، وأسأل : هل سيدى الطرطوشى، وهو من أولياء الله

الغابرين ، كان معاصراً لظهور الجبن الرومى ١٩ ...
 نذرت له ذلك النذر بكل إخلاص الطفل المؤمن الساذج ،
 ونفذته بكل أمانة ودقة ... أذكر أنى لبثت مدة طويلة لا أقرب
 هذا الجبن ولا أمسه بشفتى مع حبي الشديد له ... وشفيت فعلاً ...
 صورة أخرى أذكرها باهتة هي الأخرى فى تلك المرحلة ...
 هى مرض أمى الطويل .. فقد رأيتها صفراء الوجه ، كثيرة الرقاد
 فى فراشها ، نحيلة إلى حد مخيف ... قيل إنها منذ ولدتى أصابتها
 العلل ... كانت قبل حملها فى ممتلئة بالصحة إلى حد جعلها لا تشبع
 من الطعام ... وكانت تخجل من إظهار جوعها أمام زوجها ، وهى
 العروس الجديدة فى بيت الزوجية ... فكانت تكمل وجباتها خفية
 فى غيبة زوجها بما تقع عليه يدها من أى شىء يؤكل تصادفه ...
 ولكن الحمل الأول بى ، ثم الولادة ، قد أضرت بها ضرراً بليغاً ...
 قال لها أحد الأطباء إن كلية من كليتيها انخلعت من مكانها ، وإنها
 ربما ارتدت إلى موضعها بحمل آخر ... وتعلق بذاكرتى حتى الآن
 صورة سلة صغيرة حمراء بها فاكهة كانت دائماً بجوار فراشها ...
 فقد كان موصوفاً لها الإفطار بالفاكهة ... كنت أختلس النظر إلى

هذه الفاكهة ويسيل لها لعابى ولا يباح لى الدنو منها ... فقد قيل لى
 لأنها دواء من الأدوية ... وكان والدى طول مرض والدتى لا هم
 له إلا العمل على شفائها واستشارة الأطباء فى كل مكان ... ولما
 طال المرض وتغير شكل والدتى نصحه أقرباؤه فى الريف أن
 يكف عن شغل نفسه بامرأة مريضة ، وأن يفكر فى الزواج
 من أخرى صحيحة سليمة ... فكان يأنف من الإصغاء إلى هذا
 الكلام ... وكف على الاطلاع بنفسه فى كتب الطب ليتحرى
 من دائها ، بعد أن ينس من الأدوية والأطباء ... رأيت كتاباً
 بالفرنسية جاء به والدى ، ضمنا من ثلاثة أجزاء — لم يزل عندى
 حتى الساعة — يبحث فى الجسم البشرى ، ويصور أعضائه الداخلية
 فى لوحات ملونة مكبرة ... فالكلية تملأ صفحة ظهرت فيها كل
 تفاصيل تكوينها مع شرح لوظائفها وما تحتاج إليه لاستمرار عملها
 بانتظام ... كان والدى الذى لا يكل ولا يمل يأتى من عمله الفضائى
 فيطالع هذا الكتاب بدقته المعهودة ، ليقف بنفسه على سر
 المرض ... كل شىء كان يدرسه بنفسه — بما فطر عليه من صبر وجلد
 ومثابرة وقوة احتمال — دراسة دقيقة مستفيضة ، كأنها قضية من

القضايا ، لعل ذلك أيضاً أثر من آثار التكوين الأول لجيله المتين
القديم الدؤوب على البحث والتحصيل ...

وكنت أنا ألهو بصور هذا الكتاب أحياناً ، وتجذبني إليه ألوانه
الزاهية وجلدته المذهبة ، يدهشني أن هذا الكتاب بقى حتى اليوم
في حوزتي ، ينتقل معي من بيت إلى بيت ، ومن عمر إلى عمر ،
دون أن يفقد ، وبغير أن يلقي مني عناية خاصة في الاحتفاظ به ...
يظهر أن للكتاب أقداراً وأعماراً مماثلة لأقدار الناس وأعمارهم
يعمر ، منها ما يعمر بغير ما سبب ، ويختفي منها ما يختفي بغير ما سبب
أيضاً ! .. هذا الاخلاص من والدي كان له أعمق الأثر في نفس
والدتي ، كما تقول ... فقد أدركت منه مبلغ تفديسه للواجب
وحرصه على الزوجية ... وقد أخلاصت له هي أيضاً وأحبته كثيراً ،
وبعد ميلادي بعدة سنوات وضعت والدتي أخي الأصغر
والوحيد ... وسماه والدي زهير ، ... تيمنا باسم الشاعر الجاهلي
زهير بن أبي سلمى ، الذي كان يحفظ مملقته المشهورة ... وما من شك
أن والدي لو كان حاضراً ولادتي لأسماني باسم من هذه الأسماء ...
فكنت اليوم أدعى ، امرؤ القيس الحكيم ، أو طرفة أو لميد

وتنحو ذلك ... ولكن الله سلم ! ...

وتريد سخرية القدر أن يكون زهير ، أخي هذا من أبعد
أهل الأرض عن الشعر وسيرته ! ... لم ينطق فيه يوماً ، ولو على
سبيل المصادفة ، بيت واحد من الشعر . كان اتجاهه في الحياة
منذ نعومة أظفاره إلى نقيض الشعر والأدب والفن وكل ما يقترب
من هذه المنطقة ... وجهاته في الحياة — كوالدتي — مادية عملية
بجته ... وهواياته هي الرماية والصيد والسباحة والرقص ولعب
الورق وغير ذلك مما لا أستطيع أنا وصفه أو التفكير فيه .

وظلت أمي بعد ولادته على مرضها قليلاً ، ثم أخذت في التحسن
البطيء إلى أن اقتربت من الشفاء ... وكانت تحب الحلوى وتأكلها
بعد وجبة الغداء ، وتقول لي عندما أمد يدي إليها بخوف ورجاء :
لأنها أيضاً دواء وصفه لها الطبيب ... ولكن يظهر أنني لم أعد أفتنع
بهذا القول ... فكانت إزاء وقفتي الطويلة المستجدية كشحاذ صغير
يلتمس الحسنة ، تلقى إليّ بقطعة منها قائلة : « خذ ورح في داهية ! ... »
فإذا جاء موعد الغداء التالي ذهبت إليها أمد يدي وأقول : « اعطيني
واحدة وقولي لي رح في داهية ! ... » أما أخي الأصغر فإنه عندما

كبر قليلاً لم يكن يمد يده بالسؤال ، بل كان يقتحم ويخطف من يدها خطفاً ما يراه قبل أن يختفي في فمها . . . فمدت إلى غلق حجرتها عايتها بالمفتاح عندما تناول حلواها ، تحاشياً من هجومه وخطفه . . . لكنه كان أحرص وأمكر . . . فما يكاد موعد الوجبة يقترب حتى يكون هو أسبق إلى الحجرة ، يختفي تحت فراشها ، ويترصد بها حتى إذا أغلقت بابها واطمأنت وأخرجت الحلوى ودنت بها من فمها ، خرج هو من مكانه منقضاً خاطفاً ناهباً كالصقر ، لا يفلت منه شيء . . .

كان أخى منذ طفولته عنيفاً جريئاً . . . ولعله ورث ذلك عن والدته ميراثاً كاملاً . . . فكانا بذلك من معدن واحد . . . مما سبب لها هي كثيراً من المتاعب . . . أما أنا فكنت كلما كبرت ملت إلى الهدوء والتأمل واتخذت الكثير من سمات أبي ، لكن مع بركان داخلي في أعماقي هو « والدتي » مثل بركان « فيزوف » ينشط ويخمد في فترات ودورات . . . كانوا في صغرنا يضعونني أنا وأخى في سرير واحد ، لضيق المساكن التي كنا نقطعها . . . فإذا جاء الشتاء تنازعنا طول الليل الغطاء . . . وما كنت أشعر إلا وأخى قد شد عليه

الغطاء كله بعنف وتركني في العراء ، ثم ما يابث هو أيضاً من كثرة حركته العصبية العنيفة أن يترك الغطاء ينحدر من فوق جسمه . . . فكان يصاب كلانا بأمراض البرد ، مما ألجأ أهلكنا إلى اختراع عجيب ، طالما ضايقتنا : فصلوا لنا غطاءنا من البطاطين على شكل كيهين مثل أكياس القطن ، يدخلون كل واحد منا في كيس بجسمه وذراعيه ، فلا يظهر من فتحاته إلا الرأس فقط ، ثم يشدون على العنق رباطا كرباط التكة ، ويلقون بالكيسين فوق السرير ، ليكنا هكذا ونحن داخلهما بلا حراك حتى الصباح . . . كنت أدخل أنا كل ليلة في زكيتي وأنا أكنم تضري وضيق ، ولكن أخى ما كان يكتن شيئاً . . . طبيعته في هذا أيضاً كطبيعة والدته . . . وعلى عكس طبيعة والدي . . . لا يستطيع أن يكتن أو يكظم . . . لذلك كان يصيح ويحتج ويلعن ويسب ويهجرني ويأبى الدخول في كيسه . . . ويظنون به يلاطفونه ويحتالون عليه بمختلف الحيل حتى يرضى ويلين . . . كان له من الصياح والزعيق طريقة يخيف بها والديه أحياناً ويضحكهم أحياناً ، فينتهون دائماً إلى النزول على إرادته . . . كنت أرتكب أنا وهو نفس الذنب . . . كأن نتسلق معاً

جداراً للجيران لنسرق ليمونة من شجرة ، أو نتقاذف شيئاً
فنصيب به لوح زجاج فيكسر ... ويأتى أبى بالفلقة ليضربنا ...
فاذا أنا الذى أتقبل العقوبة وأضرب بالفعل ، أما أخى فما يكاد
يجى دوره حتى يصيح ويتشنج ويبكى ويلعن ، مما يحمل والدى
على الدهول عنه أو الضحك منه ، ويفسد بذلك موقف الجد ،
فيضطر إلى أن يتركه ويمضى ...

على أن طفولتنا بوجه عام لم تكن طفولة مدللة ...
فأنا لا أذكر أنى تلقيت من أهلى لعبة من اللعب ... إلا مرة :
دخل علينا والدى وفى يده وابور صفيح صنير فى حجم الأصبع ،
يباع فى الشوارع بنصف قرش ، قدمه إلى بزهو وهو يقول :
« خذ اللعب يا وله ! » ...

فم أفرح به كثيراً ، لأنه كان ضئيلاً جداً ، ولا يسير
إلا دفعا باليد ... لا يملأ بمفتاح ، ولا يهر لونه النظر ...
ولم نكن نعرف هذا الذى يسمونه اليوم عيد الميلاد ، ويصر على
الاحتفال به أولادنا وأحفادنا ، ويطالبون فيه بالحلوى والشموع
والهدايا وإرسال الدعوات ... ما كنا نذكر قط أو نعرف لنا أيام

ميلاد ... ما كنا قط نعطي ولا كان أحد يعطي لحياتنا أو تاريخ
وجودنا مثل هذه الأهمية ! ... اليوم الوحيد الذى كنا نشعر فيه
بجد يد هو يوم العيد ، الكبير أو الصنير ؛ فقد كنا نتلقى فيه
خمسة قروش وعيدية ، ... كنت أنا شخصياً أكتفى باللعب بها طوال
أيام العيد ، ثم أردتها بعد ذلك إلى أهلى دون أن أنفقها ...

غير أن قدوم العيد كان هو حقاً كل فرصتنا لشراء ما يلزمنا
من ملابس جديدة تنفعنا طول عامنا ... فكانوا يأخذوننا إلى محل
يسمى « ماير » ، ثم إلى آخر يسمى « ستاين » ، وهناك يقوم دائماً
بيننا المراك والصراع ... فالذى يبدأ أول ما يبدأ بقراءة بطاقة
التمن ... ثم يأخذ فى تقريظ وتحميد الوع الأرخص ، أما نحن
فلا ننظر فى بطاقات ، ولـكن نتجه بأبصارنا تواء إلى ما يحلو لنا ،
فاذا بنا قد وقعنا على الأصناف الغالية ! ... لكن منذ الذى كان
يستمع إلينا ؟ ... كان والدى يشير من طرف خفى إلى البائع
خلف لنا فى الورق بسرعة ما اختاره هو لنا ... فتمضى به صاغرين ...
تأتى بعد ذلك مرحلة أكثر وضوحاً .. مرحلة عجيبة لا أدرى
كنها حتى الآن .. ظاهرة لم أستطع لها حتى اليوم تعليلاً طبيياً ...

كنت أصاب بحمى تلزمى الفراش نحو ثلاثة أيام ، كلها وقع بصرى على جنازة مارة فى الطريق وعرف أهلى ذلك عنى فكانوا يحرسون على تجنيدى منظر الجنازات ... أذكر يوماً كنت مع جدتى فى مركبة عائدة بنا من السوق إلى البيت ، وكنت فى أنم صحة وسرور وإذا جنازة تظهر فجأة عابرة شارعاً بعيداً ، أبهرتها عين جدتى فسارعت تهمس للحوذى أن يحيد بمركبته عن ذلك الشارع ، وحسبت المسكينة أنها قد أفلحت فى إنقاذى من الحمى هذه المرة ... ولكنها شعرت برعدتى ورأت وجهى يشحب ويتصبب منه العرق فأدركت أنى لمحت الجنازة ساعة لمحنها هى وأن الحمى سرت فى جسمى وانتهى الأمر ...

ما العلاقة بين شىء معنوى خارجى كمنظر جنازة مارة ، وهذه الإصابة السريعة بمرض ماضى جثمانى كالحمى ؟ ... لم يخطر على بال أحد هذا السؤال ... كانوا يكتفون بعلاج الحمى بمكدمات الملح والحل ونحو ذلك حتى أبرأ ، وتتكرر الإصابة لعين السبب ، ويتكرر عين العلاج ، وهكذا دواليك ... أتراها قصة ملك الموت ... التى رواها دجوته ، فى إحدى قصائده الرائعة ؟ ...

حكى أن طفلاً تعلق بصدر أبيه ليحميه من صوت خفى يغريه برائع الهدايا واللعب والأزهار كي يذهب إليه ... ويمضى معه ... وحسب الأب كلام ابنه عيث أطفال فلم يأخذه مأخذ الجد ، فلما بلغ به عتبة البيت حتى كان الطفل قد فارق الحياة ! ...

أنرى الأطفال فى صفائهم الملائكى يحسون ويسمعون ديب أقدام ملك الموت ؟ ... أذكر فى طفولتى أيضاً مثل هذا الحدث الغريب وقع لطفلة لطيفة رقيقة هى عمى ... ابنة الزوجة المتعدنة لجدى ... ذهبنا إلى عزبتهم فى صفت الملوك مرة أخرى ذات صيف ، وقد صفت المودة بين تلك الزوجة والذى ... وكان أطفالها أى أعمامى وعمامى يفاربونى فى السن ... فكنا نمضى يومنا فى اللعب بجوار ساقية مهجورة نحف بها زراعة نصب وذرة ... وجعلنا فيما أذكر نصطاد العصافير ونجرب خلف طائر أبو الفصاد ... لكن تلك العمة الطفلة الجميلة كانت ترغماً إرغاماً على لعبة واحدة لا تنفخ ، تصر على تكرارها هى بعينها كل يوم : كانت تقع على الأرض ممثلة دور المريضة ثم تتصنع كأنها تموت ما من مرة لعبنا فيها معاً إلا ومثلت دور الموت ! ... أذكر أن قلبى

كان ينقبض انقباضاً شديداً لهذه اللعبة ... إلى أن رحلنا وفارقنا عمى الطفلة ... فما كاد يمضى عام حتى سمعهم يقولون إنها ماتت ...

إنني فيما وقع لي أعتقد أني كنت محلاً لصراع عنيف بين قوتين : قوة الموت وقوة الحياة ... وكانت الحرب بينهما سجالات ... ولكن الجسم كان يتخاذل منهوكاً محموراً في ميدان ذلك الصراع الخفي ، وانتصرت قوة الحياة ... ووات أيام الطفولة ، وأسدل العقل ستاره الصفيق على صفاء الروح ، فلم تعد تسمع ديب خطرات ملك الموت ... ولم يعد منظر الجنائزات مهن في . وشفيت من الحمى ، لكن داء آخر بدأ ينمرا عندي بنمو العقل : إنه القلق ... لم أستطع منه فكاً كما طول عمري ، إنني في حالة قلق دائم طول حياتي ... حتى عندما لا أجد مبرراً لأي قلق ، سرعان ما ينبع فجأة من تلقاء نفسه ... هذا القلق الروحي والفكري لا ينتهي عندي أبداً ولا يهدأ ... إنني سجين في سجن الأبد ... ولا أدري له تعليل ... شيء آخر لا تعليل له عندي أيضاً : كنت أنطق أحياناً بكلام يشبه التنبؤ ... من ذلك أننا كنا نقطن — بمدينة ريفية

صغيرة — بيتاً يشرف على السكة الحديدية ... وفي ذات يوم وذات ساعة مر قطار من تلك القطارات التي تمر بنا كل يوم كل ساعة ... ولكنني أشرت ساعتئذ إلى ذلك القطار بالذات وصحت بلا مناسبة : جدتي في هذا القطار ! ... وما كان أحد يذكرها أو يتوقع حضورها ... فقد كانت مقيمة منذ شهور طويلة عند بنتها الكبرى في الإسكندرية ... ولم تمض لحظات حتى ظهرت جدتي بالفعل داخلية بحقيبتها على غير انتظار ! ... وفي يوم آخر جاءها تلغراف بأن أحد أعمامها الكبار توفي .. كان يدعى محمود ... لم يذهب إلى مدارس كما فعل أبي ... بل اشتغل من أول الأمر بالزراعة ... ثم استأجر أطياف والدتي التي اشترتها ، لمدة خمس سنوات كما اشترط ... فزرع والدي ووالدتي للخبر وقاما فلبسا السواد للتعزية وجهزت الحقائق لسفر والدي ... ولكنني ضحكيت — كما قالوا — وصحت بهم :

لا تسافروا ... إنه لم يمض ! ...

ولم تمض ساعات إلا وكان عمي هذا داخلاً علينا يحمل سلة كبيرة بها بيض وجبن وطواجن الحمام بالأرز الفلاحى ... واتضح

أن التلغراف محرف ... كان المقصود « محمود توجه اليوم ... »
فأخطأ عامل التلغراف وكتب « توفي » بدلا من « توجه » ...
في ذلك الزمن كان الخطأ شائعا في التلغرافات لحدائث العهد بها
وقلة مران الموظفين عليها ...

روى لي أهلي فيما بعد أنهم كانوا يعجبون لمثل هذه
الحوادث مني ... أما أنا فما كنت بالطبع أرى فيما أفعل عجبا ...
لأنني ما كنت أعى أو أعقل ما أقول وأفعل ...

لست أعتقد أني كنت مختلفا عن غيري من الأطفال في تلك ،
السن ، التي هي دون العاشرة ، أو هل أبرأها ... لعل تلك هي
إحساسات الجميع في مثل هذا العالم الصغير العميق العجيب ...
حاولت أن أرجع بذاكرتي إلى حدود تلك المنطقة لأعرف: هل
كان لي رقة منذ نوع من الإحساس بالجمال والشعور بالحب؟ ... يبدو لي
أنني شمرت بشيء كهذا ... على نحو غامض بالطبع ... يخيّل إليّ
أنني كنت أحس بإحساس خاص نحو طفلة في مثل سني أو أصغر
قليلا ... أذكر أنها كانت شقراء الشعر ... هي ابنة لإحدى الأسر
في الأقاليم ، كان بيننا وبينها تزاور ... كنت أحلم أحيانا بهذه الشقراء
الصغيرة ... وكنت أتلف على لقاءها واللعب معها ، والغضب
المكتوم والحسرة والحزن رالا كنتاب كلما لمحت منها اهتماما بغيري
من الأطفال ، كما كنت أشعر بسعادة دافقة إذا أقبلت عليّ وفضلتني
في اللعب معها على سواي ... ثم كان أن أحضروا من الريف طفلة
في العاشرة لتعمل خادما لدينا ... تأملت وجهها فوجدته دقيق

القسمات خمرى اللون ... لست أدري ماذا حدث في قلبي الصغير
يومئذ ... كل ما أعرف هو أن بلا غاضاً جذبني إلى هذه الصبية
اللطيفة ، فصرت أعطف عليها عطفاً خاصاً وأحميها من يغضبها أو
يذهرها ... إلى أن اختفت يوماً من حياتي ... جاء أهلها فيما يظهر
ذات يوم في غفلة مني وأخذوها ... فحزنت كثيراً على ذهابها ...
في تلك المرحلة كنت أذهب إلى المكتبات في كل بلدة نحل بها ...
ولابد أنهم أرسلوني إليها منذ سن مبكرة جداً ... لأنني أذكر
صوراً غامضة عن حاجتي الملحة الضاغطة إلى التبول والمرحاض
واسكن خشبتي من المقرنة الجريد المرفوعة في يد شيخ يحفظنا
القرآن كانت تفرعني وتلجم لساني عن الإفصاح بحاجتي ، فكنت
أكتم ما بي وأعود إلى البيت كل يوم وقد فعلتها في سراويلي ...
إلى أن كبرت قليلاً واستقر بنا المقام في مدينة صغيرة ... هي دسوق
فيما أذكر ... فالتحقت بمدرستها الكبرى الوحيدة في البلد : مدرسة
الجمعة الخيرية الإسلامية ... لم تكن هناك يومئذ مدرسة أميرية ...
وبدأت أحل رموز حروف الهجاء ... كان والدي قاضي البلد ...
وكنا نقطان بيتاً بينه وبين المدرسة أرض خلاء تتخذها المدرسة

فناء تجمّع فيه الطواير ... ولا أنسى ذات يوم وقفنا فيه صفوفاً
بطاير الصباح والناظر يشرف علينا ... وإذا رجل تد مر أمامنا
حياء ناظرنا با-ترام ، ثم نادى في الطواير : سلام آل ، - نداء
التحية بالتركية في ذلك العهد - فدخلت المدرسة كلها بأرجلها في
الأرض وارتفعت الأيدي إلى الطرايش بالسلام ... لم يكن هذا
الرجل الذي حياه الناظر والمدرسة سوى والدي ... خرج من
البيت مصادفة ساعة وقفنا في الطابور فأدى خروجه إلى هذا
الاستقبال بالاحترام من المدرسة وناظرها ... إنه قاضي البلد ... كان
شعوري وقتئذ مزيجاً من نخر داخلي قليل مع الكثير من الخجل
والحياء ... لست أدري لماذا كنت أود لو أختفي في باطن الأرض ...
وأن يجهل التلاميذ كل علاقة لي بهذا الرجل الذي يحبونه بالسلام
الرسمي ... ولو كان الناظر قد خطر له تلك اللحظة أن يخرجني
من الصف ليضعني إلى جوار ولدي أمام الحشد من الطواير لكانت
قد سقطت ولا شك مغشياً علي ... لست أدري تعليلاً لهذا الشعور ...
إنني لم أزل حتى الساعة محتفظاً بصورة منه ... لذلك لم أدهش
كثيراً لما حدث لابني في موقف مماثل ... جاء يروي ذات يوم

كان من عادة ذلك الشيخ أن ينام ساعة القيلولة تحت شجرة
سنت قرب التربة ... فإذا أفاق ليؤذن للعصر مسح وجهه بكفيه
متشهداً وهو لم يزل مغمض العينين .. ولاحظ أخى الصغير
ذلك منه بما جبل عليه من روح المداعبة الحبيثة ، فترى به حتى
فرق في النوم ماداً كفيه إلى جنبه ، فذهب وأحضر من التربة
قطعتين من الطين ، لهما هاتين الكفين للشيخ النائم ... فلما
أفاق لصلاة العصر ومسح وجهه بكفيه على عادته تلمخ وجهه
بالطين فأثار ضحك الحاضرين ... وقام الشيخ غاضباً لا عنأ ساخطاً
على قلة الأدب وعيث الصغار وسخرية أهل العزبة وأقسم أن
لا يبيت فيها ليلته ... وبذلك فقد ذلك المنبع الأول من منابع
إحساسى الفن ...

ثم شرت بعد ذلك بالفن في صورة أخرى ... مولد سيدى
إبراهيم الدسوقي ... والموكب الذى كان يمر من تحت نوافذنا ،
بركبة الخليفة على حصانه شاهرأ سيفه تحف به البيارق والأعلام
والبنادير والرايات بمختلف الألوان والطبول الكبيرة والمزامير
بمختلف الأحجام ، ثم عربات النقل الكثيرة ، يتلو بعضها البعض

في صف طويل لا ينتهى ، تجرها كل أنواع الدواب من خيول
وبغال وحمر وبقر وجواميس وثيران ، كل عربة تمثل حرفة من
الحرف بكل أدواتها وأهل الكار ، فيها ... فالحدادين على عربتهم
أمامهم الكور والسندان يضربون بالمطارق مثلين عمائمهم ... ثم
يأتى النجارون بالمناشير والبنائون بالمسطرين والفخراية بالقلال
والأباريق والسكارية بالكيزان وفوانيس رمضان ... كلهم يمثلون
أدوارهم في الحياة ... حتى الفكمانية لهم عربتهم قد علقوا عليها
الأغصان يتدلى منها التفاح والبرتقال ... نوع من كرنفال ساذج ...
ولكن تأثيره على نفسى فى تلك السن كان عجيباً كان شيئاً
لا يمكن وصفه ...

على أن بدء اهتمامى الحقيقى بالفن ، فى صورته المباشرة ... كان
يوم هبطت وقتئذ بمدينة دسوق جوقة الشيخ سلامه حجازى ... أو
لعلمها — وهو الأرجح — إحدى الفرق التى كانت تقلده وتطريف
برواياته وتشخذ اسمه فى تنقلاتها بالأقاليم ... نصبوا لهذه الجوقة
مسرحاً من الخشب ، فى إحدى رحبات البلد ، غطوه بقماش الصو اوين
رفعت عليه الزينات ، وتعدت «كلوبات» الفاز ... وارتدى أفراد

جعلني أعيش القصص بكل وجداني على نحو أعمق هو ظرف آخر ... طول رقاد والدتي ... فقد اضطرها إلى شغل الوقت بقراءة قصص ألف ليلة ، وعنترة .. وحمزة البهلوان ، وسيف بن ذي يزن ، ونحوها ، كانت في أجزاء طويلة ، ما تكاد تنتهي من جزء حتى تقص علينا ما قرأت عندما نجتمع حول فراشها ... كان يحلو لها ذلك ... وكانت تجيد سرد هذه القصص علينا ... لا تترك تفصيلا إلا حاولت تصويره ، فكنت أنا وجدتي نجلس إليها وكلنا آذان تصغي بانهار ... وأحيانا كان ينضم إلينا والدي بعد أن يفرغ من دراسة قضاياه ، وكأنه أصيب بالبدوي منا ... فإذا أنهى السرد بأبطال القصة في موقف لم يزدنا إلا اشتياقا إلى البقية ... قالت والدتي :

انتظروا حتى أقرأ الجزء التالي ...

وتركنا على أحر من الجمر ، ونحن نعيش بكل أرواحنا على أولئك الأبطال ننتظر العودة إليهم ... وكانت لا تكفي بمجرد السرد ، بل تصاحبه بتعليقات من عندها لتقرب الشخصيات من أفهامنا ... فتقول مثلا إن هذه الشخصية الطيبة تشبه فلانا الطيب من أقاربنا أو معارفنا ، وإن هذه الشخصية الشريرة تشبه فلانا أو

فلانة الشريرة من نعرف في محيطنا ... فكنت بذلك أعير في مخيلتي لأبطال القصص سحناً ووجوهاً من معرفهم في الحياة ... وفرغت من ذلك ، الملاحم العظيمة القديمة بطيحاتها الرخيصة المشوهة ، وبدأت تأمل في السرد ، روايات أدوية مترجمة بأقلام الشوام الذين صاروا الأمازيغ ، ونداءات في مدارس الرهبان ، فتعلقت بها والدتي أبداً ، وفصلها عنا كالفصل بسوابقها ... كان لهذا ولا شك فضل كبير لو أنني لا ينسك في تفتيط خيالي منذ الصغر ... وظل حالها معنا على هذا النحو إلى أن شفيت وغادرت الفراش ، ثم انهمت هي بعد ذلك إلى أمور معاشها ، وشغلت بمشكلات الأطلان التي اشترتها ، فانقطع عنا هذا المورد السهل الذي كان يغذيها بالقصص دون جهد منا ...

على أني كنت قد بدأت أقرأ ، فلم أبدأ من الاعتماد على نفسي ... صرت أبحث عن القصص والروايات التي كنت أراها في يد والدتي فأستخرجها من صناديق الأمتعة القديمة وأعكف على قراءتها بسرعة ... كلمة أفهمها وكلمة تستغلق على فهمي ... لعل هذا ما ساعدني على إجادة اللغة العربية قبل الظفر بتعليم منظم ...

فقد كان لتنقل والدى المتكرر بين بلدان الأقاليم ، تبعاً لتعاقب حركات التنقلات القضائية بين العام والعام ما حرمنى الانتظام فى سلك مدرسة واحدة سنة دراسية كاملة ... لقد مسح والدى خريطة القطر المهرى مسحاً فى مدى أعوام قلائل ...

فكان يمر بالبلد الواحد مرات... مرة كمساعد للنيابة ، ومرة
كوكيل ومرة كفاض وهكذا ... ولم يكن في أكثر هذه البلاد
مدارس أميرية على الإطلاق... كل ما كان بها إما كتايب بسيطة
أو راقية أو مدارس أهلية مثل مدارس الجمعية الخيرية الإسلامية
أو مدارس الأقباط ونحوها ... وقد مررت بها كلها مرأ خاطفاً
أو متأنياً على حسب الظروف والأحوال ... لم يستقر بي الحال
إلا يوم استقر والدى قاضياً بالقاهرة... فأصبح فى المقدور عندئذ
أن ألتحق بمدرسة أميرية... كانت سنى وقتئذ قد تجاوزت العاشرة .
فنهض لوالدى بتقديمى إلى السنة الثانية الابتدائية مباشرة...
فقدم طلباً بذلك إلى مدرسة محمد على الابتدائية فى حى السيدة
زينب.. لكن المدرسة اشترطت امتحانى.. وامتحنوني.. فوجدوني
متفوقاً فى اللغة العربية... إلا أنى فوجئت بهم يسألوننى فى علم

الجزرافيا ... عن البرزخ والأرخيل ... أشياء أجهلها تمام
الجهل ... عندئذ قرروا أن أبدأ من البداية وأتحق بالسنة الأولى ...
لأن هذا العلم يدرس في السنة الأولى ... وقد صدمني هذا القرار
صدمة ما رأيت أذكر وقعها .. والنحقت بالمدارس الأميرية مبتدئاً
بالسنة الأولى ، وأنا أحوج من غيري إلى تعويض ما ضاع علي من
سنوات عمرى بمبدأ عن التعليم الأميرى المنتظم ... كان والدى
قد أساءت مسكناً في شارع الخليج المصرى ... فكنت أنفذ منه
إلى مدرستى مختزلاً حارة ضيقة طويلة ... منذ ذلك الوقت غدوت
تلميذاً نظامياً ... كنت في سننى الأولى تلميذاً مجتهداً ... وقد جذبنى
علم لم أمارسه من قبل ... لكننى أحسست أنه قريب إلى نفسى ...
إلى تلك النفس التى كان يستهوئها شيء بالذات مجهول الكنه لى
وقتئذ ... عرفت فيما بعد أنه الفن أو النزعة الفنية ...

كان هذا الشيء الجديد الذى انجذبت إليه هو الرسم ... كنت أحبه وأجتهد أن أبرز فيه ... فقد كان ذلك يملؤنى سروراً داخلياً غريباً ... ذلك السرور الذى كنت أحسه وأنا أنلو القرآن بترتيل جميل ، ولكنى لم أستمر فى هواية الرسم إلى حد جدى ، إنما هى

تقليدية لذلك الصوت الخفى ، أو اتجاه غريزى إلى أقرب موارد تلك النزعة الكامنة فى أعماق كيانى ... كانت هذه النزعة تتخذ صوراً مختلفة بحسب الأردية الى تتيحها لها الظروف ...

كانت تقترب بسرعة كالمنجذبة بمغناطيس إلى كل ما يلائمها من أوضاع تظهر لها ، كأنها روح شبح يتحسس الأجساد التى اكتب عليه أن يحل فى أحدها ... لماذا كانت هذه النزعة عندى ؟ ... الإجابة عن هذا السؤال : هى أحد الأسباب التى من أجلها اكتب هذه الصفحات .. فأنا دائم السؤال لنفسى :

أكان من الممكن أن أتخذ طريقاً آخر فى الحياة ؟ .

ما هو منبع هذه النزعة الدفينة التى سيطرت على وجودى منذ الصغر وتطلبت لتحقيقها من المواهب أكثر مما عندى وافترضتنى من الجهود ما كدت أنوء به ؟ ... هل أنا وحدى مسئول عن إيجادها ... ؟

أهى بذرة تلقيتها عن أب وأم ، لم تنبت عندهما بفعل الظروف ، فألقيا بعبع إنباتها على كاهلى ، دون وعى منهما ، عن طريق رسالة خفية ، ضمناها تلك النطفة التى منها خلقت ؟ ... لست أريد التعجل

بالجواب .. ولكنى أكتفى بأن أعرض هذه التفاصيل عن طبع أبى وأمى ، لعل أجد فيها المنبع ... للإجابة عن سؤالى ...

لم تستمر هواية الرسم طويلاً ... لأن شيئاً آخر بدأ وقتئذ يظهر لى الأفق : الموسيقى ...

كانت أسرقى قد عرفت جماعة من دعوالم ، الأفراح ، بمناسبة زفاف عملى يدعى ، على ، ... عقد قرانه منذ سنوات ... عندما كنت فى السابعة أو الثامنة ... كان قد وصل فى سلك البوليس إلى وظيفة مأمور بندر شبين الكوم ، وشبع من حياة العزوبة اللاهية العابثة ، وانقطعت صلته بأوساط اللهو المألوفة فى ذلك العصر ... وأراد الزواج ...

فالتجأ إلى أمى يوسفما فى البحث له عن عروس ... كان شرطه الوحيد — على عكس والدى — أن تكون العروس غنية ، حتى ولو كانت قرودة عجوزاً ... وبحثت له والدتى واهتدت إلى بغيته ..

سيدة قد قاربت الخمسين من الجوارى البيض الأتراك تملك مائة — فدان من أجود الأطنان ... كانت حكاية الزواج هذه مصدر خير لى أنا وأخى الصغير .. ذلك أن عمى وقد استخفه الفرح بالثروة

المنتظرة الهابطة عليه ، صار لا يدخل دارنا إلا ومعه الهدايا من حلوى وفاكهة ونحوها ... فلما اقترب يوم القران دخل علينا بهدية عظيمة لى ولأخى : هى دراجة بعجلات ثلاث وبندقية أطفال نفحة بكل لوازمها ... فباركنا هذا الزواج وفرحنا به ... على أن الحدث الهام فى هذا العرس بالنسبة إلى أنا خاصة كان أمراً آخر : أصرت العروس على أن لا يزفها إلا « عوالم » من القاهرة لاهن بلدة صغيرة مثل شبين الكوم ! ... فهذا فى نظرها هو الذى يليق بمقامها ! ... فأوفدوا الأخ الأصغر للعريس ولأبى ، ليذهب إلى القاهرة و ، يقول ، جماعة من « العوالم » ، ويأتى بهن إلى شبين ... وذهبت أنا معه ... واست أذكر بالضبط مناسبة ذهابى معه ؟ ... ومن الذى أوفدنى ؟ ... هل أنا لذى طلبت « شبطة » ؟ ... أو أنهم أرسلونى من تلقاء أنفسهم ؟ ... كل ما أذكر هو أنى ذهبت إلى القاهرة مع عمى الأصغر هذا ومشينا طويلا فى شارع محمد على ، نقف بين كل خطوة وأخرى على دكان صغير ضيق علق على جدرانها آلات الطرب من عود ورق ودربكه ... كانت تجرى بين عمى وأصحاب تلك الحوانيت مناقشات ومساومات طويلة لا تنتهى

وأنا واقف أنملل من الضجر ... إلى أن انتهى بنا المطاف إلى حانوت أخير تم فيه الاتفاق على شئ ، علمت فيما بعد أن هذه الدكاكين هى أمكنة « المطيبات » ، المختصين بتوريد عوالم الأفراح ... هذا كل ما شاهدته .. وكل ما فعلناه فى ذلك اليوم ... وعدنا فى نهارنا إلى شبين الكوم ولم أر نساء ولا عوالم إلا يوم الفرح ذاته ... فى هذا اليوم المشهود كنت أنا أيضاً ضمن الوفد المكلف بإحضار العروس من بلادها إلى شبين .. أذكر تلك الصورة ولا أنساها ... ركبنا حربة نطار خاصة ألحقت بمؤخرة العربات ... كانت تسمى حربة « صالون » خصوصية ... اعتادت مصلحة السكة الحديد فى ذلك العهد أن توثرها الأفراح الكبيرة ، وفد أصرت العروس المزهوة بثروتها على أن يكون انتقالها إلى شبين فى صالون خصوصى يحتم « الممازيم » من السيدات وأهل الفرح من الجانبين ... ولست أدري ما الذى حشرنى أيضاً بين هؤلاء فى هذا الصالون ذلك اليوم ... ولكنى أذكر أنى سافرت بذلك الصالون ووصلنا إلى شبين الكوم بالسلامة ... وهنا قامت القيامة ... سمعت صياحا وصخباً وزعيقاً يملأ الجو فى المحطة ... إنها العروس بسلامتها ! ... ما كادت تنظر

حولها وهي نازلة من القطار حتى صاحت : أين الموسيقى الميرى؟ ...
ورفضت رفضاً باتاً أن تنقل قدماً من المحطة إلا إذا سارت الموسيقى
الميرى أمام عربة العروس ، الكوبيل ، بخيولها المزوقة بالورد ...
ولم يكن أحد قد فكر في ذلك ولا عمل له الترتيب ، لأن العروس
لم تكن صغيرة السن ولا كان هذا أول عرس لها ، فقد سبق لها
الزواج أكثر من مرة ... ولكن منحها التركي أبي إلا أن تزف في
شوارع المدينة بالموسيقى الميرى ... لم أفهم إلا فيما بعد سبب هذا
الضجيج والزعيق ... وأكب الجميع على يد العروس يلثمونها
متوسلين متضرعين أن تغفر لهم هذه الزلة وأن تتركب العربة
الكوبيل وتمضى في هدوء إلى بيت الفرح ، منعداً للفضيحة وتجمع
المارة وأهل الفضول . وأخيراً ركبت وسارت معهم وهي تشتتمهم
باللغة التركية ، وهم يشتمونهم في سرهم باللغة العربية ! ...

وما جاء المغرب حتى وصل تحت العوالم ... وقد سمعت منهم
دوراً أو دورين وغلبنى النعاس ، فنمت قبل أن أشاهد الزفة ...
على أن أراصر المعرفة كانت قد عقدت بين والدتي وجدتي وبين
الأسطى حميده العوادة المطربة رئيسة العوالم ، أثناء هذا الفرح ...

كانت تلك المطربة خفيفة الروح لطيفة المعشر تحمل نفساً كريمة
وإن كانت ليست حسنة الصورة ... آمنت في أمي وجدتي
ما ارتاحت إليه نفسها وقالت عنهما بخفة روحها المعهودة لهنما
وحدتهما ، الهى آدم من دون أهل الفرح والعروسة السكر ...
ودعنا والدتي إلى زيارتنا مع دختها ... فلم يكدهم يمضى العام
ودعنا إلى الإسكندرية في الصيف كعادة والدتي التي لا تستغنى
عن مرطها أبداً ... حتى جاءتنا الأسطى حميدة مع بعض المقربات
من نعلها ... نزلت علينا ضيفة معززة مكرمة ، إلا أنها ما كانت
تهمل علينا أو ترضى بأغانها وتقاسم عودها ... ثم ازداد ترددنا
هل منزلنا عندما اتفاننا بعد ذلك بسنوات إلى القاهرة ، وأصبحت
جدتي بالفالج ونصح لها الطبيب بصفاء البال والسرور ، فتعهدت بها
الأسطى حميدة ، كلما خلا وقتها من العمل ... فما كان يمضى أسبوع
دون تبیت عندنا ليلة أو إيلتين ، إلى أن يأتي « المطيب » فيطلبها
من عندنا لسهرة أو فرح ... كان صوتها يشجيني ... وحفظت كثيراً
من الأغاني التي كانت تغنيها ... واشتد إعجابي بها إلى حد خيل إلي أنها
جميلة وشعرت نحوها بإحساس يكاد يشبه الحب ... وكانت تشجعني

على الغناء معها ، قائلة لي إن لدى قدرة على تأدية النغمات كما أتلقاها
منها ... وفي ذات يوم عدت من مدرستي - محمد علي الابتدائية في
سنن الأولى - فوجدتها في البيت ، وهي تضرب على عودها ...
كانت وقتئذ بمفردها في الحجرة فرجوتها أن تعلن العود ... فشرعت
تعلن بالفعل مطلع « بشرف » ... ولم يمض قليل حتى استطاعت
يدى أن تخرج من الأوتار نغما متسقاً لمطلع « بشرف » ... ودخلت
علينا والدتي وهي تحسب العود في يد العوادة ... فلما ابهرتني أنا
محتضنا العود والانغام تخرج منه منسجمة أطلقت في البيت
صرخة راعدة غاضبة وهجمت على " تنزع العود مني وتصيح :
« لو عرف أبوك يدبحك ! ... » وجعلت تقول إني لن أفلاح في مدارس
إذا أمسكت بالعود مرة أخرى ، وسيكون مصيري أن أطلع
« مغنواي » ... وأرغمته على القسم بسيدى البساطي - الذي
ليس بعد الحلف به من يمين - أن لا ألمس العود بيدي طول
حياتي ... وأقسمت وبررت بالقسم ... على أن ذلك لم يمنعني من
حفظ الألحان والأغاني حتى الصعب من الأدوار القديمة التي كانت
تؤديها الأسطى ذاتها بمشقة كأدوار عبده الحمولى ... كانت والدتي

نصب أدرار عبده الحمولى بنوع خاص ، وتروى لنا عنه الكثير ...
 يقول إن أغنيته ، «خطرى يازينة» كانت لها خاصة بمناسبة
 «فامها» ... ذلك أن صلة عبده الحمولى بجدى «سيدى البسطامى»
 «الها» «الها» «يا روى واقفة» ... لغات ذات يوم رأى فيه
 «الها» «الها» «خروج» من «إته» «عربة» «حنطور» «بها» رجل يبدو
 «الها» «المرض» «بكن» «هل» «وسا» «وضعت له» ... كانت «العربة» واقفة
 أمام «مرل» «ملا» «مواجه» ... وعاد «الها» من عمله «بالبوغاز» إلى
 «البيت» «ظهر» «أفوجد» «العربة» ما زالت واقفة فى موضعها وبها الرجل
 «المرضى» ... «لجى» «للأمر» «أقرب» «إل» «فلم» أنه عبده الحمولى
 «اشتد» به «مرض» «الكبد» وجاء «يصف» «بالاسكندرية» «استأجر»
 «المنزل» «الملاق» «الذى» «يبحثون» «عن» «مفتاحه» «وصاحبه» «الغائب» ...
 «تقدم» «إليه» فى «الحال» «ودعاه» «إلى» «بيته» «وأنزله» فى «المنظرة» ...
 وهو «المكان» «المنعزل» «عن» «بقية» «البيت» «الذى» «كان» «يعد» «للزوار»
 «والضيوف» «من» «الرجال» ، «وقام» «على» «خدمته» «بنفسه» ، «ورفض» «انتقاله»
 «إلى» «المنزل» «المستأجر» ، وهو «على» «هذا» «المرض» ، «محتاجا» «إلى» «الخدمة»
 «والعناية» ... كان «جدى» «هذا» «فيما» «تروى» «والدتي» «مختلفاً» «عن»

بقية أهله من رجال البحر... فقد طالما حدثتني عن حبه للكتب
وعن مكتبته الثمينة التي فرطت فيها جدتي — لجهلها — بأجنس
الأثمان بعد وفاته، وعن صلته وصداقته بالعالم اللغوي الشيخ
حمزة فتح الله — الذي كان أيضاً زوجاً لإحدى خالات والدتي —
وعن حبه لفن الطرب الذي تجلى في تمسكه بصداقة «سي عبده»
كما كانوا يدعون عبده الحمولى... وقد نمت هذه الصداقة
وترعرعت، فما كانت تقطع زيارات المطرب العظيم، حتى بعد
وفاة صديقه جدتي... فقد أبى عليه وفاؤه إلا أن يسأل عن
الأسرة كلما جاء إلى الإسكندرية، ويتقصى أخبار ابنته اليتيمة
الصغيرة، ويحملها بين ذراعيه ويقبلها... إلى أن تزوجت جدتي،
فقام زوجها — لازدرائه الفن وأهله — بإغلاق الباب في وجه
المغنى... فاخترني من حياتهم... ولم يظهر إلا يوم زفاف والدتي...
رأى ذلك واجباً عليه أمام ذكرى صديقه الراحل الذي كان
يقدره حق قدره...

لا أمان ذاكرتي بشيء ذى بال في سنى الأولى الابتدائية...
صوت أمي حين دُمِيت كان يلعب معي أيام العطلة الأسبوعية...
وفي يوم جمعة جاء إلينا من أبنائها الحاج المصري بحمل زفيراً
له من المسوراء الفواخر... حين صرنا نلعب به ساعة، وإذا بوالدي
بها، حائلاً في طريق خروجه متكبهاً على عشاءه، فلما رأى زميلي
والأم، صرنا في السن قال له: «أنت مع الولد توفيق في الفصل؟...»
هاجبه الإيهاب... فسأله عنى هل أنا مجتهد؟... فما كان من زميلي وصديقي
الذي كنت ألاحقه منذ لحظة ويلاهبني بكل صفاء وهناء إلا أن
قال بكل بساطة: «هو»... ثم أردف قائلاً عن نفسه:
«وأنا شاطر»... وعندئذ لم أشعر إلا وعصى والدي قد رفعت
في يده لتهال على جسدي، دون سؤال أو تحقيق، ففرت جارية
هارباً واختبأت تحت سريرى... وتبعني والدي بالعصا وهو يصيح:
«يا خايب يا تنبل والله لأوريك!...» وسمع صياحه من في البيت،
وأقبلت والدتي وجدتي تسألان عن الخبر، فقالت لهما والدي وهو

يبعدهما عن طريقه : « الولد بليد وغير فالح في المدرسة ... الولد الأصغر منه شاطر وهو خائب ... » وانحنى يبحث عني بعصاه تحت السرير ... فسكنت أبصر طرف العصا يلاحقني فأتفاداه وأنا أرتعد من الخوف ... ولم أذرف دمعاً ولم أصدر شهقة ... فقد جمدت الرهبة والدهشة كل مشاعري ... لم أبك إلا بعد أن ابتعد عني والدي ، على أثر دفاع جدتي عني وسحبها إياه من عصاه إلى خارج الحجرة ، بكيت لا أشعور بألم ... فأنا لم أضرب ولم تمسني العصا ... ولكن بكيت أشعوري بالظلم ... وجاء امتحان آخر العام للنقل إلى السنة الثانية ... فإذا أنا ناجح منقول بتفوق ... وإذا زميلي من الساقطين الراسبين ... وعجب والدي ... واعترف أنه ظلمني في ذلك اليوم ... سرت في السنة الثانية الابتدائية سيراً حسناً يؤذن بالتفوق ... إلى أن جاء منتصف العام ، فإذا بنا ننقل من شارع الخليج المصري إلى منزل آخر في الحلمية الجديدة ... وعند ذاك نقلوني من مدرسة محمد علي إلى المدرسة المحمدية لقربها من منزلنا الجديد ... وهنا اختل كل شيء في حياتي الدراسية ... لم تكن الدروس تسير بخطى واحدة في المدرستين ، فوجدت نفسي — خصوصاً في الحساب —

أمام مسائل جديدة لا عهد لي بها ... كانوا متقدمين في البراج ... فكنت أجلس أحلق في السبورة ولا أفهم شيئاً ... وتعاقت الدروس وأنا على جهلي ... وتراكم الجهل على الجهل ... فإذا أنا أتدهور تدهوراً مريعاً كان يشعرني بمرارة شديدة وألم نفسي فظيع ... ولم أجسر بالطبع على مصارحة أهلي بشيء ... لأنهم ما كانوا قط قد عودوني هل مصارحتهم بشئوني ... كنت أعرف مقدماً ردهم على كل ضعف هندی : إله التعذيب والتهديد بالعصا ... خفت أقول لهم إنني غير مستطيع تتبع الدروس ، حتى لا أسمع صياحهم المألوف : لأنك بليد ، لأنك تلعب ... لا مناص إذن من كتمان مابي .. وكنت أتلفت بحسد إلى زملائي الذين يرفعون أصابعهم بنشاط ليحييوا إجابات صحيحة عن تلك المعميات في القسمة والمسائل الحسابية العويصة ، بينما كنت أتضائل في مقعدي بمذلة وفزع ، حتى لا تقع عين المدرس على أصبعي المختفية تحت الدرج ... وحاولت أن أطلب إلى أحد زملائي المجتهدين أن يفهمني مالم أفهم فلم يستطع إفهامي ... فقد كانت الفجوة قد اتسعت بين ما أعرفه وما وصلوا إليه هم ... ولم أجروا على سؤال المدرس لئلا يتضح له مقدار جهلي ... كنت

بليد الفصل بحق هذه المرة... وكان مآلى السقوط الذى لا ريب فيه عند امتحان آخر السنة ... لولا عناية الله التى أنقذتني فى الوقت المناسب : فقد نقل والدى إلى دمنهور... فخلو فى إلى مدينة دمنهور الابتدائية وفى مثل هذه المدينة من مدن الأقاليم كان من الطبيعى وجود صلة بين قاضى المدينة وناظر مدرستها... فلما علم الناظر بتكرار تنقلى فى عام واحد بين مدارس مختلفة بعد أن لحظ تخلفى بنفسه نصح لوالدى أن يحضر لى مدرساً من بين مدرسى المدرسة يعطينى دروساً خاصة فى المنزل بعد العصر إلى أن أتمكن من متابعة الدروس فى فصلى ... وتم ذلك ... وكان فيه الإنقاذ لى... وعدت إلى الفيوم... وعادت إلى نفسى الثقة والروح المعنوية القوية .. ونجحت آخر العام ونقلت إلى السنة الثالثة ... وسرت فى دراستى سيراً طبيعياً طيباً... على أن إقامتى فى المدرسة المحمدية بالقاهرة ، رغم ما أحمله لها من ذكريات سود ، كان لها ناحية أخرى لا أنسى محاسنها : كان من بين زملائى فيها تلميذ فى مثل سنى صادقته لطول ما كان يحدثنى عن المسارح التى ارتادها... أذكر أنه حدثنى بتفصيل أدهشنى عن مسرحية فيها شئ كمنار الجحيم بأبيه وأبالسته تظهر فى منظر جعل

يصفه وأنا فاغر فى كالحبول... قال فيما أذكر إنها رواية تليهاك ، فى حوقة الشيخ سلامه حجازى... كما حدثنى أيضاً من بين روايات تلك الحوقة عن رواية دهليل ، بالحانم وقصائدها كما كانت تعرض وهى فى تلك الفترة... لست أدري هل كان يذهب إلى تلك المسارح وحده أو مع أهله... ومن أين كانت له النقود؟... كل ما أعرف هو أنه كان يحدثنى صباح كل سبت عما يكون قد رآه ليلة الجمعة من مثل تلك الروايات... وقد دعانى مرة إلى الذهاب معه ، ولكنى لم أجرد على طلب الإذن من أهلى... فقد كنت أعرف مصير مثل هذا الطلب... غير أنى تشجعت وسألت أهلى ذات جمعة أن يذهبوا بى إلى مشاهدة الشيخ سلامه ، حتى أستطيع محادثة صديقى ذاك فيما رأيت أنا أيضاً... وقد كنت فى المرحلة التى أستطيع فيها فهم تمثيله وتقدير غنائه وقصائده أكثر مما استطعت فى دسوق منذ سنوات عدة... وكان لى ما أردت... فقد صحبتنى والدتى مع جدتى ذات ليلة إلى رواية شهداء الغرام ، فتدبعتها جيداً وسمعت فيها غناء الشيخ سلامه فى قصيدته المشهورة : أجوليت ما هذا السكوت ،... إلا أن الشيخ فى ذلك الوقت كان يعرج قليلاً على المسرح

ويتكى على كرسى ، كان قد أصيب بالفالج ...

أما فى دمنهور فقد ابتعدنا عن كل فرجة ... وانقطعنا عن كل فن ... وهنا بدأ عهد قرائى الحقيقة واستغراقى فى القصص على نطاق واسع .. جعلت ألهم إلهاماً كل ما يقع فى يدي منها ... الجيد والردى على السواء ... كنت قد اجتزت تلك المرحلة الأولى للقراءة المتعثرة ، تلك التى ذكرتها آنفاً ... عند ما كان الكثير من معانى الكلمات يغمض على ... من ذلك كلمة نص ، ... كنت أقرأها بضم النون وأفهمها على إنها نص ، ... فإذا صادفتنى قصة مفتاحها فى خطاب يقول فيه مرسله الذى سيكشف لنا السر الرهيب وصدر بعبارة : «وها هو ذا نص الخطاب ، ثرت فى نفسى من الضيق وقلت ولماذا نصه ؟ ... نحن نريد الخطاب كله لا نصه ... أى نصفه ...

أما فى دمنهور فقد بلغت مرحلة التمكن من لغتى إلى درجة حسنة ... ومهما يكن من أمر فإن لشغفنا بقراءة القصص فضلاً فى تعليلنا اللغة والإنشاء بامتاع وأقرب الوسائل ... ذلك أنه على الرغم من قيمة تلك القصص فإن أسلوبها ، وخاصة المترجم منها بأقلام أولئك الشوام العارفين بلغتهم كان لا يخلو من رصانة ونصاعة وإشراق ...

إلا أن والدى ما كان يرضيه مثل هذه المطالعات ، وما كان يشجع عليه أظن ... والويل لى إذا لمح فى يدي رواية منها ! ... إنه كان يريد منى شيئاً آخر ... أذكر ذات يوم — قبل التحاقى بالتعليم الأميرى المنتظم — كان يوم جمعة ... وقد ارتدى والدى جلبابه المنزلى وتناول إفطاره وقرأ جريدته ، ولم يجد بعدئذ ما يفعل بوقته فنادانى قائلاً :

« تعال أمتحنك ! ... » وإلانى كتاب « المعلقات السبع » ... ذلك الكتاب الذى كان يحبه هو وبتزنى بأبياته ... وأخرج لى معلقة زهير بن أبى سلمى ... وطلب إلى أن أقرأها بصوت مرتفع ... فلما وصلت إلى ذلك البيت :

ومن لم يصانع فى أمور كثيرة يضرس بانياب ويوطأ بمنسم
سألى عن معنى « يصانع » ... ؟ فلم أوفق إلى إجابة صحيحة ...
وأين لمن كان فى مثل سنى وقتئذ أن يعرف حقيقة المصانعة
فى الحياة ، وهو يحمل الحياة نفسها ، وعلاقة الناس بعضهم ببعض ،
فى ذلك المجتمع الممقد المتشابك ، فلما لم أجب بما يقنعه رفع
كفه وضربنى على وجهى ضربة أسالت الدم من أنفى ... وجاءت

على الصوت جدتي التي كانت تحبني ، فصاحت به ، وأخذتني من
يدي إلى حجرتها ... وأنا ألعن المعلقات وأصحابها ... بل ألعن الشعر
كله ... وكان من الطبيعي والمنطقي أن أحبه كما أحبه أبي ، ولكن الدم
الذي سال من أنفي بسببه بغضه إلى نفسي مدة طويلة ... وكيف كان
يمكن أن أحبه وقتئذ وبيني وبينه دم مسفوك ! ... كرهت الشعر
في تلك المرحلة ، كما كرهت السباحة بسبب أبي أيضاً ... ذلك أنه
يوم أراد أن يعلمني العوم في الاسكندرية ذات صيف ، لم يفعل
غير أن جذبني من يدي إلى حيث يسبح هو .. في الأعماق ... دفعة
واحدة ... فكنت أتحمس القاع بقدمي فلا أجده فارتفاع ارتياحا
شديداً ... وكنت كلما جاءت موجة أشعر كأنها تقتلني اقتلاعا
لتقذف أبي بعيد عن والدي ... ولم يكن بالإسكندرية وضواحيها
في ذلك العهد ما يسمى بالبلاج ، .. كانت شواطئ رمادية وحشية شبه
مهجورة ... لكن أبي على كل حال كان في إمكانه أن يبدأ بتركي
أداعب الماء بقدمي قليلا في بقعة قليلة الغور على الشاطئ ... كما
يحدث لأطفال اليوم ... يعطون الجرادل الصغيرة الملونة يلعبون بها
على مقربة من الماء ... فلا يزال بينهم وبين البحر مداعبة وملاعبة

يتقدمون إليه بحذر ثم يبتعدون عن وجهه الهادر ، ويتدربون كل
يوم على ملاقاته إلى أن تم الألفة بينهم وبينه ويحدوا أنفسهم ذات
يوم اكفاء للعوم على سطح دون خوف أو مشقة ... أما أنا فلم
أعرف البحر إلا وحلما ينتزعني موجه بعنف إلى القاع العميق ،
وإذا انعقدوا كنم الصياح حتى لا ينتهزني أبي ... كل ما فعلت هو
أن أفسس في قرارة نفسي أنها آخر مرة ، وأنني إذا خرجت منها
سألما فلأضع قدمي في ماء بحر أبدأ ... وخرجت وبررت باقسم ...
فلم تعرف قدمي البحر حتى اليوم ... كان من الممكن أن أحب
البحر والبحر في سن مبكرة لو أن أبي أخذني إلى شاطئيهما برفق ،
ولم يدفعني دفعا إلا الأعماق ...

لم يكن والدي يدرك أن لكل سن قراءتها ... كان يعلمني ،
كأغلب آباء تلك العهود ، كما لو كنت في مثل سنه .. كان يفرض
على ما يحبه هو وما يقدره من مطالعات .. فكان أهون ما رضع في
يدي من كتب وقتئذ هو كتاب «إميل القرن العشرين» ترجمة أحد
زملائه في القضاء : «عبد العزيز بك محمد» ... وكذلك مسرحية
«الإيمان» ترجمة زميل له أيضاً في القضاء «صالح بك جودت» ،

عن المسرحى الفرنسى «أوجين برىو»... ظهرت الترجمتان فى ذلك الوقت... وكان كل من الزميلين قد عهد إلى والدى بعشرات النسخ للمعاونة فى توزيعها... إذ لم يكن هناك عندئذ ناشر أو دور نشر... كان المؤلف أو المترجم يطبع ويوزع بنفسه لنفسه... وكنت أجد أكداً هذه الكتب التى لم يتمكن والدى من توزيعها متراكمة فى أركان حجرة مهملة، طالعت هذين الكتابين إرضاء لآبى... ووجدتهما على كل حال أكثر احتمالاً من المعلقات...

إنى عندما أجد اليوم كتب الأطفال الملونة بما فيها من قصص وأساطير دينية وتاريخية ومغامرات خيالية... عندما أجد فى متناول يد أبى وقتما كان فى السادسة والسابعة والثامنة قصص الأنبياء وملونة الرسوم فى أسلوب لطيف، وقصص الفراعنة واليونان والعرب... والآلإاذه والأديسة كلها ومغامرات «سويفت» و«درويدسون كروسو» وأقاصيص «أندرسن» وغير ذلك من المطالعات الممتعة الموسعة للخيال مبسطة سهلة التناول، أغبط هذا الجيل... بل إنى عندما أرى الروايات والقصص والمسرحيات يقرأها الشباب دون رقابة أو اعتراض من أولياء الأمور... بل على

العكس... أصبحت قراءتها اليوم بما ينصحون به ويدفعون إليه، هل اعتياد أنها مطالعات جدية محترمة؛ بعد أن ارتفعت اليوم طلة الرواية أو القصة أو المسرحية إلى واطئع التبجيل لدى الناس جميعاً من رهبين وآباء... عندما أرى ذلك كله أغبط كذلك شباب هذا الجيل وأطالبه أيضاً بأن يقرن ما حبته به العصور الحديثة من معاونة وتيسير بإجادة منه أكثر وإتقان أعظم... ولم يندمط هل الأقل فى مطالعاته، ولم يجد من يقف فى طريق سيره العقل الطيبى...

إنى كنت أختفى بمطالعاتى القصصية عن عيون أهلى، كما لو كنت أرتكب ذرراً من الأوزار... مع أنها فى أغلبها كانت على مستوى جيد من حيث التأليف والترجمة... كنت أنسل حاملاً الكتب لأقرأها تحت سريرى... كان ذلك السرير مفروشاً بملاءة تتدلى أطرافها إلى الأرض حاجبة من يختفى تحته كأنها ستارة مسدلة. فما كان أحد يرانى أو يكتشف مكانى... لكن تلك الملاءة أو الستارة كانت تحجب عنى النور... فما كنت أبالى أحياناً... وكنت أمضى أقرأ فى الظلام حتى أعجز عن تمييز الأسطر، فأخرج خفية وأحضر

شمعة، أشعلها وأعاد القراءة على ضوءها ... هكذا كانت تسير الأمور ... إلى أن حدث ذات يوم أن جاء موعد النداء ، فجعلوا ينادون علي وأنا مستغرق في قراءة ثم فطنت إلى ندائهم المتكرر ، فخرجت من تحت السرير مهرولاً تاركا من ارتبأ كي الشمعة موقدة ... وبينما نحن منهمكون في طعامنا إذا بصراخ يتعالى في الطريق والجيران يتصايحون : « حريقة ! ... حريقة ! ... » فارتاعت والدتي وأرادت النهوض لتتحرى الخبر ، فأجلسها والدي مطمئناً قائلاً : « لا ترتاعي لأنها ولا شك حريقة في الشارع بأحد الحوانيت الصغيرة والجيران والمارة من دأبهم النهويل ! ... لكن ، لم تمض لحظة حتى كان الطرق على بابنا نحن والناس يصيحون بنا : « عندكم حريقة ! ... عندكم حريقة ! ... » وهنا أفاق أهلي ونهضوا فزعين مرتاعين يبحثون في أنحاء المنزل ... وإذا بالحجرة التي أنام فيها قد تصاعد منها الدخان وتأجج فيها اللهب ... وظل الجميع يكافحون النيران حتى أطفئت ... وظل والدي يبحث عن سبب هذا الحريق ويسأل ويتحرى بدقته وتحقيقه ، وأنا ساكت منكش لا أنبس بحرف ...

لم تطل إقامتنا بمدينة دمنهور نفسها .. فقد توفي عمي محمود الذي

كان مستأجراً لأطيان والدتي بأبي مسعود ... مات حقيقة هذه المرة ... بعد أن ابتلع إيجار الأطيان طول مدة استحوازه على الأرض .. فلم يكن يدفع إلا ما يسدد قسط الرهن مع الفوائد للبنك العقاري .. كان هو المالك الحقيقي طول تلك المدة ... والويل إذا سألته والدتي دجاجة أو أرزة أو صفيحة سمين ... وكان يبدو عليه الضيق والتبرم إذا فكرنا في الذهاب إلى هذه العزبة لتضيعة ولو أسبوع واحد بها ، وكانت زوجته لا تحدث إلى الناس عن هذه الأرض إلا بقولها « عزيتي ، مما جعل أمي تكاد تجن من الغيظ ، وهي التي لا تطيق أن يمس أحد شيئاً مما تملك ... لكن ماذا كان في وسعها أن تصنع وعقد الإيجار طويل مساط على رأسها ! ... فما أن جاءها خبر موته حتى أيقنت بالخلاص ... وقامت إلى أرضها تزرعها بنفسها ... أو توجر منها قطعاً صغيرة لا تتعدى الفدانين أو الثلاثة لجملة مزارعين .. وقد أقسمت قسماً مغلظاً أن لا توجرها كلها دفعة واحدة لمستأجر واحد ما بقيت على قيد الحياة ... وبرت بقسمها ... ولم تستأن بعدئذ أحداً حتى ولا زوجها ! ... أمسكت زمام أرضها بيدها ولم تسمح لمخلوق أن يمس ساطانها عليها ... وقامت على شئونها

بما لها من قوة شخصية وقدرة على التنظيم والتدبير والإدارة ...
ورأت أن خير طريقة لمباشرة الأرض أن تقيم فيها ، وكان
بها بيت صغير ... فانتقلنا إليه ... وهكذا عشنا وقتاً طويلاً في
الريف ولم تكن المسافة بين أبي مسعود ودمهور تتجاوز عشرة
كيلومترات ، يقطعها قطار السكة الضيقة ، الدلتاء في نصف الساعة ...
فكشيت أمهض في الصباح المبكر والندى يتساقط على الاستقل قطار
الصباح إلى مدرستي في دهور ، وأعود آخر النهار بقطار المساء ،
إلا في أيام الخميس ... حيث كنا نغادر المدرسة في الظهر ، ولم
يكن هنالك قطار في تلك الساعة ، فكانوا يرسلون إلى حماراً ، أركبه
فيوصلني إلى أبي مسعود في ساعتين ... كان قطار الدلتاء هذا غاية في
القدارة ، تركب فيه الماعز والبغلم إلى جوار أصحابها من الركاب مع
الركاب والمقاطف والقفف والبطة والأوز والدجاج بصخبها
وزعيقها ... ولم يكن به غير مقصورة واحدة أي ديوان ، يطلق
عليه الدرجة الأولى ... وهو نفسه قسم من عربة من عربات الدرجة
الثالثة ، ولا يتميز عنها كثيراً ... لم تكن هنالك درجة ثانية. لماذا لا
لست أدري ... ربما لأنه لا يوجد بالريف في نظرهم إلا أحد اثنين

لأما فلاح ... ولأما بني آدم ، أي رجل نظيف ... وهذا الرجل النظيف
الابيض ط فيه أن يكون مأموراً أو قاضياً أو عيناً من الأعيان ...
يمكن أن يكون شيخ خضر أو نائب عمدة أو عامل تليفون أو أي
مصدر يدر عليه من النور ويستطيع أن يفرد بين يديه جريدة
من الجرائد وأن يهوج لهدنه ويرتدى جلباباً سابغاً نظيفاً وينتعل
ملبسة لامعة أو صارخة اللون ... مثل هذا الرجل تكفي فيه مجرد
الطاهر ... يكون أهلاً لركوب ديوان الدرجة الأولى .. سواء حمل
تذكرة أولى حقيقية ، أم تذكرة درجة ثالثة ... دون اعتراض من
كسارى القطار الذى يتخاض عنه لمجرد نظافته ... فالنظافة هنا هي
المعول عليه ، وليس التذكرة ... كان والدى لا يأنف من ركوب
الدرجة الأولى هذه ، في ذهابه وإيابه لحضور الجلسات في دهور ...
لكنه مع ذلك كان يشعر بالحرج ... لا بالنسبة إليه ... بل بالنسبة
إلى الآخرين الراكبين معه في نفس الديوان ... كان مجرد وجوده
يحرم كثيراً من أهل النظافة هؤلاء عن اعتادوا ركوبها ، أن
يقربوا منها تأديباً واستحياء ، كان يشعر أنهم يتحرجون ويتحاشون
الجلوس بجوار قاضى البندر ، فيتركون له المكان كله ...

وفي ذات يوم بينما كان والدي يركب عربة ، حنطور ، في
دمهور تقله من المحطة إلى المحكمة ، التفت إلى العربة التي يركبها
وفحصها فحصاً دقيقاً ببصره ... كانت عربة قديمة مخلفة متهالكة
ولكنها سليمة السلامة التي تمكنها من تأدية عملها المتواضع ...
وكان يجرها حصانان هزيلان ، أحدهما أبيض والآخر أحمر ...
أما الأحمر فكان أصغر قامته من زميله الأبيض ، وكان بجواره كأنه
يستند إليه و يتشعاق ، به ويحتمي بظله ، وكأنه لو لا التوكأ على
صاحبه الأكبر لانهدم ... ربما كان هذا أيضاً حال الأبيض ... فهو
يتوكأ على الأحمر دون أن يبدو عليه ، أو تظهر من هيئته أنه
معترف بضعفه ... حصانان يتعاونان على البقاء ، ويشجع أحدهما
الآخر على مجرد الحياة ... والظاهر أنهما نسيا أو تناسيا أنه لا بد
لهما من طعام .. فهما يضعان رأسيهما معاً في مخلة واحدة ... يقول
الحوذى أنت بها تبنأ أو دريساً أو عشباً مجففاً ... لكن الخيل
لا تتكلم ... ولن تكذبه ... بل تدس رأسها في تلك المخلة ولا تتحرك ...
وهذا هو كل الدليل على أنها تأكل ...

أما الحوذى فكان أقرع الرأس ، يخفي قراعه بمنديل محلاوى

كبير يربطه دائماً حول رأسه ولا يخلعه صيفاً ولا شتاء ... كان له
اسم غريب ما زلت أذكره حتى الآن : خضر جى الرومى ...
قال له والدي ، وقد عرف اسمه ... لأنه دائماً يسأل أول ما يسأل عن
اسم محدثه وعن حياته وعمله ، كأنه منهم أو شاهد في جلسة محكمة :
« اسمع يا خضر جى ... كم تساوى هذه العربة بخيلها ؟ ... »

فأجاب الحوذى :
« حوالى ١٨ جنيه يا سعادة البك ... »

فقال له أبى :

« ما قولك لو اشتريت هذه العربة بخيلها وبك أنت أيضاً
بهذا المبلغ ؟ ... »

فاستغرب الحوذى كيف يدخل هو أيضاً ضمن البيعة ؟ ...
فوضح له والدي المراد : إنه يريد شراء العربة بخيلها بهذا
المبلغ على شرط أن يأتى هو معها كحوذى في نظير مرتب شهرى
تقدره جنيهان ، يقبضه بجمداً أيام المحاصيل ، ويقطن العربة في دار
من دور الفلاحين يعد له خاصة هو وعائلته بالمجان ...

وقبل خضر جى الرومى ... وأصبحت لنا عربة بحسانين ...

هي التي وصفتها فيما بعد في رواية «عودة الروح»، بأنها العربية
الملأكي الفخمة ذات الجوادين المظلمين ...

وهكذا أصبحنا نستخدم هذه العربية في الانتقال بين
أبي مسعود ودمهور بدلا من قطار الدلتا أو الخير ... ولن أنسى
منظر الحصانين الهزيين وقد أطلقا في غيط البرسيم، أو ان
الربيع، ربيع المواشي ... والطعام الأخضر النضر أمامهما كأنه
البحر ... وكأني بهما يسبحان في السعادة سباحة ... وسرعان
ما بدت عليهما مظاهر الصحة والسمن ... وإن كان كل منهما
قد احتفظ بقامته ... وظل الأحمر قصيرا إلى أن وجد الأقصر
منه : ذلك الجحش الذي اشترته لي جدتي بمبلغ «بريزتين»، أي
ريال واحد ... لبث هو الآخر يمرح في غيط البرسيم مع زميليه
الكبيرين معززا مكرما ما لبثت أنا معه في الريف، فما أن ولت
ظمري وغادرته حتى وضعوا على ظهره غيظ السباح وقادوه
ذليلا مع ذيره من الخير إلى أشق المهام وأقذر الأعمال ...

كانت حياة الريف في تلك المرحلة من حياتي جميلة ... على الرغم
من أني كنت أداخني من شعور غامض أحيانا، واضح أحيانا أخرى،

بضباع الفلاح وهوانه ... فلقد كان من الأمور العادية أن أرى
الفلاحين من حولي يركون ويمدون أعناقهم إلى التربة بجوار
مواشيهم ليشرّبوا جميعاً بنفس الطريقة ... وقد فعلت أنا نفسي
ذلك مرات معهم ولقد اندمجت فيهم ولم أعد أفطن إلا أني منهم ...
وكنيت أود لو تمتد بي بينهم هذه الحياة، لو لم يقع لي حادث
أبعدني ... ذلك أني كنت أواصل هناك أيضا قرايتي للروايات ...
في الليل نمت أو راضيل ما صباح زيني في حجرة تقاسمني فيها جدتي
وأخي الأصغر ... وفي النهار بأي مكان منعزل في الغيط أو
الجرن ... وفي ذات يوم أحسست بألم في عيني اليمنى ... لكن
القصة التي أفرؤها كانت شيقة ممتعة طويلة الأجزاء، دفعتني دفعا
إلى مواصلة القراءة رغم الألم ... وإذا بالذق تنظر في وجهي
وتصرخ مرتاعة : كانت عيني حمراء ككأس من الدم يملؤها
صديد ... فذهبت بي في الحال إلى دمنهور وعرضتني على طبيب
للعيون فقال : هذا رمد صديدي ... وهو خطر على العين إذا
لم تعالج علاجاً حاسماً سريعا وقد يستغرق العلاج وقتاً ... فعدنا
إلى الإقامة بدمنهور ... وحاول الطبيب علاجي جاهداً بتلك

الأدوية والوسائل المعروفة في ذلك العهد ... ولم يكن البنسليين مع الأسف قد ظهر ... ولكن الداء استعصى عليه ... وازعج أهلى ... ولم ينكر الطبيب أن عيني البني مهددة بفقدان البصر ... سمعتها بأذنى منه ، يقولها لزائرة في عيادته وهو يغسل لى عيني ... لم يقلها صراحة ... ولكن بطريقة أفصح من الصراحة .. قالت له الزائرة في همس سمعته وهى تنظر فى وجهى :

« أظن هذه العين لافائدة ترجى منها يادكتور ١٩ .. لم أسمع رده ... ولكنى شعرت كأنه يسكتها بغمزة من كوء ... ويظهر أن اليأس خالج نفس الطبيب ، فبدأ ينصح بالالتجاء إلى وصفات مختلفة ... منها أن نأى بحلاق يفصد لى دما ... فجاءونى بحلاق ... أذكر اسمه جيداً حتى الآن ، لما كان له من فضل فى شفائى ، اسمه : « على النوم ، ... فصد لى الدم بواسطة الديران ... ولم ينفع هذا أيضاً بشيء ... واشتد المرض ولم ينقطع الصديد ... واعترف الطبيب بأن العين ضائعة ، اللهم إلا إذا حدثت معجزة ... وقد تحدث إذا استطاع أهلى السهر ليلة كاملة على عيني يغسلون صديدها دقيقة بدقيقة بالمطهرات ... وجعل أهلى يوزعون فيما بينهم نوبات

السهر ، وهم يتشككون فى مقدرة كل منهم على مقاومة التعب والنعاس ... وإذا بالحلاق « على النوم ، ... ينبرى ويتطوع بالقيام هو وحده بالسهر طول الليل على تلك العين ، وقد كان ... فقد لبث إلى جانب فرائى ، لا تكل يده عن غسل العين دقيقة بدقيقة ... لم يكن يرفع القطننة المبللة بالبوريك إلا ليضع قطننة جديدة ... كنت أشعر بحركة يده طول الليل لا نهد ولا تسكن إلى أن طلع الصبح ... وحضر الطبيب ونظر إلى وجهى قهلاً وجهه ... إن الخطر قد زال ... وإن الشفاء فى الإمكان ... لقد أنقذنى الحلاق « على النوم ، الذى لم ينم تلك الليلة لحظة واحدة ... من حسن حظى أن هذا المرض حدث فى الصيف ... خلال الإجازة السنوية بعد أن كنت قد امتحنت ونجحت ... ولو أنه حدث أثناء السنة الدراسية لكان سبباً فى رسوبى أو تأخرى عاماً آخر ... فقد استغرق هذا المرض وعلاجه نحو ثلاثة شهور ... ولم تستطع العين أن تعود إلى حالتها الطبيعية إلا بعد تلك المدة ... ومع ذلك فهى حتى اليوم لم تزل أضعف من الأخرى ...

بمدينة الاسكندرية ، في سراق ضخم بمدرسة رأس النين ...
كنت من أصغر المتقدمين سنّاً من مدرسة دمنهور ... على الرغم
من أن سني تلك كانت تعتبر كبيرة على تلك المرحلة نوعاً ما لتأخرى
في الالتحاق بالمدارس الابتدائية الأميرية ... ولكنها كانت
صغيرة بالنسبة إلى تلاميذ الريف في ذلك العهد ... خاصة من كان
منهم من أبناء الأعيان والعهد ... كان أغلبهم في العشرين أو جاوزها ...
يأتون إلى المدرسة الابتدائية بشواربهم المبرمة ، وقد تزوجوا
وأنجبوا ... وبعضهم ما كان يتخرج من المجيء بملابس أعيان
الريف من جلايب جوخ وعبيان وشيلان ، دون أن يجرؤ أحد
على مخالفتهم ... أذكر يوم سافرت من دمنهور إلى الإسكندرية
لحضور الامتحان ، فهو ليس من الأيام التي تنسى : أوصاني والدي
إلى المحطة ، ومعى حقيبة ملابس وكتبتي .. وقطع لي تدكرة درجة
ثالثة .. وأقبل القطار .. وحاذت العربّة الترسو ، الرصيف ..
فإذا بها محتشدة بركابها من الفلاحين والفلاحات ومن في حكمهم ،
وقد سدوا الأبواب والنوافذ بصررهم وقففهم ومقاطفهم وزكايهم ...
وكان من المستحيل أن أشق طريقاً إلى دخول العربّة من الأبواب ..

كانت السنة الدراسية التي بدأتها بعد المرض هي السنة الرابعة ...
أى السنة التي أتقدم في نهايتها إلى امتحان الشهادة الابتدائية ...
على الرغم من خروجي مجهداً من المرض فإني بذلت جهداً صادقاً
في المذاكرة والتحصيل ، دون الاستعانة بمدرس خاص ... كنت
متفوقاً في اللغتين - العربية والانجليزية - إلى حد استرعى التفات
المدرسين ... وكان مدرس الانجليزية - الذي سبق أن أعطاني
الدرس الخاص في العام السابق - إذا صحح كراسات الإنشاء
تعجب وسألني بخبث عن يعطيني درساً خاصاً هذا العام ... فلما
كنت أنفي ذلك كان يكذبني ويسيء معاملتي ويتعمد إحراجي
بالأسئلة الصعبة وإظهارى بمظهر الضعف ، ناصحاً لي بضرورة أخذ
درس خاص ، كعهدي في السنة المنصرمة ... كل ذلك وهو لا يستطيع
كتمان اعترافه بصحة الإجابة المدونة في كراريسي ... ولم أصغ إليه
وتحملت صبراً تلك المتاعب ... دون أن أخبر أهلي بشيء ... إلى
أن انتهى العام وتقدمت إلى امتحان الشهادة الابتدائية الذي عقد

فما كان من الحال الذي يحمل حقيقتي إلا أن حملني أنا وقذفني وسط
العربة من النافذة وقذف خلفي بحقيقتي ، ف وقعت فوق رؤوس
بعض النسوة المتدثرات في « الملس » الأسود فصرخن... وصرخ
لصراخهن الرجال :

« إيه ده يا فندى ١٩... »

فانتصبت واقفاً أعذر بكلمات لا تكاد تخرج من حلقى ...
وأسرعت إلى النافذة أنظر إلى والدي ، فوجدته يشير إلى يده على
الرصيف مودعا ... ثم اقترب فجأة من النافذة ليكرر ما سبق أن
أوصاني به ؛ بمجرد وصول الفطار إلى الإسكندرية أركب ترام
محرم بك « إلى منزل عديله زوج خالي ، حيث أنزل طول مدة
الامتحان ...

وهكذا سافرت بمفردي في هذه الدرجة الثالثة .. لم أجلس
طول الطريق إلا فوق حقيبتي ، وأنا أتلقى شتائم الركاب ، وقولهم
« حاسب يا فندى » ... كلما مرت بي امرأة حاملة طفلها الذي يبكي
ويبول ...

ووصل القطار إلى الإسكندرية بصلاحة الله ! ... فما كدت

أهبط إلى شوارع هذه المدينة الكبيرة وأرى الجوع المزدهمة أمام
دار « سينما تغراف » ، حتى ذهب عقل ! ... كانت تلك الدار تسمى
« الكوزمغراف الأمريكاني » ... كانت الساعة وقتئذ حوالى الثالثة
بعد الظهر والناس يتأهبون لحفلة نهائية ... والاعلانات الملونة
تخطف الأبصار ... إنها حلقة مدهشة كلها خفايا وأسرار من
حلقات اللص الخطير الشهير زنجومار .. وبالله كيف كان يستطيع
مثلي الفادم من الريف أن يقاوم ١٩... لقد أغرائني الشيطان اللعين
أن أدخل وأتفرج ! ... أنا وحدي الآن ... وحر في شأني .. والدي
تركته في دمنهور .. وزوج خالي لا يعرف بعد بأى قطار أو ساعة
سأحضر ... (لم أعلم أن والدي الحريص كان قد كتب إليه بموعد
الحضور) ... اقتربت من شباك تذاكر السينما تغراف وأنا أحمل
حقيقتي بجهد ... فقيل لي : « هل معك ورقة شيكولاتة بولان ؟ »
ولم أفهم معنى هذا .. وعندئذ تقدم إلى أحد الباعة بورقة صغيرة
ثمها نصف قرش ، منتظية من غلاف « باكوشيكولاته » تسمى
« بولان » ، تعطيني الحق في تذكرة بالدرجة الثانية ثمها مخفض ...
فاشتريتها وأخذت التذكرة بقرش ونصف وحضرت الحفلة ...

يا لها من متعة !... ويا لها من سعادة أن يكون الإنسان في مدينة كبيرة كالإسكندرية ، وحده بلا رقيب ولا حسيب !... وانتهت الحفلة في نحو السادسة فبحثت عن ترامواي محرم بك... وذهبت إلى منزل زوج خالي فما أن رأوني داخلًا حتى هدا نائهم وزال انزعاجهم... وسألوني بلهفة : « في أي قطار جئت ؟ ».. فتلعثمت... فأفهموني أن الخطاب الوارد لهم من أهلي أخبرهم أني حاضرة بقطار الثالثة والساعة الآن السادسة ١٩... فقلت لهم مترددًا مرتبكا : « حصل تأخير في وصول القطار... فنظر زوج خالي إلى بارتياح : ثلاث ساعات تأخير ١٩... لماذا ؟... هل برك قطارك كما يبرك الجمل ونام منكم في الطريق ؟ ١٩ ».

مرت أيام الإمتحان الأربعة التحريري على خير ، ثم يوم الإمتحان الشفهي... ولم تكن إجابتي سيئة ولا بما يدعو إلى القلق الشديد... على الرغم من مستوى المعرفة المطلوبة وقتئذ لتلك الشهادة.. كنا نكتب في الإنشاء موضوعات عويصة.. لا في اللغة العربية وحدها.. بل أيضاً في اللغة الانجليزية... أطلعت عقب تخرجي على كراريس قديمة لم تكن بعد قد فقدت فعجبت غاية العجب كيف أن تلميذاً

في الرابعة الابتدائية أمكنه أن يكتب بهذا الأسلوب في العربية والانجليزية... كنا في العربية نعرف ونحفظ من الشعر والنثر ما يرقى إلى مستويات تثير الدهشة في أيامنا الحاضرة وأجيالنا الصاعدة وكنا في الجغرافيا نقبّاري في رسم الخرائط بالألوان لكل بلدان العالم ، بحاصلات كل بلد وطرق مواصلاته وموانئه ومناخه وحالته الاقتصادية... أما الحساب — ولست أدري كيف نجحت فيه — فقد لبثت إلى يوم الإمتحان أفزع من تلك المسائل التي كالالغاز هن قطارين أحدهما يسير بسرعة كذا والآخر بسرعة كيت ، وعن الماء الدافق من « حنفية » في بالوعة بكمية كذا تصب كذا في كذا من الزمن... هذه القطارات والبالوعات أطارت النوم من عيني قبل الإمتحان ساعات وساعات... لا عجب حقاً أن كانت الشهادة الابتدائية في ذلك العهد تعتبر حدثاً من الأحداث !... وكان الحاصل عليها يقول عنه القائلون في زهو وافتخار : « فلان هذا حامل للشهادة الابتدائية !... ويتزوج بعدها من يريد أن يتزوج ، ويتوظف من يريد أن يتوظف !... ويظهر أنهم كانوا يعتمدون على هذه المرحلة من التعليم اعتماداً تاماً ، لأنها هي التي

كانت تمت الحكومة بحاجتها من الوظائف الصغيرة ... وكان هذه
هو كل ما أرادته حكومات ذلك العصر من التعليم ...
وظهرت النتيجة ... وكان رقم جلوسى بين الناجحين ...
بينما رسب كثيرون من زملائي فى دمنهور ، ممن يبرمون الشوارب
وينجبون الأطفال ...

كان لابد للبضى فى المرحلة الثانوية ، من إقامة
فى الاسكندرية ... واضطرت الأسرة بالفعل إلى إعداد
منزل برمل الاسكندرية لهذا الغرض ... وحالت أعمالهم
فى دمنهور والعزبة بأبى مسعود دون الإقامة المتصلة معى ... فكانت
إذا اقتضت مشاغلهم التغيب ، تركوا معى خادمة تقوم على
شئونى ... والتحققت بمدرسة رأس التين الثانوية ثم بالعباسية ...
وكان للزهو بنجاحى فى الشهادة الابتدائية من أول مرة أثره
فى الاستهتار والتراخى والاستهانة والإهمال ... هذا إلى خلو الجو لى
بغياب أهلى من حين إلى حين ، ووجود الكوزمغراف الأمريكان ،
والحلقات وسلاسل المغامرات التى كانت تطيش بلبى ... فبعد سلسلة
« زنجومار » جاءت حلقات « فانتوماس » ... هذا إلى روايات

« روكامبول » التى كانت تعرض للإيجار فى المكتبات ... كان
تأجير الكتب والروايات نظير اشتراك شهرى أمراً شائعاً فى
مكتبات ذلك العهد ... وقد أغراني هذا التيسير بقراءة ما لا يمكن
الانتهاء من الروايات ذات الأجزاء العديدة ... كان يكفى أن أدفع
خمسة فرنس شهرية لأصبح مهتركا ، فاستأجر وأقرأ الأجزاء
العشرين لرواية طويلة مثل « روكامبول » أو مجموعات « اسكندر
درماس الكبير » ... وهكذا كانت الدروس تهمل وتترام ...
إلى أن جاء آخر العام ... فإذا بي أرسب فى امتحان النقل إلى السنة
الثانية الثانوية رسوباً قبيحاً ... وغضب أهلى لذلك غضباً شديداً ...
وكرهوا السينما تغراف وسيرته وحرموه على تحريماً ... وانهالوا
على ما كان فى حوزتى من روايات تقطيعاً وتمزيقاً ... وحزنت أنا
وتأملت لهذا الرسوب .. ولكنى لم أشعر بالفجيعة وفداحة المصيبة
إلا فى أول العام الجديد ، إذ رأيت رأى العين زملاء فصلى السابقين
وقد انتفلوا إلى فصل أعلى ، ومنهم من كان يصغر فى بعدة أعوام ،
وأنا الراسب الباقى فى سنتى الأولى ، أنظر إلى ارتفاعهم وقد
تسلوا كتباً جديدة جميلة ، ككتاب « السفر إلى القمر » للكاتب

الانجليزى « ويلز » ... جعلت أختلس النظر إلى تلك الكتب
واتحسر ... فلن يكون لى غير ككتبي القديمة ، وسأوضع أنا
القديم مع تلاميذ جدد ... بينما زملائى القدامى قد سعدوا - فى
نظري يومئذ - إلى سماء لا أصل إليها ... إلى القمر ... وتركونى
فى الحضيض ...

عوات على أن اجتهد من أول العام ... لا كون على الأقل من
المتفوقين ... وبدأت أتفوق بالفعل ... ومضت أسابيع على هذا
الاجتهاد ... وإذا بإعلان السينما تغراف يلوح لى عن بعد كأنه
شيطان ، كان معى خمسة قروش وفرتها من مصروفى ... فلم أستطع
مقاومة الإغراء ودخلت الحفلة السينمائية فى الساعة السادسة ،
عقب الانصراف من المدرسة ... وانتهت الحفلة فى التاسعة ... فما
أن وصلت إلى المنزل فى آخر الرمل حتى كانت العاشرة تدق مع دق
الباب ... وفتحت لى والدتى شراعة الباب الزجاجية وأطلت منها
دون أن تفتح لى ، وسألتنى « أين كنت ؟ ... طبعاً فى السينما
تغراف ! » فلما حاولت الإنكار طلبت منى أبراز القروش الخمسة
التي أعرف أنها معى ... وهنا لم يسعنى إلا الاعتراف بالحقيقة ...

لما كان منها إلا أنها أغلقت فى وجهى شراعة الباب وهى تقول :
« امكث فى الشارع إلى أن يأتى أبوك ويتصرف فى أمرك ! ... »
وحضر والدى وعلم القصة فماج وماج وأقسم أن أبقى كما أنا
مارم الهدى ، والويل لمن يفتح لى الباب ... ولبثت على قارعة
الطريق طول الليل لا أدري ما أصنع ... وكان خفير الدرك
يمر به فى لحظة وأخرى ويدق الأرض بنبوتة ويتنحنج ،
وأنا أدرج الشارع المغمض جيئة وذهاباً فى حيرة وخوف ورعدة
وبأس من أمرى ... وأمر بين حين وحين ببأبنا أنظر إليه نظرة
المطارود من باب الجنة ، المنتظر الرحمة ... وأخيراً أحسست بالباب
يتمنع فى حذر شديد دون أن يبدى ضوء من الداخل ... كان
الجميع قد ناموا إلا جدتى ... لقد جعلت تتحين الفرص إلى أن
استوثقت من رقاد أهل البيت فنزلت وفتحت لى وهى تهمس :
« أدخل بغير صوت وسأخفيك فى حجرتى ، وفى الصباح
يحلها ربنا ! ... » وطلع فذهبت إلى والدى ووالدتى وجعلت
تحتال عليهما وتتشفع لى وتقسم لهما عنى بأنها الأولى والأخيرة ،
وأنى لن أعود إلى مثلها أبداً ... إلى أن قبلا فى النهاية الصفح عنى

على شرط أن أحلف بالإيمان المغلظة التي لاحقث فيها
— وأنا أعرف ما هو القسم الذي لاحقث فيه — على أن لا أضع
قدمي في سينها تغراف إلا بعد حصولي على شهادة البكالوريا ...
عند ذلك أكون حراً في أمر نفسي ، واتحلى من قسمي ...
وأقسمت وبررت بالفعل بهذا القسم فلم تطأ قدمي السينها قط
إلا عندما وطأت قدمي أعتاب مدرسة الحقوق ...

منذ تلك الليلة اللعينة وأنا أسير في طريق الجد ... حتى قراءاتي
اتخذت اتجاهها جديداً جاداً .. فن بين كتيبي التي لم تفقد واحتفظ بها
حتى الآن ، كتاب « المحاسن والأضداد » للجاحظ ... لا شك
أنى اشتريته في ذلك العهد ؛ لأنه مكتوب عليه بخط يدي اسمي
كاملاً والسنة الدراسية « سنة أولى ثانوى ... فصل أول ، ...

على أن الفضل في هذا الاتجاه يرجع أيضاً إلى مدرس جديد
للغة العربية جاءنا ذلك العام ... كان معهما إلا أنه عصى في تفكيره
لم يشأ التقيد بغيره بالأبراج العتيقة ، فجعل يحب إلينا الأدب
العربي ويجذبنا إليه بالإقلال من شعر المديح والحكم والمواعظ
التي كانت تثقل على قلوبنا الفتية ، والإكثار من شعر الغزل الرقيق

العماس بن الأحنف ومبار الديلمي وعمرو بن أبي ربيعة ومن
شاههم ... وكان الفصل وأغلبه من المراهقين والشباب اليافعين
الملمين بضح الإلهاب والاستحسان ويستعيد ويطالب بالمزيد
... كذا في سن العواطف
... كذا في سن تزييد الحديث من الحب والهيام والشعور الجميل
والجمال الهميم ... كذا نريد أن نسمع من ينشد :

وايمثوا أطرافكم لي في الكرى
إن أذتم ليعرفي أن تناماً

أو : نبيض من عبراتهم وقان لي
ماذا لقيت من الهوى واقينا ؟ ...

أو : وناهدة الشدين قلت لها انكبي
على الرمل في ديمومة لم توسد

ولا نريد أن نسمع ، ولا يهمننا أن نسمع :

علو في الحياة وفي الممات

سلح أنت إحدى المعجزات

أو : له بفناء البيت سوداء نغمة

تلثم أوصال الجـزور العراعر

منذ ذلك الحين بدأ اهتمامي الحقيقي الواعي بالأدب العربي وعلى الرغم من أن هذا الأستاذ هو الذي حجب إلينا هذا الأدب مما جعل البعض يحشرون في موضوعات إنشائهم أبيات الشعر يملحون بها أسلوبهم ، وجعل البعض الآخر يستخدم فيه السجع ويرصعه بالعبارات الرصينة ، إلا أنه مع ذلك أدهشني ذات يوم عندما منحنى أعلى الدرجات إعجاباً بموضوع إنشائي لم أعن فيه يحشر أبيات شعرية ولا برص عبارات محفوظة ... موضوع كتبته وأنا ناشبه مريض مكدود ، أطلقت فيه نفسي على السجية وتركت قلبي يجري ببساطة من لا يريد أن يبذل جهداً في الإنشاء أو يتكلف تألقاً في البيان ... كنت أتوقع منه توينحاً ، فإذا بي أتلقى منه تقریظاً ، وهو يسألني كراسة الإنشاء بعد تصحيحها قائلاً لي :
« أحسنت : إن خير البيان ما لا يتكلف فيه البيان ... »
لست أدري كيف نسيت اسم هذا الشيخ ، وقد كان جديراً أن ينقش في ذاكرتي دائماً ...

وجاء امتحان آخر العام ... ونجحت ونقلت إلى السنة الثانية التالية ... ولكنه نجاح لم أكن فيه من الأوائل المبرزين ، رغم إعادتي للسنة ... كان ضعف في الحساب والعلوم الرياضية عموماً هو الذي أخرجني ولا شك في الترتيب ... وكان أن نزل علينا ضيفاً في ذلك الصيف بعض أحماس الشبان ... أكبرهم سنّاً كان قد تخرج منذ فارق في مدرسة المعلمين وعين مدرساً للحساب في مدونة خليل أما ، ومنه شعبة الطالب بالسنة الأولى بمدرسة المهندسخانة ، وأخهما السكرى التي تعني بشئون مسكنهم بالقاهرة في شقة متواضعة بفارح - لامة في حي البغالة بالسيدة زينب .. فلما علموا بضعفي في الحساب والرياضة اقترح مدرس الحساب أن أحول إلى مدرسة بالقاهرة وأقيم معهم عامي الدراسي المقبل ، لأهميته وخطورته ، فهو عام التقدم إلى شهادة الكفاءة ... وبذلك يتسنى للعلم مدرس الحساب أن يعاونني ويقويني في هذه المادة ... وراقت الفكرة لأهلي ... فهم ما عادوا يثقون تماماً في اجتهادي ... وكان أبي كثير التخييل والأسفار ... يذهب لحضور جلسات المحاكم في بلاد مختلفة ويعود إلينا في الإسكندرية مرة كل خمسة عشر يوماً ،

وكانت أمى مشغولة وقتئذ ببیت اشترته حديثاً بما تجمع لها من مال بعد أن تسلمت زمام أطيانها في يدها ...

أذكر حكاية شراء هذا المنزل ... فقد كنت أتابع قصته في صمت دون أن يحفل أحد بإشراكي في الرأي ... بل إن أهلى ما أشركوني قط في رأى خاص بشئونهم المالية حتى بعد أن صرت وكيلًا للنياحة ... كان والدى يروى عن أبيه أنه كان يتصرف في أطيانه بالبيع أو الرهن فإذا قيل له : هل استشرت ابنك القاضى أو ابنك المأمور ، أجاب متعجباً ...

« كيف ؟ .. استشير العيال ؟ » ... وقد سار أبى على سنة أبيه ...

رأت والدتى أن يكون لها مستقر دائم فى بلدها الاسكندرية ، وهى قريبة من دمنهور ، فتستطيع التنقل بغير مشقة للإشراف على أرضها ... فلما صبح عزمها على ذلك انطلق والدى خلف السماسرة للبحث عن المنزل المناسب ... وانتهى بهما الأمر إلى موقف الاختيار بين منزلين كانا معروضين للبيع بنفس الثمن وكانت لهما تقريباً نفس المساحة ... إلا أن أحدهما يشرف على

البحر ... والآخر بعيد عن البحر ... وكان هذا الأخير لبعده عن البحر قد ازدهرت حديقته المتسعة وأثمرت فيها الفاكهة والحضر والنخيل بأنواعه ... فى حين أن الأول على اتساع حديقته لم يثمر ، فلها ظهر الحفائش وبعض الأزهار ولم تزرع فيها فاكهة لهم بها من ماء البحر المالح ... ولم يطل تردد الوالدين ... واختارا فى الحال المنزل البعيد عن البحر ... كان فى محطة الرمل لى « شواس » ... وخلفه عزبة تسمى « عزبة غبريال » خاصة بالمشى والقذارة وصخب الأطفال المشردين فى حاراتها ، مما سبب لأهل فيها بعد متاعب كثيرة طول حياتهم ... لقد أعمتهم مار البراقال الحمراء فوق الشجر عن موقع المنزل السيئ الذى لم يزدده المستقبل إلا سوءاً ... أما المنزل المطل على البحر ... فقد كان هو صاحب المستقبل السعيد ... ولو أنهما اختاراه لأصبحا من الأثرياء ... لكن من كان يظن فى ذلك الوقت أنه سينشأ أمامه « كورنيس » ... وأن هذا الكورنيش سيجعل للأراضى والمنازل المطلة عليه هذه القيمة الكبرى ! ... لقد كان المصطافون أنفسهم فيما مضى يتخيرون المواقع البعيدة عن

البحر ... لأن الشاطئ كان قفراً وحشياً تتخلله الصخور الناتئة ولا يؤمه إلا القليل من الناس في بعض المواضع ... لقد قال والدي للسماسة عندما عرضوا عليه هذا المنزل :

« هل نحن مجانين حتى نشترى متزلاً يطل على البحر القفر ؟ ... »

قبل أن يموت بعام أدرك الحقيقة ... وقال آسفاً بمرارة :

« ليتنا كنا مجانين ! ... »

ومع ذلك فلم يكن ثمن المنزل الذي اشتروه في يدهم جميعه ... فلجأوا إلى الطريقة المعهودة : اقتراض باقي الثمن ورهن المنزل ... في هذا المنزل بعد شرائه نزل أعمامى هؤلاء ضيوفاً علينا مدة الصيف ... فكنا نمرح جميعاً في الحديقة ونلهو ونضحك ... فلما قبل الاقتراح واستقر الرأي على سفرى معهم آخر الصيف ، والإقامة عندهم في القاهرة ، عامى الدراني ، قام أهلى بتجهيزى للسفر وانفق والدى مع عمى المدرس على أن يرسل إليه أول كل شهر مبلغ ثلاثة جنيهات ، نظير معيشتى بينهم ، أى مقابل الإقامة

الكاملة ! ... هذا خلاف مصر وفى الشهرى المسلم ليدى وقدره نحسون قرشاً ، انفق منها على كل لوازمى وحاجاتى ... من الكتب الإضافية إلى النزهة الأسبوعية إلى السميطة وقطعة الجبن اليومية ... وأحياناً إذا احتاج الأمر إلى رباط عنق أو رباط حذاء ومنسجعه أو بدعة أو قميص أو مناديل أو جوارب أو زر طربوش وكيه ... وأحياناً أكلة كهاب عند الحانئ أو كوارع فى المسقط ... وغير ذلك من الأبواب العديدة المنظورة وغير المنظورة : ...

التمثيل وهو المحامي ضجة ونقاشا... شاهده في دور « تيمور » في
مسرحية « لويس الحادي عشر » فبهرنى ... ثم انفصل هو أيضاً
وانشأ فرقة خاصة به مثل فيها أنواعاً من الدرام والميلودرام الإيطالية
والمرسبة مثل « الموت المذنب » و « الضمير الحى » و « المرأة المجهولة »
الخ ... أما جورج أبيض فكان قوام عمله وفنه التراجيديا فى أرقى
أنواعها : « أوديب الملك » و « هملت » و « عطيل » الخ ... كان
مسرح جورج أبيض أقرب إلى الثقافة الجادة بحكم دراسته الجدية
فى فرنسا فى حين أن عبد الرحمن رشدى كان من الهواة الذين
لم يتلقوا التمثيل فى الخارج عن دراسة أو ثقافة ... لكنه كان
يؤثر فى الجمهور بمواظفته المشتغلة ، ويبكي بكاء حقيقياً ، ويذرف
دموعاً سخينة وهو يؤدي دوره ... كان هو فى التمثيل من جانب
والمنفلوطة فى الأدب من جانب آخر ... أحدهما بصوته المتهجج
الباكى ، والآخر بأسلوبه النثرى المبلبل بالعبارات ، يستنزفان مدامع
الناس ويعتبران عند الكثيرين مثالا للفن الصادق ... ولئن جاز
أن نصف هذا المثال بأنه رومانتيكى ، فإن جورج أبيض باعتماده
على سلامة الأداء الفنى ورسوخ القدم فيه والاتزان الذى يحول

لم يخطر على بال أهلى ولا شك أنهم قذفوا بى إلى الحرية الواسعة
وإلى الجو الفنى الرحب يوم قذفوا بى إلى القاهرة ... حقاً لم أضع قدمى
قط فى دار سينما .. برأ بقسمى . ولكنى اتجهت إلى المسرح بكل
ما يحتمله وقتى وجيبي . . كان جورج أبيض قد انفصل عن جوفة
الشيخ سلامة حجازى الذى بدأ بالانضمام إليه ... واستقل بفرقة
خاصة تمثل التراجيديا بغير فصائد ولا ألحان . . التمثيل من أجل
التمثيل ... لا التمثيل من أجل الغناء ... وكان هذا شيئاً جديداً . . لم
يجرؤ عليه إلا جورج أبيض وحده . . كان يعرض رواياته (كلمة
مسرحية أو مسرح لم تكن مستعملة فى ذلك الوقت) فى تياترو الأوبرا ،
أو فى مسارح أهلية مثل « تياترو برنتانيا » إلى أن أنشأ فيما بعد لنفسه
مسرحاً خاصاً هو : « تياترو جورج أبيض » فى شارع فؤاد سابقاً فى
المكان الذى تقوم فيه اليوم عمارة « جراند أوتيل » . . وما من شك
أن تأثير جورج أبيض على الشباب المثقف كان قوياً ... فسرعان
ما انضم إلى فرقته محام شاب هو « عبد الرحمن رشدى » . أثار احترافه

دون فيضان العواطف في بحار الدموع يمكن أن يوصف بأنه
كلاسيكي ... لقد ظهرت «التراجيديا» في مصر بظهور جورج
أبيض واختفت باختفائه ... ولم يبق إلى يومنا هذا سوى الدرام
والكوميديا ، ذلك أن الطبيعة قد حبت بكل ما يلزم للتمثيل
التراجيدي : الصوت الجمهوري والقامة الضخمة ... هذا إلى الموهبة
والاستعداد الفطري ... وعلى الرغم من نجاحه والاعتراف بفنه ،
فقد كان يشير في أول عهده سخرية الصحف الهزلية ... وكان
يحتل فقرة دائمة في كل عدد من أعداد جريدة «السيف والمسامير»
في صفحتها المعنونة «باب اللدع» ... وهو باب تنشر فيه النكات
والقفشات والقوافي المضحكة واللمسات الكاريكاتورية بالكلام
لا بالرسم — لم يكن الرسم الكاريكاتوري شائعاً وقتئذ —
فكانت النكات اللفظية تقوم مقامه في تصوير شخصيات المجتمع
المعروفة ... كانت «تجريدة الخواجه جورج» كما كانوا يسمونها —
هي التي تدور حولها القفشات في كل عدد ...

أما أنا فكنت كخيري من هواة الفن الكثيرين شديد
الإعجاب بجورج أبيض ... أحفظ صفحات بأكملها من عطيل

وأوديب ولويس الحادي عشر ... ألقها بطريقته مع بعض الهواة
من زملاء في أوقات الفراغ ... ولم يكن يعوقني عن حضور حفلاته
بدار الأوبرا إلا النقود ... فما أن أعثر على خمسة قروش في جيب
أصعد بها إلى أهل التياترو ، حتى أسابق الريح إلى هناك ، وأعود
في منتصف الليل ماشياً على قدمي من الأوبرا إلى شارع سلامه
بالمنزه . ولم تكن عودتي المتأخرة تستلقت النظر في بيت أعمام
الذين ... لما من أحد فيه يملك سلطة حقيقية يهيمن بها على تصرف
الآخرين ... ما كان أحد هناك يخيف أحداً أو يأمره أو ينهاه ...
كل واحد في ذلك البيت كان حراً في أمر نفسه ... ورب البيت
بمحم الس و الوطبة وهو مدرس الحساب ... كان لطبعه الوديع
وقلبه الطيب وروحه المرحية وشخصيته اللينة الهينة لا يستطيع
السيطرة على بعوضة ... وكان هذا من حسن حظي ! ...

وعشت هكذا في حرية تامة ... ما كان يمكن أن تتاح لي
في كنف والدي ووالدتي ، وتحت ضغطهما المستمر ، الذي كان
سيحول قطعاً دون ارتياد المسارح والانغماس في الحياة التي أريدها ...
على أن هذه الحرية وهذا الانغماس في مثل هذه الحياة ، كان من

الممكن أن يكون خطراً على حياتي الدراسية ... ولست أدري على التحقيق ما الذي أنقذني؟ ... أهو ستر من الله؟ ... أهو وازع من نفسي؟ ... أهو توازن غريزي ورثته بدأت بوادره عندي مع السن؟ ... كل الذي أعرفه أن الهواية لم تطغ عندي الطغيان الخطر الذي يجرفني كما جرف غيري بعيداً عن مجرى المدارس والتعليم ... على أني سرعان ما أدركت أن التعليم نفسه عامل مساعد للهواية ... فقد وجدت مسرحية هاملت لشكسبير مما يقرر في المدارس الثانوية ... وقد قرأتها وقتئذ بالانجليزية، وأنا غفور معتز بأن هذه الرواية التي تمثل على المسارح قد اعترف بها رسمياً في المدارس ... كما أن نصوص المحفوظات هيأت لنا الفرصة لإشباع هوايتنا، فقلبتناها إلى إلقاء تمثيلي ... وأدى بنا ذلك إلى الإقبال على الشعر العربي إقبالا شديداً ... فجعلنا نتبارى في حفظ المئات من الأبيات ونتنافس في المطارحات الشعرية ... ويباهى بعضنا البعض بكميات محصوله الشعري ... كانت الذاكرة في قوة شبابها النضر، بفخوت الكثير ... وإني لأدهش حقاً كيف تبخر كل هذا فيما بعد، وخلت الذاكرة من بيت واحد من الشعر ...

وإذا ذكرت بيتاً فإنها غالباً ما تذكر المعنى فيه دون اللفظ ... وصرنا بعدئذ إلى نوع عجيب من اللعب التمثيلي ... انتقيت اثنين من زملائي المبرزين في الإلقاء، وجعلنا نجتمع في أوقات فراغنا لنناقش تمثيلية ارتجالية ... نلقيها أمام من؟ ... أمام أنفسنا نحن الثلاثة ... كنا من الثلاثة المؤلف والممثل والجمهور في رقت واحد ... وبدأ بالانفاق فيما بيننا على موجز لموضوع قصة ... ونوزع أدوار شخصياتها علينا، بنير نص مكتوب ولا معروف سلفاً ... ثم نأخذ في المداورة والإلقاء والتمثيل بكلام مرتجل للساعة والتو، يهر بلمة عربية نصيحة عن مواقف أبطال القصة ... وهكذا بدأنا المسرح نص أيضاً كما بدأه الأقدمون بمرحلة الارتجال ... ثم انتقلنا إلى مرحلة التأليف ... نحن أيضاً ... اتفقنا نحن الثلاثة على أن نجتمع مصر كل خميس في منزل أحدنا ... كان له منظره، للضيوف منفصلة عن بقية البيت، جعلنا منها مسرحاً صغيراً، وتطوعت أنا بتأليف الرواية: أي المسرحية ... وكنت أحرص على أن أفصل دور البطل فيها على مقامي، واحشد له المواقف الهامة وأضع على لسانه العبارات الفخمة الضخمة ... وعرف تلاميذ الناحية والجيرة

بأمر مسرح المنطرة هذا وما يمثل فيه ؛ فجعلوا يتوافدون للمشاهدة... وبذلك أصبح لدينا الرواية التي تواف والممثل الذي يمثل والجمهور الذي يشاهد ...

على أن الخلاف التقليدي على الأدوار كان يدب بيننا نحن أيضاً ... حدث ذات يوم أني ألفت مسرحية عن قصة « النعمان ابن المنذر » واحتفظت فيها لنفسى طبعاً بدور النعمان ... وجاء يوم التمثيل فإذا بزميلي صاحب المنطرة قد أحضر عباءة أيه ولبسها وأعلن أنه هو الذي سيقوم بدور النعمان بن المنذر ... فصعد الدم إلى رأسي من الغضب ... هذا الدور الذي فصلته لنفسى يأتى هذا ويرتديه ؟ ... فلما صحت به أن هذا الدور لا يصلح له ، أجابني أنه أصلح أهل الأرض لهذا الدور : أولاً لأنه يرتدى العباءة ... وأين لي أنا بعباءة ... لم يكن لي إلا معطفي ... وهل يعقل أن يظهر النعمان بن المنذر بمعطف عصرى ؟ ... حجة قوية ... ولكنى سألته : لماذا لا يعيرني العباءة عند التمثيل ؟ ... فقال : ولماذا أعيرك إياها وأنا أصلح للدور كما تصلح له أنت ... بل إنى أقرب إلى الدور منك لأن اسمي « النعمان » فعلاً ... كان اسم زميلي هذا حقيقة « عباس حلى

النعمان ... (رحمة الله عليه ... توفاه الله بعد أن أصبح طبيباً ناجحاً وعمل طوبلاً مفتش صحة بالأقاليم) كانت حجة الاسم دامغة ... وربما لم تكن دامغة ، ولكنى أمام إصراره والبيت يديته والمنطرة منظره والمسرح مسرحه والعباءة عباءته ، لم أرَ بداً من النزول مكرهاً هل إرادته وإن كنت لم أغتفر له هذا الاغتصاب لدور صنعته وديته بعناية لنفسى ... لم نتفق بسهولة على توزيع أدوار رواية مثل « النعمان » هل رواية « لويس الحادى عشر » ... كان يترك لى دور « لويس » عن طيب خاطر ، مرحباً بدور « الكونت دى نيمور » ... ولن أنسى يوم جمعتنا فيما بعد مصادفات القدر فى أحد أقاليم الريف ، وكان هو مفتش الصحة هناك ، وكنت وكيل النيابة ... فما أن وقع نظره على أول يوم تلاقينا حتى استقباني بمباركة « لويس » المشهورة التي يوجهها إلى « الكونت دى نيمور » ... فاجأني رحمه الله ونحن فى زحمة أعمالنا الرسمية الجدية بقوله فى لهجة تمثيلية : « إياك واللعب بالنار يا كونت ! ... » فلم أتمالك من الضحك ... وعجبت أنه لم يزل يحمل لتلك الأيام أجمل الذكرى ...

أقبل آخر ذلك العام الدراسي ، الذي قضيناه في الإلقاء
ومطارحات الشعر وتمثيل الروايات ، وعرضوا علينا اختيار
القسم الذي نلتحق به بعد شهادة الكفاءة... فاخترت أنا بلا تردد
القسم الأدبي ... إذ لم أتصور نفسي طبيباً ولا مهندساً ... فأنا
أقترن من رؤية الدم ، ولا أحب النظر إلى المرضى ... أما الهندسة
فلا يمكن أن أفهمها وأنا لا أفهم شيئاً في الرياضيات ... وحاولت
أن أغري صديقي عباس حلي النعمان بالقسم الأدبي فأبدي ارتياحه
في أول الأمر ... ثم عاد فسجل اسمه في القسم العلمي ، نزولاً على
إرادة أبيه المهر على أن يراه طبيباً ... أما والدي فقد وجد
اختياري طبيعياً ومتفقاً مع إرادته : أن أسلك مسلكه في القضاء ...
ونجحنا ... وحصلنا على شهادة الكفاءة ... منذ ذلك الوقت
وقد يممننا بوجوهنا شطر البكالوريا ، — أخذت تبدو علينا
أمارات الجد والإحساس بالمسؤولية ، والميل إلى كل ما يشعرون
برجولتنا ... ظهر ذلك في نوع مطالعائنا ... كما ظهر من نوع
عواطفنا ... فقد حدث فينا مزيج عجيب متناقض ... فإلى جانب
إحساسنا بالحب الرفيع ، بدأنا نعرف المرأة كما كان يتاح لأمثالنا

مقابلتها وقتئذ ، في تلك الأماكن المظلمة وبحي وجه البركة ،
و « كوت بك » ، كلما استطعنا تدبير عشرة قروش في ليلة جمعة ...
قبل ذلك ما كنا نعرف غير العادة السرية ... ولكننا منذ عرفنا تلك
الهبوط المرحضة وقتئذ عرفنا الاتصال الجنسي المباشر بالمرأة ،
لنسلل إليها في السر دون خشية فاضح أو رقيب ... ولقد حدث
ذات مرة أن جاءتنا عادمة شابة أرملة لاحظت أنها تحارل
الاحتماء في وإغرائنا ... وكدت أضعف وأهم بها لولا أني جعلت
أفكر في الأمر ومغبته وما يمكن أن يترتب عليه من فضيحة
في الأمر ... فنهالكت نفسي بسرعة وتماسكت وتغلبت إرادتي
على نزوتي ... على أنه في ذات الوقت وإلى جانب الكتب
الجنسية الماسجة التي كانت الأيدي تتنازعها خفية في الفصل ... مثل
كتاب « رجوع الشيخ » ، فإننا كنا نقبل بتفاخر على المطالعات
الجادة العميقة ... أذكر أني اشتريت من مصر وفي كتاباً ترجم
حديثاً إلى العربية للفيلسوف « سبنسر » في الأخلاق ... وكنت
أشعر بالزهو أني أقرأ في الفلسفة وإن كنت لا أصدق الآن
أنني فهمت شيئاً يذكر من هذا الكتاب وأمثاله من الكتب

الجادة الجافة ، إلا أنها كانت نزعاً تلك المرحلة ، فقد
انتهى اهتمامي بقراءة الروايات وقصص المغامرات ... بل لقد
انتقل حديثي مع الزملاء من شئون التمثيل إلى المناقشة
والمجادلة في موضوعات فكرية وفلسفية ... على أن هذا الميل إلى
التفلسف لم يمس بعد منطقة المعتقدات أو ما وراء الطبيعة ،
بل كان يدور كله حول مسائل عاطفية ... فما من شيء وقتئذ
كان يهز عقائدنا أو يجعلنا نصدق أن هناك تفكيراً يمكن أن يثار
للتشكيك في الدين ... حقيقة كنا نسمع عن وجود رجل اسمه
" شيلي شميل " يتحدث عن داروين والتطور وأصل الأنواع وأن
الإنسان أصله قرد ، وأنه ينكر وجود الله ... ولكن المجتمع
في ذلك العهد كان عجيباً حقاً في احتماله وتسامحه ... وربما في ثقته
بقوة إيمانه ... فقد كان يعلم أن شيلي شميل ملحد ، وأنه يجاهر
ويباهي بإلحاده . فما كان أحد يزيد على أن يتسم أو يصخر أو يمطره
بالنكات ... من ذلك تلك النكتة التي تواترت يومئذ عن الشاعر
حافظ إبراهيم ... قيل إنه كان يستمع إلى إحدى المطربات في
مقهى من الملاحى وإلى جواره شيلي شميل ، الملحد الذي لا يؤمن

بغير الطبيعة ... فلما أجادت المطربة في الغناء صاح حافظ إبراهيم
مع الصائحين : " الله ... الله ... " ثم التفت إلى شيلي شميل وقال
له : " وأنت كيف تصبح عند الطرب والله عندك غير موجود ؟ ...
هل ستصبح : " طبيعة ... طبيعة " ، ١٩ ...

كان . بل هذا التسامح الساخر يجعلنا لا نصدق أن الإلحاد
شيء جاد ... لذلك ما كان تفكيرنا الذي أخذ يتجه إلى التفلسف
يصدق أن في الإيمان مد التفكير إلى منطقة البحث في وجود الله
ولم يكن في أيامنا قد ترجم إلى العربية كثير من الكتب الفلسفية
أو أشهرها ما يغذى مبولنا الجديدة ويرضى غرورنا الناقص ...
ولم يكن هائلاً باللغة الانجليزية يرقى إلى مستوى الاطلاع في
الكتب الفلسفية الانجليزية ... وربما لأننا لم نكن نعرفها أو
نسمع بأسمائها وأسماء أصحابها ... وحتى لو علمنا لما وجدنا أثمناها
في جيوبنا ... أما الفلاسفة العرب من أمثال الغزالي وابن رشد
وابن سينا ... فلم نجد من يرشدنا إليهم ... ولم تكن كتبهم
الصفراء مما يسهل على أمثالنا الحصول عليها ، ولم يفكر المسئولون
طبعاً أن يضمنوا البرامج الدراسية بعض صفحات قليلة مختارة

كنماذج للفكر العربي أو الإسلامى... فقد كانت البرامج الدراسية مقصورة على النصوص الأدبية البحتة... ويختار لنا منها ما هو فن زخرفى تجريدى... فالأدب العربى فى بعضه ربما كان من حيث الشكل هو أول أدب تجريدى فى التاريخ، يقوم على القيم الجمالية اللفظية فى شكل المقامات والسجع والبديع والجناس إلخ... على نسق الفن التشكيلى التجريدى فى الزخرفة العربية الإسلامية... لذلك كله ضاعت علينا فرصة التكوين الفكرى الفلسفى الحقيقى فى تلك المرحلة التى يريد فيها العقل أن يتفتح للتفكير بل إن أمهات الكتب الأدبية نفسها التى كان يجب أن نطالعها فى تلك المرحلة لم تكن فى متناول أيدينا... كان يجب فى تلك السن أن نكون قد أحطنا علماً بروائع الأدب العالمية أو على الأقل بعض نماذج لها... لم يكن قد ظهر فى الترجمات وقتئذ غير الجزء الأول من البؤساء لفكتور هوجو... ترجمه حافظ إبراهيم بأسلوب عربى جزل... كنا نترنم به ترنماً... ثم ظهرت ترجمة رديئة لرواية تولستوى «حنا كرنينا»، لم تكن تصلح للإيجاء إلينا بأنها من الأدب الخالد... كان فتحى زغلول حقاً قد ترجم لمونتسكيو،

لعله كتاب «روح القوانين»... وكانت لدى والدى نسخ كثيرة منه كذلك لتوزيعها... ولكن الكتاب لم يجذبني إليه وقتئذ... ربما كان ذلك لموضوعه أو لارتفاعه عن مستوى إدراكى... على أنى وجدت من كتب والدى بعض مؤلفات قيمة فى الأدب العربى... أذكر منها «العقد الفريد» لابن عبد ربه بأجزائه العديدة... والكامل، للمبرد و«الأمالى» للقالى ونحو ذلك.. «مطالع» «العقد الفريد» بشغف شديد أكثر من مرات وفى مراحل كثيرة من حياتى... ولم أزل محتفظاً بمجلداته تلك فى الطامة القديمة ذات الورق الأصفر والغلاف الجلودى السميك حتى يومنا هذا... والعجيب أن والدى الذى أمرنى بمطالعة المؤلفات وعربي من أجلها، لم يأمرنى بقراءة العقد الفريد، وهو أبسط وأمتع وأنفع لمن كان فى سننى... ولعله لم يظن إلى وجوده فى صناديقه وصحاحيره... أنا الذى اكتشفت وجوده بنفسى وأنا أنقب فى تلك الصناديق والصحاحير التى لبثت أعواماً طعماً للصراصير... فقد كانت والدتى تضيق بها أشد الضيق وتقذف بها فى أى مكان تلقى فيه المهملات

والكراكيب ... ذلك أنها منذ تزوجت والدي ورأت فقره
وخافت على مستقبلها وأرعبها شبح الفاقة أرعبته معها ... فإذا به
ينسى الشعر والأدب والفكر ، ويمضى يهتم بمشاغل العيش
والكفاح من أجل تدبير مورد إيراد ثابت ... وظل طول حياته
لاهم له ولا كلام إلا في الأرض والأطيان ، السماسرة ، والبيت
الذى اشترى في الرمل ، والبنك والأقساط ، والرهنية ، والفوائد
المستحقة ، ومضى شبابه وأنا لا أسمع منهما إلا الحديث في هذا
الموضوع ... ولم يصبح لوالدي من الوقت ولا من فراغ البال حتى
ما يمكنه من سؤال عما أقرأ ... وأحمد الله على ذلك ... فلو أنه
دفعني دفعا إلى مطالعة ابن عبد ربه والجاحظ وابن المقفع وغيرهم
من قرأت لهم بنفسى ، وأمرني أمراً وضر بني ضرباً من أجلهم كما
فعل من أجل المعامقات ، لكرهتهم وما رأيت فيهم غير أشباح
مخيفة ... على أن الذى كنت أشتاق إلى مطالعته كل الاشتياق
في تلك السن هو تلك المسرحيات التى كنا نشاهدها في دار الأوبرا
وغيرها من المسارح ... بحث عنها كثيراً وسألت عما إذا كانت
قد طبعت في كتب ؟ ... فقل لي إنى قد أعثر على بغيقي في بعض

مكتبات شارع محمد على أو شارع عبد العزيز ... لكنى بعد البحث
الطويل لم أجد غير القليل منها مطبوعاً طبعاً رديئاً مثل مسرحية
بوريدان أو البرج المائل ، وشهداء الغرام ، بقصائدها
وعطيل ، ثم لويس الحادى عشر ، التى فرحت بها فرحاً
كبيراً ، وحفظت منها دور لويس ، بأكمله ... غير أنى لم أجد
هامان ، وكنت نواقاً إلى قراءتها كما مثلت في العربية ...
بل إنى لم أجد مسرحية واحدة من مسرحيات مولير التى ترجمها
رحمة عثمان جلال ... كنت أتألم ألماً حقيقياً لحرمانى من
هذه المؤلفات التى كنت أحس بحاجتى الشديدة إليها في تلك
المرحلة المتحمسة المتوثبة من حياتى ... أدركت فيما بعد ما هو
الامنى الحقيقى للحضارة والبلد المتحضر : هو أن توضع كل آثار
الذهن وتراث الفكر في متناول الأيدى بلغة البلد لكل مراحل
السن ...

الناس لموته سمعت أخبار جنازته من حولي ، ولم تكن يومئذ
في القاهرة ... كنا بالأقاليم فكان يصل إلى أذني وقلبي الكلام عن
وفاته وحداد الأمة عليه ، فأشعر أنا أيضاً بالآلم يحز في قلبي
الصغير ... وتواترت إشاعات لم أزل أذكرها حتى اليوم ... قيل
إنه مات مسموماً ... سمع أعداؤه الإنجليز ... وكنت أسأل
في سداجة : كيف سموه ؟ ... فقيل لي : وضعوا له السم في مقبض
صعاء الحل بالذهب ... وكنت استفسر عن كيفية ذلك ...
فبعال لي : دهنوا مقبض الصعاء بالسم فلما أمسك به سرى السم
في جسده ... وكنت أصدق ذلك الكلام ويسرى في نفسي
وبه لطم يدي حاملاً الكراهية لأوائك الذين فعلوا به ذلك ...
قال لي أبي فيما بعد إن ماضي كامل كان في السنة الأولى بمدرسة
الحفوق يوم كان والدي وزملاؤه بالسنة الرابعة ... وما كانوا
يرون فيه إلا شاباً ثرثاراً ، يترفعون عن الاهتمام بكلامه الكثير
أو أخذه مأخذ الجد ، وكانوا هم أيضاً مهتمين بسياسة البلد ودائبين
على مطالبة الخديوي بالاستور ولم يكونوا أقل منه وطنية
ولا ثقافة ، كما قال لي .. وهذا جائز ... غير أن الذي فاتهم

كانت مصر في تلك السنوات تعيش خلال الحرب العالمية
الأولى ... وإذا كررت عائداً إلى الوراء لأتلمس مشاعري في ذلك
الوقت ، لوجدتها هي نفس مشاعر كل مواطن إذ ذاك ... كنا
بقلوبنا مع الألمان والأتراك ... وقد كانوا في جانب واحد
ضد الإنجليز الذين كنا نمقتهم ونتمنى الخلاص من احتلالهم ...
كان الشعور بكرهية الإنجليز شيئاً طبيعياً كاهواء الذي نتنفسه ،
ولا نجادل فيه ولعل الفضل في إثارة الشعور العام بينغض الإنجليز
هو للمجاهد مصطفى كامل ... فقد كان رمزاً في قلوبنا لمناهضة
العدو البغيض الذي يسمى «الإنجليز» ... غير أن مصطفى كامل
تقبل وفاته كان يبدو لعيني الصغيرة بطلاً من أبطال القصص مثل
أبي زيد الهلالي والزناتي خليفة ، بل إنه قد أصبح فعلاً بعد ذلك
أسطورة من الأساطير في نظر العامة ... فقد كنت أسمع عنه
كلاماً من هنا ومن هناك وأرى صورته في بعض الصحف فأخيله
في صورة من تلك الصور الخيالية ... ويوم مات وقامت قيامة

إدراكه من أمر ذلك الشاب هو أنه كان يملك مالا يملكون :
قدرته على تحويل كلامه إلى حركة عملية ثورية ، وموهبته
في الإثارة الشعبية ... وهذا استعداد خاص لا يتأتى لكل شخص ...
أما شعور حينا للترك وقتئذ ، فلعله في أغايه من تأثير مصطفى
كامل أيضا ... فقد كان اتصاله بالأستانة والباب العالي شيئا
معروفا ... وكان الناس ما عادوا يشعرون بوطاة حكم الترك
شعورهم بالاحتلال البريطاني ... فالحكم التركي كان قد زال
فعلا أثره من النفوس ، ولم يكن يربطنا به إلا خيط شبه
رمزي ... وما أن أعلنت الحرب ، وكان الخديو عباس قد سافر
إلى اسطنبول للاصطياف حتى قطع ذلك الخيط أيضا ، وأصبحت
مصر تحت حكم بريطانيا المطلق مباشرة عملا ورمزاً ... كنا
طول مدة الحرب نتطلع إلى ناحية القنال ننتظر مجيئ الأتراك
والألمان لينقذونا من الاحتلال البريطاني ... وكانت الأخبار
تتواتر كل يوم عن رؤية جيوش قادمة عبر قناة السويس ... بهذا
الآمل كنا نعيش طول الحرب الأولى ... ولم نكن نحن سكان
المدن نشعر بوطاة الحرب كثيراً ... اللهم إلا تحمل رزالة الجنود

الاستراليين والسكري من الانجليز ... وخطفهم ما في جيوب المارة
بلا وما في أيدي الباعة نهراً .. فما من مظاهر واضحة أخرى للحرب
سوى أن النوافذ المطلة على البحر في الأسكندرية كنت أراها مطلية
باللون الأسود أو الأزرق بأمر الانجليز ، حتى لا يتسرب الضوء
إلا إلى هواصات الألمان .. أما القاهرة فلا أذكر أنه اتخذت فيها
احتياطات هامة لأن الطائرات لم تكن كثيرة الاستعمال في تلك
الحرب ... وخاصة في مدينا .. لست أذكر أنه كانت تطلق صفارات
الإنذار .. ومضت الحرب دون أن يحدث في مصر غير حادث واحد
لتحارب طائرة ألمانية فوق القاهرة ... ألقت بضغ قنابل «شراينل» ،
أذكر اسم القنابل جيدا لأن هذا الحادث الوحيد من نوعه كان
موضع حديث الناس والمصحف وتصوير مجلة ، اللطائف المصورة ،
أشهر مجلة مصورة في ذلك الوقت ... نشرت صوراً لمكان الحادث
الذي وقع على ناصية شارعى عماد الدين والمغربى وعدلى باشا .. ولم
يكن فيما أذكر لهذه القنابل ضحايا بشرية .. كل ما نتج عنها إصابة عربية
حظور وحصانين ، وقد قتل الحصانان ... هذان الحصانان هما كل
ضحايا الحرب الجوية في بلدنا في ذلك العهد ... وفي ذات يوم ساعة

العصر بينما أنا في الشارع إذا بي أرى الناس تتجمع وتتصاحج ويخرج أصحاب الدكاكين مهملين ويقذف الخواجات بقبعاتهم في الهواء فحين راقصين هاتفين ، وكأن الناس جميعاً قد جن جنونهم فجأة... فسألت عن الخبر ، فسمعت من يصيح بجوارى : الهدنة... الهدنة... وهكذا انتهت الحرب الأولى... ولم يمض قليل حتى قامت ثورة ١٩١٩ واشتعلت مصر... ويدهشني أنى لم أتجه يومئذ إلى الخطابة أو كتابة المنشورات . مثل بعض زملائي ومعارفي . فقد كان اتجاهي هو إلى تأليف الأناشيد الوطنية الحماسية . وأحياناً كنت ألحنها بنفسى مسترشداً في التلحين بأغنام تلك الموسيقى الجنائزية التي كانت تعزفها فرقة حسب الله «الأصلى» أمام نعوش ضحايا المظاهرات... علمت فيما بعد أنها في الأصل لبعض «مارشات» شوبان وفاجنر، ولكن حسب الله — عافاه الله — قد قابها رأساً على عقب ، فإذا هي شـ لو سمع شوبان وزميله فاجنر لا غرقا في الضحك ، وعجباً لما صارت إليه ألحانها !... ذلك أن فرقة حسب الله كما كنا نراها في الجنائزات كانت تتكون من عشرة أفراد على الأقل... ولكن الذى يعمل منهم حقيقة لا يتعدى الثلاثة.. أما السبعة الباقون فلا يعزفون شيئاً

كل مهمتهم أن يحملوا آلات نفخ مسدودة أو من الخشب المطلى لإيهام الناس أنهم موسيقيون ، وما هم إلا نوع من الكومبارس يمثلون الأداء بالإشارة لزيادة العدد... كان يكفينى اللحن الأسامى الذى أعرف منه إيقاع «المارش» لاستخرج منه لحناً آخر حماسياً يتمشى مع كلمات الأناشيد التي أضعتها في مناسبات الثورة... وقد انتشرت بالفعل بعض تلك الأناشيد إلى حد أدهشنى... سمعت يوماً بعضها يردده المتظاهرون في حى بعيد ، دون أن يعرف أحد من مؤلفها وملاحها !... ما كان هذا يهم أحداً في ذلك الوقت... كان المهم هو الحفاظ أى نشيد بلهب الحماس أينما وجد... بل إنى علمت فيما بعد أن من تلك الأناشيد ما كان يردده شباب الإسكندرية ، فإذا سئلوا عن مصدره قالوا لا نعرف ، إنما هو نشيد جاء من القاهرة... لا أحتفظ مع الأسف بنص واحد منها... ولا أذكر لحناً واحداً... لكن زميلى عباس حلمى النعمان رحمه الله ظل يذكرها وينشدها أمامى كلما تقابلنا في الحياة بعد التوظيف، فنضحك ونعجب... يخيل إلى أنى نظمت أيضاً بعض قصائد من الشعر في الحركة الوطنية ضاعت هي الأخرى... وقد نصيتها في حينها... إنى لا تسامل أحياناً

لماذا لم أتجه إلى الشعر للتعبير عن عواطف الشباب ... كما فعل والدي
في شبابه ... كنت أستطيع ذلك أنا أيضاً على نحو ما ... لم تكن القدرة
على النظم تعوزني ... ولا العجز عن الأداة اللغوية ... فقد كنا في أهم
مراحل حفظنا للكثير من النماذج الشعرية ... وكان غير قليل من
زملائي ينظم الشعر بسهولة ... لا أفصد عن موهبة ... بل لمجرد المحاولة ...
إن عدد الذين كانوا يقرضون الشعر في الحركة الوطنية من مطربشين
ومعتمدين وطلاب في الأزهر ودار العلوم والمدارس العليا والثانوية
والمعاهد الدينية لم يكن يعد ولا يحصى ... ما من شاب وقتئذ لم يدبج
القصائد في حب الوطن ... وربما في غيره أيضاً ... ما الذي أقعدني
أنا ؟ ... ليس عندي سوى تعليل واحد ؛ هو أن الشاب يلجأ إلى
الشعر تلبية لنداء الفن في أعماقه ... فبعض النفوس التي يستيقظ فيها
شيطان الفن تحاول أن تجد له مخرجاً وثياباً ... والشعر أقرب تلك
الأثواب تناولا للشباب ... فالنموذج أمامه فيما حفظ من شعر الشعراء
وما عليه إلا أن يسير على الدرب ... هذا إذا لم يكن هناك ثوب آخر
كالنموذج أو الرسم أو التمثيل حل فيه الشيطان من قبل ... وتلك كانت
حالتي ... فشيطان الفن عندي كان قد ارتدى ثوب التمثيلية قبل أن

التمت إلى ثوب القصيدة الشعرية ، ولما حل فيها كن واستقر ولم
بعد بمكر في الخروج إلى غيرها من أثواب وأشكال ... حتى عندما
مكر فيها بعد في اتخاذ ثوب الرواية والقصة ونحوهما فإنه اتجه إلى
ذلك بدافع العقل الواعي والحاجة الماسة ، حاجة المواطن إلى التعبير
عن حماسه لهلاده وعن رؤيته لتطور مجتمعه ، وحاجة الأدب وقتئذ
إلى إمرار هذه القوالب الجديدة على نحو جاد ، لتحمل موضوعات
جديدة ، ما كان يمكن أن تحملها غير الرواية والقصة ، وقد كنا يومئذ
في أمر حيائهما ، في حاجة إلى دفع ودعم من كل من وهب نفسه للفن ،
لنعلمن هذه القوالب وتخطى بالاحترام الذي كانت محرومة منه بين
غيرها من فروع الأدب العربي .. بل إن اعتبارها فرعاً من الأدب
العربي لم يكن بعد معترفاً به ... إنما كانت كمنة التمثيل والموسيقى
والتصوير والنحت ، أشياء لا يقربها إلا المغامرون المقامرون
بسمعتهم ... فلا يستغرب إذن أن تبقى رواية « زينب » للمرحوم
هيكل متدثرة بالظلام ، لا يجرؤ مؤلفها على إعلان اسمه أعواماً
عديدة ... أي إلى أن أعاد طبعها باسمه الصريح ... وكنت أنا وقتئذ في
فرنسا أكتب « عودة الروح » ... كان الأمر إذن — ولم يزل —

فيما يتعلق بكتابي للرواية والقصة تطوعا قوميا وفنياً ، أقوم به .
كلما شعرت أن هناك حاجة إلى الإسهام بمحمد ، وأن الواجب يدعو
إلى المحاولة ... لذلك وقفت طويلاً وقفة المتردد أمام محاولة «عودة
الروح» ، بعد أن كتبت فيها مائة صفحة ... هل أمضى في كتابتها ؟
أو أكف وأمزق ما كتبت وأعكف على المشروع الآخر الذي
كان يرادني وقتئذ : كان ذلك المشروع هو تأليف كتاب ضخم
عن الفن من ثلاثة أجزاء ... الجزء الأول تعريف بالفن عامة من
كل وجوهه وفروعه ... والجزء الثاني عن الفن المصري في مراحل
المختلفة ... والجزء الثالث عن الفن في العالم الحديث ... كنت في
أوروبا ورأسى ممتلئاً بالقراءات والتأملات والأحلام أيضاً ...
لأن القيام بتأليف مثل هذا الكتاب هو حلم لا يتراءى لشخص في
تمام يقظته ... ولكنه طموح الشباب ... العجيب أني كتبت من
الجزء الأول نحو خمسين صفحة أو يزيد ... وحدثت البلبلة ...
ووقعت في الحيرة ... أيهما أكتب وأيهما أترك ؟ ... إنني أعرف
نفسى ... إنني شخص لا يستطيع أن يسير في طريقين ... وطاقتي لا تحمل
التشتيت ولا تعمل إلا بالتركيز ... صممت على أن أمزق أحد العاملين ،

حتى أتفرغ للآخر ... لا بد من إعدام صفحات أحدهما حتى
الانخيلاني وتفريني وأنا في منتصف العمل الآخر ... لكن أيهما ؟
وأنفقت أياماً وأوازن بين الحجج ... وأخيراً انتهيت إلى تمزيق كل
ما كتبت في الجزء الأول من كتاب «الفن» .. كانت حجتي هي أن
مثل هذا الكتاب سيأتي من يكتبه حتماً ، فقد كنا على أبواب
جامعة جديدة بها كلية آداب سيكون فيها ولا شك أساتذة في تاريخ
الفن . سبؤ لفون يوماً في هذه المخرطات بحدارة حقيقية ؛ لأنهم
مخلصون أما «عودة الروح» مهما يكن من قيمتها فهي عمل شخصي
لحياة إنسان بالذات لن تتكرر ولن أستطيع أن أقول عنها
«لا تظن أنها آخر ليكتبها» ... لأن هذا مستحيل ... فهي
العمل الذي إذا لي لا يصعب فيرى ... إن تأليف كتاب في الفن يمكن
أن تقوم به الجامعات ... لا في جامعاتنا وحدها بل في جامعات
الهلال الأجنبية ولما أكثر ما نظهر فيها المؤلفات عن تاريخنا وحضارتنا
وتفكيرنا القديم والحديث ... لكن تأليف رواية مصرية أو إنشاء
أدب قصصي مصري هو عمل لا يقوم به إلا صاحبه ، وابن بلده .
لا بد أن ينبت في أرضه بأيدي أهله . وكل جيل مسئول عن جيله

وعن تمهيد الأرض لمن سيأتي بعده ... خاصة وأن هذا النوع من الأدب العربي وهو الرواية الحديثة لم تكن قد استقرت بعد كقالب فني ... فما كان يجوز إذن تركها للمستقبل ... لأن المستقبل فيها لن يأتي إلا على أساس الحاضر ... والرواية التي تُولف اليوم إن هي إلا حلقة في سلسلة النمو الطبيعي للرواية غداً ... وإن أي تأخر في تكوين هذه الحلقة سيحدث فجوة ويطل فترة ويعوق حركة النمو. في وقت كانت بلادنا في أشد الحاجة إلى قالب الرواية لتصوير تلك الموضوعات الجديدة التي اقتضتها الحياة الاجتماعية والقومية في تلك المرحلة الهامة من مراحل تطورها ...

ومزقت الصفحات الخسین من کتابی عن الفن ... ولیتنی لم أفعل ... لأرى على الأقل اليوم ما هذا الذي كنت قد كتبت ؟ ... وهكذا مضيت في كتابة «عودة الروح» لا ألوي على شيء ... لا أرجو منها — من حيث الشكل — إلا المساهمة بالجهد الواجب نحو هذا القالب ... على قدر طاقتي الفنية ... أما من حيث الموضوع فإنني لم أرد أن أجعلها سجلاً لتاريخ بقدر ما أردت أن تكون وثيقة لشعور ... شعور شاب صغير في وسط مرحلة خطيرة لبلاده

ذلك أن رأيي في الفن ومهمته هو أن يترك تسجيل التاريخ للبؤرخين ، فهذا عملهم وهم أدق ... وأن يترك تفاصيل الأحداث للصحف اليومية التي دوتها يوماً بيوم ... وهذا عملها كذلك وهي أشمل وأعم ... ومهماتها تحتل المكتبات العامة ... يبقى بعد ذلك شيء لا يستطيعه غير الفن ... هو بحث الانطباعات وإبراز الشعور ... وبدأت لي أدوار في الغنية أعم من أن تبرز كل ما كان بنفسى ، وكان ما في نفسي يومئذ أوسع وأعمق مما تنسج له رواية واحدة ، وما كانت «عودة الروح» إلا حلقة من حلقات عمل أضخم تصوره ووضعت نطيرته في ذهني ولم أجد الظروف الملائمة لتحقيقه ... لذلك تركت مخطوطة «عودة الروح» نائمة في أدراجي طويلاً ... إلى أن شامت المصادفة البعثة وأنا وكيل نيابة لطباطا أن تقع ذات يوم في يد زميلي في القضاء : محمد طاهر راشد ، رئيس محكمة الاستئناف بالمعاش ، وهو قارئ مثقف محب للأدب والاطلاع فأخذها إلى القاهرة وأصر على نشرها وقاوم تردددي : فلم أشعر إلا وهي في المطبعة ... على أن دوافعي النفسية التي جعلتني أكتب «عودة الروح» بهذه الصورة ما كان يمكن أن تتكرر ... لأن

الظروف السياسية كانت قد تغيرت... فإن تكوين الأحزاب بعد ثورة ١٩١٩ على ذلك النحو الذي حدث ، وتنافسها على اقتسام واقتناء أصحاب المال والجاه وكبار الملاك لضمهم إلى عضويتها ، جعل قيادات هذه الأحزاب في أيدي تلك الطبقة ، ولم يسمح للفكرين والمثقفين الحقيقيين إلا بالمراكز الثانوية التي ليس لها حق التوجيه... ومن هنا ضعف الدور الفكري والاجتماعي لهذه الأحزاب ، واقتصرت نشاطها على الجانب السياسي... وحتى هذا الجانب أيضا قد تمخض أحيانا كثيرة عن مجرد تطاحن على كراسي الوزارة وتنازع على ثمار شجرة الحكم... وهو ما كان يهم أكثر تلك القيادات... أما الكاتب الممكر المثقف في نظرها فكان في الأغلب مجرد قلم يستأجر للدفاع عن وجهة نظرها ، والهجوم على خصومها... وكان هذا ما نفرني وأبعدني عن هذه الأحزاب ، وما جعلني أقف ضدها جميعاً ، وأرى كل شيء يتحرك من حولي داخل إطار سياسي كاذب مزيف ، وما جعل الصورة التي يمكن أن تكتب عن بلادنا وقتئذ أبعد ما تكون عما كانت تتمناه عواطف المتحمسة التي دفعتني إلى كتابة مثل « عودة الروح »...

كانت أول تمثيلية لي في الحجم الكامل هي التي أسميتها « الضيف الثقيل »... أظن أنها كتبت في أواخر عام ١٩١٩... أذكر هل وجه التحقيق... كل ما أذكر عنها - وقد فقدت منذ وقت طويل - هو أنها كانت من وحي الاحتلال الوطني... وأنها كانت ترمز إلى إقامة ذلك الضيف الثقيل... لا بد أن دعوة منا ، وبدون رغبة منه في الانصراف عنا... ولم يكن بالطبع من الممكن إظهار هذه المسرحية على مسرح في ذلك الوقت... والرقابة على المطبوعات لم تكن اتعمى عن مراعاة مثل هذا الموضوع في وقت لم يكن للناس حديث ولا نهامس إلا من الاحتلال الثقيل ومتى تتزاح غمته... على أن السؤال الواجب هنا هو : لماذا بدأت أول ما بدأت بالمسرحية ؟... لعل الطبيعة المسرحية : أي خلق الإنسان من الجوار لامن الوصف ، خلغته من واقع كلامه هو ، لامن واقع وصف غيره هو ما يلائم طبيعى... لماذا ؟... أهى وراثة ؟... أهو روح الجدل والمنطق والتركيز

ووضع الكلمة في موضعها وحوار النفس وقلق القاضى وميزانه عند والدى، كل ذلك أقرب إلى روح المسرح.. لست أدري؟... قد يكون هنالك أيضاً سبب أعمق... ربما كانت طبيعة ميراثنا الأدبى نفسه... إن طبيعة التركيب والتركيز عند العرب منذ القدم فى الشعر والفكر والأدب والبلاغة — هذه الطبيعة التى هى جوهر الفن المسرحى — تجعلنى دائماً أعتقد أن السليقة العربية هى سليقة مسرحية... وإذا كانت ظروف مختلفة قد حالت دون تجسيد هذه السليقة بالطريقة المعروفة عند اليونان، فإن ذلك لم يمنع من ظهور بوادرها فى أشكال أخرى، فأنا كلما تصورت مشاهد رسالة الغفران للمعري، أو قرأت قطعا من حوار فى الأغاني أو للجاحظ، ورأيت ذلك البناء المحكم للصورة والعبارة، والإصابة المباشرة للمفصل، بلا لغو ولا فضول فى التلوين الفريع للشخصية أو العاطفة أو الفكاهة، أوقن وأشعر بالجذور العميقة الخفية لهذا الميل عندى. للفن المسرحى... مهما يكن من أمر فإن هذا الميل قد لازمى وسار معى فى كل خطوة من خطوات حياتى ودراستى... وحصلت على شهادة البكالوريا، والتحقت بمدرسة الحقوق وكانت تتبع وزارة

الحفافية... ولم تكن وقتئذ تقبل إلا عدداً محدوداً... كان فى عام التحاقى قد وقف عند الثمانين — فيما أذكر — من ترتيب عدد اللاحقين فى البكالوريا... وكان ترتيبى فيما أذكر أيضاً السبعين... لم أكن بالطامع من الطلبة المبرزين من مدرسة الحقوق.. بل كنت فى انتظار أن أجتاز امتحان النقل من السنة الأولى إلى الثانية... العجيب فى أمرى أن كنت أنجح من أول مرة فى الشهادات العامة: اللغة العربية، اللغة الفرنسية، والبكالوريا. وأرسلت فى السنوات الأولى إلى أمى دائماً فى الخطوة الأولى... وكان رسوبى فى جملة مواد أذكر منها اللغة الفرنسية، وقد كانت ضرورية لنا فى دراسة القانون، لأن المراجع الذى كان فى مكتبة فرانسوا، ولم يكن التدريس باللغة العربية معروفاً إلا فى حدود ضئيلة... فقد كان التدريس باللغة الإنجليزية فى مواد الاقتصاد السياسى، والقانون الرومانى، ومقدمة القوانين، والطب الشرعى، على يد أساتذة من الإنجليز... بعضهم لم يكن بالأستاذ الكفء... وبعضهم كان يأتى فى حالة سكر بئس، ولم نكن نفهم منه كثيراً كأستاذ القانون الرومانى، مستر ملفيل... وكنا أحياناً نستفيد من سكره، فتوسل إليه أن ينقذنا من بعض

الصفحات العسيرة في الكتاب المقرر ، فكان يستجيب لنا ويقول
وهو بين النوم واليقظة : « حسناً ... احذفوا من صفحة كذا إلى
صفحة كذا ، ثم نعود في أسبوع آخر بعد أن يكون قد نسي ،
فنستعطفه مرة أخرى فيعود إلى الحذف ... وهكذا حتى حذف لنا
نصف الكتاب .. ولم نمتحن إلا في النصف ...

على أن المجتهد فينا كان لابد له من الاعتماد على نفسه والاطلاع
على المراجع الفرنسية ... ولم تكن الفرنسية التي تعلمناها بالقسم
الأدبي بالمرحلة الثانوية تكفي لمثل هذا الاطلاع ... لذلك كانت
تدرس لنا هذه اللغة في مدرسة الحقوق على يد أستاذ فرنسي ملم
بالقوانين اسمه « مسيو توندير » يلقبنا بالمصطلحات القانونية التي
تمكنتنا من الاطلاع في المراجع الضرورية ...

كان الأستاذ الاجنبي الممتاز حقاً في كل المدرسة هو ناظر مدرسة
الحقوق نفسه وقتئذ : « مستر والتون » — وأظن أنه إيرلندي —
فكتبه في القانون المؤلف بالإنجليزية كان خير ما أعاننا وأفادنا .
على الرغم من ذلك رسبت في السنة الأولى ... وكان لهذا
الرسوب أثره السيء بالطبع عند أهلي ... فما أن ذهبت إليهم في

الإسكندرية بضيعة أجازة الصيف حتى استقبلوني بوجوه عابسة
مأخبة ، وأنذروني بأن أجازة الصيف لا ينبغي أن أمضيها في المتعة
التي لا أستهكمها ، بل في الدرس ، وخاصة في التقوى في اللغة الفرنسية
التي ... بها على نحو قاضح ... وقبل والدي أن يدفع لي أجر
دروس خاصة في مدرسة « براتس » المختصة بتعليم اللغات الحية ...
والتي ... في المدرسة طلة شهر الصيف ، اتلى ثلاثة دروس
حصوية في الأسبوع على يد مدرسة فرنسية أفادتني كثيراً ...
وهي أهدتني أن اللغة لا تتعلم حقاً إلا بالقراءة ... ولا سيما لمن هو
... في عالمنا ... فإني بمداركي المتسعة أستطيع
تعلم اللغة ... عن طريق مداومة القراءة أكثر من تلقى تلك
الدروس التقليدية التي تلقن لصبية المدارس وأشارت على بشراء
كتاب أدبي من صميم الأدب الفرنسي ، وهو في نفس الوقت سهل
الأسلوب إلى حد أن يستعصى على فهمه ... كان هذا الكتاب هو
« رسائل طاحونتي » لآلفونس دوديه ... جئت بهذا الكتاب
وطالعت فيه تحت إرشادها وبمباركة قاهوس « لاروس » الصغير
فيذا بي حقاً أجد لغته سهلة ممتعة ... سهلة للقارئ المبتدئ مثل ،

ممتعة ولا شك على من يريد محاكاتها من الأدباء ... وشجعتني استطاعني المضي في هذا الكتاب بلا مشقة تشجيعاً كبيراً . وشعرت كأن اللغة الفرنسية تفتح أمامي أبوابها المغلقة بالترحاب . فلما فرغنا من هذا الكتاب أشارت على المدرسة بكاتب آخر له نفس الامتياز في الأسلوب السهل الذي لا يستعصى على طفل ، وإن كان تفكيره من العمق بحيث سيجعلني أقف عنده حائراً أو متأملاً .. وليس هذا عندها بالمهم ... المهم أن أفهم لغته وأنعلم تكوين عباراته البسيطة في مبناها ... كان هذا الكاتب هو أناتول فرانس ، ... فيما بعد عرفت كيف كان أناتول فرانس يجاهد ويعاني ليصل بأسلوبه إلى هذه البساطة المضيئة النقية كأنها قطرات الماء السائل من السماء وفهمت - فيما بعد أيضاً - لماذا قيل إن مفتاح أناتول فرانس هو « راسين » ... سرت بعد ذلك على الدرب ... ومضيت وحدي بعد أن انتهيت من هذه المدرسة بانتهاء الصيف ... وصرت أشتري الكتب الفرنسية وأقرأها ... وبمعاونة القاموس الذي بجواري والرغبة التي في نفسي استطعت أن أتقدم في هذه اللغة تقدماً جعلني أقرأ منها كل ما أريد ووضار همي أن أنظر في واجهات المكتبات الأفرنجية وأقلب في

الكتب والمجلات ... وعلقت على مجموعة قديمة لمسرحيات الفريد دي موسيه ، زهيدة الثمن ، احتملها جيبي فاقتلعتها ... ومجموعة أخرى للماريلو ، اشتريتها أيضاً ... ثم وجدت مجموعة من نحو عشرة أجزاء أمراض جملة في محل لبيع الأشياء العتيقة ، بثمن لا يذكر . الكتاب عنوانه « أرمعون طامان المسرح » ، للمناقد المشهور فرانسيسك سارسي ، أعاني على الإلمام بحياة المسرح الفرنسي وما عرض فيه من أدب مسرحي كلاسيكي ورومانسي وعصري ... وهداني إلى ما كنت أجهل من تطورات هذا الأدب ... ثم وقعت آخر الأمر على أكوام من أعداد مجلة تخصصت في نشر النصوص الكاملة لأهم المسرحيات التي تعرض على مسارح فرنسا وأوروبا عامة ، مع آراء النقاد فيها ... تلك هي « ملحق الأستراسيون » ... كانت المكتبات لبيع القديم منها لا بالعدد بل بالسكوك ... وبثمن بخس .. فاغترفت منها اغترافاً ... وعلى الرغم من سيري في دراسة الحقوق بعد ذلك ، سيراً منتظماً إلى أن حصلت على الليسانس ، إلا أنني شغلت عن القانون والتفرغ له - التفرغ الذي يتيح لي التفوق والامتياز - يمثل هذه المطالعات التي كانت تسيطر على كل جوارحي ... كانت

الفرق التمثيلية الموجودة في ذلك الوقت خلاف فرقة « جورج أبيض »، هي فرقة « عبد الرحمن رشدي »، بالاشتراك مع « عمر وصفي » ... وكان من أنجح رواياتهما مسرحية « دوران ودوران »، لمؤلف فرنسي ربما كان اسمه « أنطوني مارس » ... كانت تمثل في تلك الفرقة بنصها الفرنسي ... إلى أن تناولتها فيها بعد فرقة « الريحاني » ومصرتها ومثلتها باسم « ٣٠ يوم في السجن » ... على أن الدور الذي لن أنساه لعمر وصفي في تلك الفرقة هو دور الوصي العجوز في « حلاق إشبيلية » ... ثم فرقة « منيرة المهدية »، وكانت متخصصة في الأوبريت، وانقطع لها مؤلف من هذا النوع هو محمد بونس القاضي وفرقة غنائية أخرى « للشيخ أحمد الشامي » ... ثم فرقة « عكاشة » التي ورثت بعض روايات الشيخ سلامة حجازي ... وكان مسرح حديقة الأزبكية لم يتم بناؤه بعد، فكانت تعرض حفلات سنوية بدار الأوبرا ... تلك كانت الفرق الجديدة القائمة يومئذ ... أما الفرق الحزلية فقد كانت هناك فرقة « عزيز عيد » المتخصصة في « الفودفيل » المكشوف يمثل بنصه الفرنسي المترجم عن « جورج فيدو » ... إلى أن ظهرت بعد قليل فرقة « أمين عطا الله »، ثم فرقة « الريحاني »

المنصة كعكش بك، التي نقلها عن أمين عطا الله وفرقة « حل الكسار »، بشخصية بربري مصر الوحيد ... وفي ذات ليلة ذهبت إلى دار الأوبرا أشاهد رواية لفرقة « بدار »، ثم وجدت هناك زميلا لي بمدرسة الحقوق ... سألته عما جاء به إلى ذلك المكان، علمني أنه ليس من المهتمين بمسرح الأوبرا، فأجابني أن شقيقه هو مؤلف الرواية التي نشاهدها ... فسمعت له لك وسررت به وفلت له : « عرفني بأخيك هذا » ... « وعرفت من صار بعد ذلك صديق وشريك في مسرحية غنائية » ... « حاتم » ... « مصطفى أفندي ممتاز »، الموظف بقسم الشياخات والعمد بوزارة الداخلية ...

كان مصطفى ممتاز قد توظف بالبيكالوريا ولم يستمر في الدراسة ألمانيا مثل أخيه زميل بالحقوق ... لكنه كان فيما رأيت منه أرسخ قديماً في اللاتين العربية والإنجليزية وأوسع اطلاعا وأمتع حديثاً ... وعلى جانب كبير من الموهبة والإحساس بالفن والحب الصادق للمسرح ... فكنت أجد فيه الصديق الذي تراح إليه نفسي، ولم أحفل كثيراً بأخيه زميل الدراسة ... كان كالغريب عني في العقلية

والممول... كنت أزور مصطفى هذا في بيته من حين إلى حين... كان متزوجاً وله أولاد... فكنا نقضى وقتاً طويلاً في حجرة الجلوس نتحدث في الفن والمسرحيات... كان يصغي إلى اطلاعي في المسرحيات الفرنسية، وأصغى إلى اطلاعه في المسرحيات الإنجليزية التي كان يطلبها بالبريد من لندن منشورة في سلسلة مسرحية زهيدة الثمن... فنتحارب أن نستعرض ما نجد هنا أو هناك مما يصلح في نظرنا للترجمة أو ما يغرينا بالتصوير... كنت قبل أن أعرف مصطفى ممتاز قد قمت بتصوير كوميديا أسميتها «العريس» عن مسرحية فرنسية ربما كان اسمها «مفاجأة أرتور» وقدمتها إلى جوق عكاشة... وكان «طلعت حرب» في ذلك الوقت - وهو المعتبر «سعد زغلول» الاقتصاد القومي والمنشئ الأول لأول بنك مصري - قد فكر في إنشاء مسرح مصري أيضاً وشرقي... فشيد مسرح حديقة الأزبكية، على الطراز العربي... واشترط أن يكون التثيل في هذا المسرح لمسرحيات مصرية وعربية، فلا تعرض فيه مترجمات بنصها الفرنسي وثيابها الفرنسية كما هو الحال في فرقة جورج أبيض أو عزيز عيد أو يوسف وهبي الذي لاح ظهوره في الأفق بفرقة جديدة على

مسرح رمسيس... فإذا لم يكن هناك بد من نقل موضوع أجنبي يظهر من مصر أو مصرها... أي «مقتبساً» كما كان يقال وقتئذ... فلا يصلح من المسرحيات الأجنبية لحياتنا المصرية أجرى تصديره، وما يصلح للجمهور التاريخية جعل في عهد العرب أو المماليك... ولتصر مسرح الأزبكية في هذا اللون. لم يشذ عنه. واستخدمت فيه اللغة المصرية إذا كان الموضوع تاريخياً أو جدياً، واللغة الدارجة إذا كان الموضوع مصرياً أو فكاهياً... ومهما يكن من أمر اختيار طلعت حرب لفرقة عكاشة كي يحتل مسرح الأزبكية الجديد وتقوم بذلك الرسالة فإن هذه الفرقة قد نجحت بفضل معونة بنك مصر المالية والصالح طالت حرب - في إبراز الأوبريت والأوبرا وكل ما يحتاج في إخراجها إلى بذخ وإنفاق.

ولم أختار أنا ومصطفى ممتاز على موضوع شيق كنت قد طالعت في إحدى الروايات الفرنسية، ربما كان اسمها «غادة ناربون» أو شيئاً كهذا، لست أذكر الآن - استطعنا أن نخرج منه مسرحية غنائية لفرقة عكاشة... جعلنا هذا الموضوع يحدث في مدينة شرقية في عصر قديم... وأخذنا نستعرض المدن فلم نوفق

إلى مدينة تصلح لجو المسرحية... كنا نريد مدينة شرقية ليست من
المدن الكبرى المعروفة حتى لا يضيع الخيال من رؤوس المشاهدين
وأخيراً جئنا بخريطة أخذنا تتأمل فيها... وإذا بنا نعثر على مدينة
صغيرة في فارس اسمها «مرو»، فصحبنا معاً: وهذه هي مدينتنا...
وأسمينا المسرحية «خاتم سليمان». وتقاسمنا وضع منظومات الألقان
وذهبنا بها إلى فرقة «عكاشة»... فتسلمها منا مدير الفرقة ومطربها
الأول والمستولي دائماً شئتاً أو لم نشأ على دور البطل، بمنزلة
المدلل وصاحب الأمر فيها والنهى، أصغر العكا كشة سنأوا ثقلهم
ظلاً — باعتراف القاهرة كلها وإجماعها في ذلك العصر — زكى
بك عكاشة، صاحب الخاتم المناسب الكبير المتلألئ، الحريص
على إظهاره دائماً في أصبعه؛ ليخطف به عيون المشاهدين
المحجبات، خلف ستائر «البنائير» التي تشبه «الناموسيات»،
مصرأ على الاحتفاظ به وهو في دور شحاذ في رواية اليتيمين
ملوحاً به ليبرق في أصبعه وهو يترنم مغنياً منشداً: حسنه لله
يا أسيادى... ولم يكن أستاذاً في كل ذلك فقط، بل كان أيضاً
أستاذاً في فن المماطلة مع المؤلفين المستضعفين من أمثالنا

والملاحين المساكين من أمثال كامل الخلقى... كنا نذهب إليه
الأسابيع نلو الأسابيع وهو يقول لنا: لم أقرأ روايتكم بعد...
كنت مضطرباً... كان صوتي مبهوحاً... كان مزاجي ممثلاً...
لكن هذا لم يكن هو في الحقيقة قد قرأها من أول ليلة وعرف
هذه دهرها وأعطاهما اللحن... لما أن نعرف بالمصادفة أنها في
اللعن، أى أنها في مرحلة التحضير، حتى نبادر بإخباره ومطالبته
بالتم، أو «الرواية». فيقول لنا: مروا على غداً. ونمر عليه في
الغد. فيقول: اصبروا أيضاً يومين. وبعد اليومين يقول: إن هنالك
جهداً يستلزم الانتظار قليلاً... وأخيراً يقول: اذهبوا إلى هاشم
الهندي وليس حسانات الفرقة... فذهب إليه فيقال لنا إنه مسافر...
وهو في الواقع قد اختفى في حجرة أخرى... ونظال نتعقب هاشم
الهندي وهو يملك من أيدينا كأنه الزئبق، إلى أن نطبق عليه
ويصبح فراره عسيراً... وتفرغ كل حيل المراوغة في الظهور
والاختفاء... فينتقل بنا زكى عكاشة الهام الذي لا يغلب إلى مرحلة
أخرى وميدان آخر: الكلام في الثمن... ما كان يعطى المؤلف
أكثر من ثلاثين جنيهاً للمسرحية... وعلى الأكثر خمسين في

أحوال نادرة ... لكنه كان يثبت في الدفاتر أن أجر المؤلف
أو الملحن مائتان من الجنيهات ... والفرق بالطبع في جيبه
الكريم ... كان المعروف عنه في آخر أيامه أنه أنشأ لنفسه
ثروة طائلة ، ولم يكن الحصول على الثلاثين جنيهاً من الأمور
الهيئة مع ذلك كان دون الوصول إليها مناقشات ومساومات
لا تنتهى ... ولم أرَ في الأفق بادرة أمل في نجاح قريب لمفاوضات
— ولا مفاوضات سعد زغلول يومئذ — يمكن أن تؤدي إلى
قبض نقود من زكى عكاشة ، فأصابني اليأس وتركت الموضوع
كله لصديقي وشريكي مصطفى ، وجعلت كل همى متابعة الألحان
التي كاف بوضعها كامل الخلعى ... كان هذا الملحن تحفة زمانه
في شخصيته البوهيمية وعلمه الواسع بالموسيقى الشرقية وعندما
عرفته بعد تسلمه روايتنا لتأليفها عام ١٩٢٣ كان حوالى الخمسين
من عمره ... وكان قد لحن الكثير من المسرحيات الغنائية لميرة
الأمهدية ... واشتهر على الأخص بألحانه لروايتها «كارمن»
ثم «كارمينينا» ... وكان معاصره في السن والتأليف الغنائى
المسرحى «داود حسنى» لا يقل عنه براعة هو الآخر في هذا

اللون من الفن ... كانت المسرحية الغنائية في ذلك الوقت
مزدهرة ازدهاراً كبيراً ... فالأثر الذي تركه الشيخ سلامه
حجازى في تكوين جمهور للمسرح الغنائى لم يكن من السهل أن
يزول بعده ... بل إن هذا اللون تطور من مرحلة القصائد الملحنة
إلى مرحلة الأوبريت والأوبرا الحقيقية ... وكان سيد درويش
قد ظهر منذ سنوات بتلحينه بعض روايات كشكش بك أى
الريحاني ... إلا أن ما كان يصنعه في مثل هذه الروايات لم يكن
محل تقدير فنى ، لأن الريحاني نفسه لم يكن يحترم الاحترام الذى
ظهر به في آخر أيامه ، فقد كان الإقبال على «كشكش بك»
يعادل الإقبال على الكهاريبات ... ولم يكن سر رواجه في الحقيقة
إلا تلك الرافعات الجيلات الشفراوات الأجنبية ؛ الوافدات
ههنا من الخارج عقب الحرب الأولى مثل «دينا لسكا» ومثيلاتها ،
من قلاف بن الجوع من بلاد منبرمة كالنمسا وألمانيا فجئن
إلى مصر المفتوحة يومئذ لكل من هب ودب ، فملأن المسارح
والحانات وقاعات الليل ... وكان الشباب من الوارثين يقبلون
على تلك المحال جميعاً باصاحبة الفتيات آخر الليل : فكان الواحد

منهم يحضر الرواية الواحدة للريحاني كل ليلة ، لا حباً في الرواية نفسها التي سبق أن شهدناها مرات ، ولكن من أجل سيقان الفتيات ... وعلى الرغم من قيمة ما صنعه سيد درويش لهذا المسرح الاستعراضى ، وما تبين فيما بعد من موهبته في تصوير أهل الحرف والمهن باللحن الموسيقي المعبر المبدع ... إلا أنه لم يظفر وقتئذ بالتقدير والاحترام إلا عندما لحن روايات جديدة مثل « هدى » لفرقة عكاشة ، « والعشرة الطيبة » و « البروكة » و « شهوزاد » — أى شهرزاد — (كانت تكتب قديماً بالواو وتنتشر في إعلانات الحائط وما من معترض أو ملتفت إلى شئ ... وبالعجب ...) حتى عندما أسس فرقة غنائية خاصة بالاشتراك مع عمر وصفي لتمثّل على خشبة « تياترو دار التمثيل العربى » بقرب شارع « وجه البركة » وانتهت بالإفلاس السريع فإن هذا الإفلاس المأساوى لم يكن قط مقترناً بأى إفلاس أدبى ... على النقيض ... لقد خسر المال وكسب التقدير الفنى من المثقفين والعارفين بقيمة الفن ...

انتهى العام الدراسى ... وجاء الامتحان ... ونقلنا - بقدره - حادراً - رفقه - ما غل الغنية - إلى السنة الرابعة النهائية ... سنة الليسانس ولركن أمره - ما غل سليمان ، فى يد زويل مصطفى ... وسافرت إلى الإسكندرية ألقى عطلة الصيف ... فما كدت أصل وأنظر إلى منزلنا العامر حتى كدت أصعق ... ما هذا الذى أراه أمامى؟ ... إنه ليس منزلاً ... بل هو مركب عجيب لا أعرف له وجهاً من ظهر ... لقد أزيل جدار رأيت آخر ، وخلع سلم وبرزت أحشاء قاعة بغير حائط ، وأطاح برأس السطح ، وأشياء أخرى غريبة من هذا القبيل ... وهرفت السهب : كأن قد خطر ببال أهل أن يجرؤوا فى المنزل إصلاحات وأن يريدوا فيه طابقاً ... كان القطن فى ذلك العام مرتفع السعر ، فاجتمع لهم مبلغ لا بأس به ... لم يروا أن يسددوا به رهن الاطيان أو رهن المنزل ... وروا أن ينفقوه فى تحسين المنزل ... ولست أدري من صاحب هذه الفكرة النيرة ... أهو والدى أم والدتى؟ ... كل ما أدري هو أن أول ثغرة فتحتها المعاول فى جدران هذا البيت

لم يستطع كل مال الأرض ، لا مرتب والدي الكبير وقتئذ ،
ولا الأموال إلى اقترضوها من البنوك والمرايين أن تسد هذه الثغرة ...
فقد أصبح البناء والهدم في منزلنا هذا شيئاً طبيعياً مستمراً كالأكل
والشرب ... ولا يقف عند شهور ولا أعوام ... ذلك أن والدي أراد
أن يكون هو نفسه بنفسه المهندس والمقاول وملاحظ العمل ...
فأحضر البنائين والنجارين والحدادين ... وصار يقول لهم : شقوا
هنا دهايزاً وأزيلوا من هناك جداراً وسدوا هنا شباكاً وافتحوا
هنا باباً ... فما أن يفعلوا ما أمر حتى يجد أن الباب بدلاً من أن
يفتح على الردهة قد فتح على المرحاض ، وأن الجدار الذي أزيل
جعل المطبخ قد أصبح في الصالون ... وهكذا وهكذا ... فيعود
بأمرهم من جديد بسد ما فتحوا وإقامة ما أزالوا ، ويتجه بهم إلى
جدار آخر يأمرهم بهدمه فيتضح أن عليه يقوم سقف إحدى الحجرات
وأبه أخذ في الانهيار ، فيبادرون إلى بنائه مرة أخرى ... كل ذلك
وهو مصر كل الإصرار على الاعتماد على نفسه وخبرته والامتناع
عن إحضار مهندس ... وكنت أتأمل ما يجري من هدم وبناء ،
وأ تألم من طول أومنا في حجرات منزوعة النوافذ ومغطاة بالبطاطين

فأقول له : لماذا لا تحضر أحد المهندسين يتولى ذلك لئلا نرتاح ؟ ...
لهذه سائراً : أنت عيب ... هل يحضر المهندسين إلا العيب ! ...
ما الذي سيصنعه المهندس أكثر من أن يرسم على ورق أزرق
بعضة خطوط منمقة بالمسطرة والبرجل ليقول لنا هنا حجرة
وهناك صالة ... ويلطش ، كذا جنية لمثل هذا الكلام الفارغ ...
ما سهوله في معروف مقدما ... ونحن أدرى جيداً بما نريد ...
والله الأمر هنا بكل بساطة أن صار البنائون والنجارون
والمهندسون مقيمون لدينا إقامة مستمرة لأن العمل لا ينتهي ولا يمكن
أن ينتهي ، فأنظروا لأنفسهم حجرة دائمة قرب باب الحديقة يقطنون
بها ... يهيمون ويسمرون ويأتون لزيارتهم فيها الأهل والأقرباء
والأصدقاء ، وكان ينزل إليهم فيها من بيتنا القهوة والشاي والغذاء
والعشاء بانتظام ، وأصبح لهم رأى فيما يطبخ ويقدم إليهم من ألوان
يرمية . فيقولون : زهقنا من الملوخية والبامية اطيخوا لنا اليوم
وكشري ، وأحياناً يقترحون : ذخلوا لنا خيار وفلفل ...
ويصفون الطريقة التي يحبونها للتخليل وصنع الطرشي ... والحديقة
حوطهم جعلوا يزرعون في جانب منها بعض الفجل والكراث والجر جير

كانوا متمتعين بهذه الحياة الهنيئة الناعمة . وكنت كلما سألتهم متى ينتهى معمل فى هذا المنزل ؟ ... وقد أصبحت الحياة فيه بالنسبة إلى وإلى أخى الأصغر لا تطاق ، من الحجرات التى بلا حيطان ، والنوافذ التى بلا زجاج ، وضجة الخيط والهبرد فوق رؤوسنا فى الطابق الجديد ... قالوا : لن ينتهى ! ... لأنها ساقية جحا ... ما ينبذ الصبح نهدمه العصر ! ... أوامر البك الكبير ! ... وفى الحق كأنى بوالدى قد أصبح أخيراً يحد متعته وهو آيته الكبرى فى حكاية البناء هذه ، ويظهر أنه اعتقد حقاً أنه لا ينقصه شئ فى شئون الهندسة والمعمار كان فى بعض الأحيان يستشير صديقه المهندس القديم (يوسف ...) إذا قابله بالمصادفة فى القاهرة .. لكن هذه المقابلة ما كانت تحدث إلا نادراً . لأن والدى كان قد أقام واستقر فى الإسكندرية رئيساً لمحكمة . فكان إذا عاد بعد حضور الجلسة ، لم يتجه إلى الغذاء وهو المتعب المنهك ، بل يتجه مباشرة إلى البنائين والنجارين ليرى ماذا صنعوا وهل نفذوا تعليماته التى شرحها لهم شرحاً وافياً فى الصباح قبل ذهابه إلى عمله ؟ ... تلك كانت عادته : يجمع البنائين والنجارين والمبيضين أمامه كل صباح ويشرح لهم ما هم صانعون فى يومهم ،

ويسمى ذلك «الدرس» الذى لا بد أن يدخل فى رؤوسهم ، موضحاً لهم ما يسميه أيضاً «جدول الأعمال» اليومى ... وكان لا يتركهم إلا بعد أن يصالهم بكل دقة : هل حفظتم الدرس ؟ ، فيجيئون جميعاً حفظناه ... فيؤكد عليهم : وجدول الأعمال مفهوم ؟ ... فيقولون كلهم : مفهوم . ولا يكتفى بذلك . فقد كان من عادته عند إصدار أى أمر أو أى تعليمات لائى شخص أن يطالبه بإعادة المطلوب بنفسه منماً لللبس أو سوء الفهم . فلما سألهم : اعيدوا على ماذا قلت ؟ . وأجابوا قلت كيت وكيت وكيت ، مضى مطمئناً . فإذا عاد من عمله قبل العصر سمعنا منه الصخب والصياح والتعنيف وقوله إن هؤلاء البنائين والمبيضين حمير ولا يفهموا حرفاً مما شرح . وينزل يديه على ما بنوه هدماً وبقدميه ركلا وهو يصيح : هدموا حالا ! ... كل هذا لا بد من هدمه ... شغل غلط فى غلط ! ... وكان يقيس الحيطان بمصاه التى يحملها دائماً فى يده . ولا يلجأ إلى القياس بالمتري فإذا عارضه أحد البنائين أو المبيضين أو النجارين وقال له : قس بالمتري يا سعادة البك ... المتري موجود ! ... ضاح به : عصى أضيظ من هذا المتري ! ... لأنى أنا ضابطها على المتري الهندسى الأصيل فى مصلحة

المصاحبة... إنما تسعون سنّي متراً بالتّمام. وبلغ به الاهتمام بالهندسة أن صار يمشي معي أحياناً في الشارع فإذا بي أراه يقف فجأة أمام أحد المنازل ويقول لي: أنتظر حتى أقيس واجهة هذا البيت... ويشعر في القياس بعصاه... فإذا سألته: لم ذلك؟... هل نحن سنشتريه؟... قال: أبدأ. مجرد معرفة... وأحياناً نسير في شارع من الشوارع نتحدث في شئون هامة وقتئذ، فإذا هو يقطع الحديث ويلتفت نحوي سائلاً: «تظن يطلع كم متر عرض هذا الشارع؟... ولا ينتظر مني جواباً. بل يرفع عصاه ويأخذ في قياس عرض الشارع. وأحمد الله في سري أن الشارع خال من المارة. ثم سألته عن حكمة ذلك؟... فقال: انت ولد عيب... الحكمة في ذلك هو أنه يجب أن نكون على علم بكل هذه الأشياء، حتى لا يأتي المجلس البلدي يوماً ويدعي أن شارعنا من الشوارع التي قرر لها عوائد كيت وكيت... وكان يحمل في جيبه ساعة معدنية رخيصة عتيقة يؤخرها دائماً عشر دقائق، فإذا سئل عن الحكمة في ذلك قال: كي يكون عندي دائماً عشر دقائق مدخرة للطوارئ... كان والدي على الرغم من كل هذه التصرفات الغريبة يملك مزبلة،

لم أرها عنه مع الأسف، لست أدري لماذا؟... ولو أني ورثتها لنفعتني كثيراً وخاصة في الفن الروائي. تلك المزية هي حرصه على التغلغل في التفاصيل الدقيقة لكل شئون الحياة. ما يهمه منها مباشرة وما لا يهمه. كانت كمية المعلومات التي جمعها عن كل شيء تثير الدهشة حقاً. فهو يعرف بالضبط كم طوبة تلزم لبناء حجرة كذا متراً في كذا متراً. وكم كيله تلزم لزراعة كذا فداناً من البرسيم أو الفطن أو الذرة. وكم رية تلزم لري كذا. فإذا سألته في القانون وإجراءاته المعقدة وفي أخلاق الناس على اختلاف مهنهم في الحياة وفي الطب والأدوية، وفي اللغة وقواعدها والشعر وبحوره والحدادة والنجارة وحتى المطارة... كل شيء كان يلم فيه بتفاصيل عجيبة دقيقة... في حين لا أستطيع أن ألم إلا بالخطوط العريضة للأشياء. في معانيها الكبرى لا في تفاصيلها. وأميل إلى التخفيف من كل ما أستطيع الاستغناء عنه. فأننا لم أحمل ساعة قط. وأحاول اقتناء طرفة من الطرف أو تحفة من التحف، ولا أتناول إلا ما كان ضرورياً صرفاً... لذلك تناسبتني التمثيلية أداة للتعبير... لأن مجالها المماني والجواهر أكثر من الرواية التي مجالها التفاصيل.

على أن والدي بمعلوماته الغزيرة في أدق تفاصيل الأشياء ما أن يقدم على التفكير في مشروع أو القيام بتنفيذه حتى تبدأ الخيبة المضحكة ... إن العلم عنده شيء والتنفيذ شيء آخر ... أو ربما كان العيب في اختيار المشروع ... لست أدري في الحقيقة أين تكمن العلة ؟ ... أهي مثلاً في التناقض وعدم التناسق بين النزعة الخيالية والنزعة العملية في شخص واحد ... إن والدي ووالدي عمليان ، ولكنهما خياليان في نفس الوقت ... يفكران في مشروع عملي بعقلية عملية وإذا بالخيال يتدخل ويجرفهما إلى وضع مضحك ... أهو ذاك ؟ ... لست أدري على التحقيق ... فلا كتف إذن بسر ما حدث بعد ذلك دون تعليق أو تفسير ...

كاد ينتهي البناء في المنزل ، وتم كل شيء بعد مضي وقت طويل ولكن كل شيء آخر ... وأخذ البناء والنجارون والمبوضون المقيمون يعدون عدتهم للرحيل وينهون عهد الاحتلال ... احتلالهم للحجرة وما جاورها من الحديقة وإذا بخاطر يخطر لأهل ... خاطر جديد : لاحظوا أن بعض منازل الجيران العالية تكشف حديقتهما من الخلف ... فقالوا : نسد عليهم ، بأن نبني حائطاً ... ثم تطورت عندهم فكرة الحائط إلى

شيء آخر وفكرة أخرى : قالوا ما دمنا صرنا إلى بناء حائط ... وهذا يكلف مالا ... فلماذا لا نتم هذا الحائط بحائط آخر أمامه ، ما علينا إلا أن نسقفه فينتج من ذلك جناحاً قائماً بذاته يصلح للسكن والتأجير ، الفكرة بدت لهم منطقية .. ومصيبة أهلي وخاصة والدي أنه يبدأ دائماً من المطلق ... وشرعوا في تنفيذ الفكرة ... وعاد الهناؤون والنجارون والمبوضون إلى حجرتهم من جديد ... وتم بناء الجناح بعد لآلئ ... فلما تم على خير ... تأملوه ملياً ثم قالوا : حبذا لو وصلناه بالمنزل الأصلي بواسطة جسر أو كوبري بينهما ، وكان منظرهما مريداً هيباً في البيوت أن تتركب فيها مثل هذه الكباري والجسور ... وتم ذلك ... فظفروا وقالوا : لماذا نترك أسفل الجناح مكشوراً لتراب الحديقة ؟ ... أليس من الضروري أن ننشئ رصيفاً يفصل بين جداره والرمل والتراب ؟ ... وتم إنشاء الرصيف ، وكان طويلاً بطول جدار الجناح الذي لا يقل عن ثلاثين متراً ... رصفوه كله ببلاط تكلف مبالغ ... وأصبح منظره وهو مرصوف في طوله وامتداده كأنه - كما قال أحد الزوار - أعد للعبة الانزلاق البانيناج ، ... وتلك أيضاً كانت من عجائبهما في البناء ...

أظن إلى هنا وكان ينبغي أن ينتهى كل شيء ، وأن ينهض
البنائون والنجارون والمبيضون إلى حزم أمتعتهم ليرحلوا ...
وهموا بالفعل ... وإذا البستاني يظهر ليطلب أسمدة للحديقة :
زكاتب عديدة من سبلة الخيل ، مما تسمد به الفاكهة
والنجيل أى الحشائش الخضراء ، ويتحدث عن ضرورة توريد
هذا السماد فى أوقات دورية بانتظام لضمان ازدهار الحديقة ... وهنا
فكر أهلى فى الأمر بالعقريّة المعهودة ! ... وجاءتهم الفكرة الذيرة :
أن يشتروا حصاناً ، لاستخدام روثه سماداً ... وبذلك يوفر ثمن
الأسمدة المطلوب توريدها ... فضلاً عن توفير نفقات المواصلات
بالعربة التى سيجرها الحصان .. معقول .. ولكن أين يقيم الحصان ؟ .
لا بد طبعاً أن يبنى له اسطبل ... وهذا طبعى ... وفى آخر الحديقة مكان
يصلح .. لكن هل يبنى الاسطبل كبقية الاسطبلات التى خلقها الله ..
كلا . لا بد من تصميم مبتكر للمهندس العقبرى ؛ الذى هو أبى ...
وفعلاً أمر ببناء اسطبل عجيب الشكل يتكون من ثلاثة طوابق :
الطابق الأعلى لسكن الخوذى ، لأنه لا بد أن يكون له محل سكن ،
والطابق الأوسط لسكن الحصان ، والطابق الأسفل للروث المتخلف

من الحصان ، ينزلق إليه بواسطة فتحة ويتجمع ويتكون منه السماد
المطلوب للحديقة ... وكان والدى مزهوا بهذه الفكرة الرائعة ...
وحث البنائين والمبيضين والنجارين على التنفيذ فوراً ... فبنوا وشيدوا
طوابق الطابق العلوى يعلو بعضها بعضاً ... وظل هذا البناء قائماً
لأعوام ، طويلاً طويلاً الأعوام ، لم يسكنه قط خوذى ولا حصان
ولا سماد . ذلك أن التفكير انتقل بمذلك بسرعة إلى فكرة أخرى :
البناء الذى كان الكبير الذى تضمن بفعل الأفكار المتلاحقة
حتى أصبح فضفاضاً على الأسرة ، بحجراته العديدة فى كل طابق ،
حلاقة كل جناح ذى الرصيف ... لماذا لا يجرى فى الصيف
للمصيفين ... رأى هو عين العقل ... وما يأتى به من إيراد يسد به
هل الأهل أفساط الرهون ... لكنهم فكروا ملياً ثم قابوا : مادامنا
قد صرنا إلى التاجير للمصيفين ، فلماذا لا ينشئ طابقاً ثالثاً ...
وكانت الفكرة هذه المرة فكرة والدى ، فما أن سافر والدى
متغيباً فى عمل بالفاخرة حتى قامت هى بالتنفيذ ... وما دام فن العمارة
بهذه الطريقة فلماذا لا تسابق والدى فى المضمار ... وفعلت أصدرت
الأوامر لفرقة البنائين والمبيضين والنجارين ... فما أن عاد والدى من

رحلته ووجد الطابق الجديد يرتفع حتى شمر هو أيضا عن ساعد
الجد ، ونشط من جديد يعطى « الدرس » ، ويحدد للجميع « جدول
الاعمال » ، ويهدم بالليل ما بنوه بالنهار ... كان صيت والدى فى
البناء قد انتشر فى المدينة بفضل ما كان يبتاعه من الطوب والبلاط
والأخشاب السويد والبغدادلى والكمرات الحديد والجير
والزيوت ... وأصبح زملاؤه فى القضاء ممن يريدون بناء منزل فى
المدينة أو دار فى الريف يأتون إليه ليتلقوا عنه الدروس ... أذكر
مستشاراً ، صار بعدها بقليل وزيراً ، كان يأتى كل عصر يجلس
فى الحديقة على كرسي يرشف القهوة التى تقدم إليه ويتطلع مبهوراً
إلى والدى وهو يصعد ويهبط على سقالات النبائين ، يقيس الجدران
بعضاه ، ويأمر وينهى وينصح ويشير وينهر ويصيح ... كان هذا
المستشار ينوى بناء منزل صغير فى أطيان له ، ولا يدري كيف
يصنع ... فلما رأى والدى يصول ويجول هكذا فى ذلك البناء
الطويل العريض جعل يهتمهم بالإعجاب والإكبار ، ثم التفت نحوى
وقال بنبرة صادقة : « أبوك أستاذ لا يجارى فى فن المعمار ... »
وأخيراً انتهت عمليات البناء . والله وحده يعلم بعد كم من الزمن .

مولى أصبح فى الجمعية من الأفكار ما يؤدى إلى إضافة شيء
أو الإنقاص من شيء ... وهنا ... بدأ أهلى يزهدون هذا البيت
ويلعنونه ... خاصة وقد فشلت فكرة التأجير ... لأن المصيفين
كأولاد بدأوا يتجهون إلى البحر ... وكان موقع البيت السيء
ما ينظر المسافرون ... وكانت تكاليف البناء المستمر قد أبهظت
أهلى ، والديون أثقلت كاهلهم ، وأسعار القطن أخذت فى
الانخفاض ... فانه التفكير كله إلى شيء واحد : التخلص
من البيت : لكن كيف يتم التخلص منه ؟ ... رأى والدى لذلك
طريقتين : إما البيع ... وإما الهدل على أطيان ... ولجأ إلى
السماسة ... وكانت حكاية السماسة لا تقل عن حكاية البنائين
والتجارين ! ... لبثت أعواماً طويلة وأنا لا أرى والدى إلا مع
السماسة فى مجيئه وذهابه ، وحله وترحاله ... فقد أصبح مستشاراً ،
ثم ترك الخدمة لبلوغه سن المعاش ... أو على الأصح لقبوله
عرض وزارة الحقاينة فى ذلك العهد ، عندما اكتشفت أنه
هو ونخبة من زملائه المستشارين القدامى قد أجادوا خضب
وصبغ شعورهم وشواربهم وجلسوا مطمئين ، فذكرتهم بأن سن

المعاش على أى حساب يريدون قد تجاوزوها بسنوات وهم لا يشعرون .. وتم الاتفاق والتراضى ... وترك والدى مع زملائه المذكورين الخدمة .. وتفرغ لشئونه الخاصة طول أعوامه الباقية ولا شغل له ولا شاغل إلا مسألة بيع البيت أو استبدال أطيانه به . وفي ذات يوم طلع بفكرة جديدة هى : زيادة إئصال البيت بالرهون ، وكانت فكرته فى ذلك عجيبية : وهى أنه كلما كان العقار مشغلا بالديون — فى زعمه — كان تهريفه أو الاستبدال به سهلاً ميسوراً ... ولم تدخل الفكرة رؤوسنا .. وجعلنا نقوله له : كيف يكون ذلك ؟ ... وهل هذا معقول ؟ ... إن العكس هو الصحيح ... فكان يجيب وكأنه يرثى لجهلنا : المعقول هو ما أقول : إذ من الذى يسعى عادة إلى تقديم أطيانه ليستبدلها ببيت ؟ ... هو ولا شك صاحب الأطيانه المرهونة ... وهو طبعاً لا يتوقع أن يقدمها إلا فى نظير بيت هو الآخر مرهون ؟ ... إذ من المغفل الذى يضحي بعقد خالى رهن ليأخذ عقاراً مرهوناً وما دامت المسألة كلها رهنا فى رهن ، فلماذا نترك نحن بيتنا لنقدمه برهنه الخفيف نظيفاً إلى من سيقدم إلينا

طيناً عملاً بالدواهى الثقيلة ١٩ ...

منطق ١ ...

ومنذ ذلك اليوم والذى لا يرى إلا فى صحبة السماسرة ... فهو إما أن يصير فى الشارع ومعه سمسار ، وإما أن يجلس على قدميه فى حديث مع سمسار ... روى لي بعضهم أنه أبصر ذات يوم والدى جالساً بأحد المقاهى إلى مائدة على الرصيف ، فى انتظار أحد السماسرة ... فكان كلما جاءه الجرسون يمسح المائدة لتلقى الطالب ، قال له : أنتظر يا أخى كأن شويته ، ... فينصرف الجرسون قائلاً : ثم يود إلى مسح المائدة ، إلى أن تضايق والدى فهو نازلاً له المائدة ، ووقف ينتظر على حافة الرصيف ... فلما عاد الجرسون لمسح المائدة ووجدها خالية تلفت ، فوجد والدى واقفاً على طرف الشارع ينظر إليه شزراً ويقول : عاوز منى حاجه هنا كان ١٩ ...

أما أنا فقد أبصرته بنفسى ذات مرة فى الشارع ، وأنا أهم بدخولى مقهى التريانون ، بالاسكندرية ، بعد توظفى ... استوقفنى وقال لي :

« انت عبيط تدخل هذا المحل ... فنجان القهوة فيه بثلاثة
قروش صاغ ... » ...

وتركني ومضى إلى قهوة بجوار البورصة اسمها « قهوة البن »
الفنجان فيها بقرش ونصف ... ومع ذلك فقد علمت
— ويا للتناقض — أنه ينفق فيها كل يوم ما يقرب من ريال
على فذاجين قهوة عديدة يشربها السماسرة الذين عرفوا وتسامعوا
عن بغيته ، فأخذوا يقدون عليه الواحد تلو الآخر يمنونه
بالآمال والأحلام عن تهريف البيت ...

على أن الفكرة قد عاشت من بعده ... فكرة التخلص من
البيت ... وتخلصنا منه فعلا بالبدل : أطيان بور لا يصل إليها
الماء ... ولكن الله شاء أن لا يحدث ذلك في حياته ... فقد
أكرمه الله بأن جعله يموت في بيته هذا ... أو على الأصح أن تخرج
جنازته من بيته ... وإن كنت أنا قد أوشكت على ارتكاب غلطة
لافتقر ... كنت في ذلك الوقت بالقاهرة مديراً لإدارة التحقيقات
بوزارة المعارف ... لحاقني نهباً مرضه ونقله إلى المستشفى
الدراسي بالإسكندرية ... فذهبت إليه توا ... فوجدته
في حالة متدهورة ، تلازمه ممرضة يهودية عجوز ، اعتادت التردد على
المنزل لإعطاء حقن ، فعهدت إليها والدتي بملازمة المريض ...
قال لي بصوت ضعيف ، وأنا انحنى عليه :
« أنا غير واثق من نفسي ... »

وهذه الكلمة منه لها دلالاتها ... فهو ما اشتكى قط في حياته
من مرض عضال ... كان شديد الثقة بصحته ، لاعتداله في

الحياة ... فهو لم يكن مسرفاً في شيء ... لا يدخن ولا يسكر ولا يسهر ... ربما في شبابه وقبل زواجه كان بالطبع يفعل شيئاً مما يفعله الشبان ، ولكن باعتدال ... حكمت لي والدتي فيما حكمت من ذكريات أيام زواجها في مبدئها أن والدي دخل عاها البيت ذات ليلة شتاء فشمت في فمه رائحة خمر ؛ فما كان منها إلا أن صرخت فيه قائلة : « انت سكران » ١٩ فأذهلته الصرخة ولم يد قط إلى هذه الفعلة كما قالت طول حياته ... أما التدخين فكذلك قد أقلع عنه ، ربما أيضاً تحت ضغط والدتي القوية ... مرة واحدة تقريباً كل عام كنت أشاهد في يده سيجاراً كبيراً يهدي إليه عقب غداء رسمي بمناسبة احتفال سنوي ... فيما عدا ذلك يمكن أن يقال فيه إنه لا يدخن ولا يسكر ولا يسهر ... ويأكل دون إفراط ، ويكثر من رياضة المشي على الأقدام ... كل شيء لديه في حدوده ... إنه الاتزان الصارم في أتم صورته .. ولولا هذا المرض العارض التيفوئيد .. أصابه من ابن ملوث كان كل طعامه بعد خلع أسنانه — لولا ذلك المرض الطاريء لعاش طويلاً كما عاش زميلاه « عبد العزيز فهمي ، وإطفي السيد » ... وإن كان هو لم يرد التقيد

بأي شيء ، فقد كان له أكثر من سن يختار منها ما يريد ... وقد جعلني مثله في تفضيل حرية الاختيار ... على أن المعروف لنا هو أنه توفي في الخامسة والستين ؛ بحساب سنة الرسمية طبقاً للتسعين الذي كان قد ارتضاه وتعامل مع الحكومة بمقتضاه ، وفي الثامنة والحسين بحساب سنة الرسمية الأخرى التي تعامل بها مع شركة « جردام » للتأمين ... ذلك أن أحد مندوبي الشركة كان قد ألهاه وألهه برأيا شروط التأمين التي تبيح الاقتراض على البوليسة بمجرد دفع أول قسط ... فلم يتوان ، وأمن في الحال على حياته ... هو « الحسين » ، لا أحدهما بمسبائة جنيه والثانية بألف جنيه ... ودفع أول قسط لسجل من الهولستين ، وبعدها لم يدفع شيئاً كثيراً ... صار يفترض على البوليسة الأولى ليسدد أقساط البوليسة الثانية ... ثم يفترض على الثانية ليسدد أقساط الأولى ... وهكذا دواليك ... وقد تشككنا بالطبع في جدية مثل هذه المدفوعات ... ولكن فوجئت ودهشت يوم ذهبت إلى الشركة بعد وفاته بالأوراق ، ففعل لي بعد فحصها : إن الأقساط جميعاً مسددة في مواعيدها بالكامل والحمد لله ... وتم بذلك صرف المبلغ جميعه ، وكان فيه إنقاذنا من

ورطة مؤكدة عندما تكالب علينا أصحاب الديون والكميالات المتأخرة لتجار الخشب والطوب والبلاط إلخ... ذهب المبلغ جميعه في سداد تلك الشجرة... تلك البالوعة التي تسمى «البليت»...

أشار لي والدي وهو على فراش المرض ، فاقتربت منه، فسهلني بصوت متداع عن والدي ، فقلت له إنها في المنزل ، وتسال عن صحته ... فقال هامساً : «سلم لي عليها ، ... والواقع أنه لم يكن ينتظر وجودها إلى جانبه بالمستشفى ... ولا كان يريد ... لقد كان دائماً يوصيني في حياته هامساً : «أمك هذه لا ينبغي اطلاعها على خبر مشير ، ولا إحضارها في موقف مشير ، ... فهي بطبيعتها المنفعلة ما كانت تطبق هذه المواقف ، وما كانت تهالك أعصابها فيها ... وأنا نفسي ما من شيء يخيفني مثل علم والدي بمرضى ... ذلك أنها تملأ الدنيا صياحا وضجيجاً وشكوى وأنبعا ، ولا تترك الطبيب يؤدي واجبه دون أن تهال عليه بالسؤال الملح والفاق الصاخب وأحياناً بالتقريع والتأنيب لتأخر ظهور الشفاء ، بل ولي أيضاً أنا المريض لتعريض نفسي لمسببات المرض ... كل ذلك في الوقت الذي يحتاج فيه الموقف إلى الهدوء والتماسك ، والعمل الصامت

[illegible]

أحياناً لعنه الله ! ...

ومات والدي ... ولم نكن وقتئذ إلى جواره ... كنت في المنزل
أنهياً للذهاب إليه في موعد الزيارة ... وإذا جرس التليفون يدق .
إنه المستشفى يعلن إلينا الخبر ... وعندما دخلت عليه حجرته ،
وجدته مسجى على الفراش وقد غطوا وجهه بالملاء البيضاء ...
وقالت لي الممرضة اليهودية : إنه كان قد أفاق لحظة وطلب منها
كوب ماء ، ثم التفت إلى الحائط وكان معلقاً عليه تمثال صغير
من الخشب للمسيح وهو مصلوب ، فأشار بأصبعه إلى تمثال المسيح
وقال لليهودية بصوته المتداعي ، محارلاً أن يحتفظ فيه بنبرة
سخريته القديمة :

« إيه رأيك ؟ ... مش اتم اللي قلتم اصلوه ؟ ... » فضحكت
اليهودية ثم استدارت تملأ له كوب الماء ... ولما عادت به إليه لتسقيه
وجدت رأسه قد انحدر من فوق الوسادة ... لقد فارق الحياة ...
لم تشأ الممرضة أن تريني وجهه ... ولكني أصررت على أن تكشف
لي الغطاء لأنامله ... وإذا بي أرى وجهها لا يمكن أن أنساه ... إنه
الصفاء والتجرد والسمو عن الأرض ... كل ذلك قد ارتسم على

وجهه هادئ بلا ملامح ... أربما كانت تلك هي ملامح الخلود ...
ولا أذكر أن ذرفت عبرة ... بل كان الموقف أجمل من أي
مظاهر عادية لقد نهدت لحظة وذهلت عن نفسي ثم أفقت
في الحال لتقدمي نواصير الساعات ... وجدت أخي زهير
خارج الحجر ، موفداً من قبل والدتي بمبلغ من المال قال إنها
دفعته به إليه لاحتياجات الدفن ثم سافرت إلى العزبة ... لأن
أصحابها لا يعمل المرفق ركبنا أنا قد احتطت للأمر فجنبت
معي بمبلغ كاف من القاهرة ... وجعلنا ندبر أمر مراسيم الدفن ...
وكنا معاً معاً لهذا الأمر أنا وأخي غاية في الحق وقلة الدراية .

خالت لنا إدارة المستشفى :

الجنان نمت تصرفكم ...

فقلنا :

احفظوه عندكم لحين الطلب ...

فقالوا :

لا يمكن الاحتفاظ به في الحجر ، لأنها سوف تخلى وتظهر
وتعد لاستقبال المرضى الجدد ، ولكن الذي سيحصل في هذه الحالة

هو أن الجثمان سينقل ويوضع على رخامة في قاعة بجوار الباب الخارجى لحين طلبكم ...

فتركناهم يفعلون ما شاءوا بالجثمان ... وانصرفنا تفكر في أمر الجنازة ... وفي الطريق قابلنا بالمصادفة أحد المعارف ... فلما علم بالخبر قال :

يجب إعلان الوفاة بسرعة وذكر لنا أن أسرع طريقة هي طبع إعلانات يد صغيرة توزع على مقاهى المدينة ، وأن هذا يمكن أن يتم في ساعتين ... فكلفناه بالمهمة ... وكان الليل قد دخل ... فأرسلنا إلى منزلنا أنا وأخى ... وكان المنزل خالياً خالياً بعد سفر والدق بالخدم فتمنا من التعب ... أو هكذا خيل إلينا ... فقد كنا في حالة من الأرق والقلق واضحة ... وإذا الباب يدق ... فنهضنا على عجل ونحن نتساءل ماذا يكون الطارق في مثل تلك الساعة من الليل ؟ ... وفتحنا وإذا به صديق والدنا المهندس

« يوسف ... » ... أدخلناه وقد خيمت على وجهه سحابة حزن ... سألتنا كيف علم بالخبر ... فقال من الاعلانات ... كان جالسا على القهوة التجارية وإذا إعلانات يد تلقى عليه وعلى الجالسين ،

فلما — كما قال — إعلانات تياترو ، وهم يرميها بعيداً ... وإذا بها إعلان وفاة اسماعيل الحكيم ، ١١١ وختم كلامه الحزين متهدداً :

« لا حول ولا قوة إلا بالله ... إنا لله وإليه راجعون ... » وطارق في الصمت لحظة ... وطرقة معه ، ثم رفع رأسه وجمال بهصره في أمام البيت سائلا عن المكان الذى يبديت فيه جثمان والده ... فلما علم أنه في المستشفى ، وفهم منا أن جنازته ستخرج من هناك مباشرة كاد الرجل يصعق ، وقال :

« ما هذا الكلام ؟ ... أليس له بيت يخرج منه ؟ ... يخرج من مستشفى ؟ ... » « كن لا بيت له ولا أهل ولا محل إقامة ؟ ... » « هذا لا يصح أبداً ... جنازته لابد أن تخرج من بيته ... » هذه هي الأصول ...

فقال له أخى : « إحنا ما نفهمش في الموت ده ! ... »

وأردفت أنا موضحة :

« كل ما خطر ببالنا هو اختصار الطريق ... والطريق أقصر من المستشفى إلى المقبرة » ... فمز الرجل رأسه أسفاً ... وسأل عما

إذا كنا قد بلغنا المحافظة ... فلما علم أننا لم نبلغ أحداً صاح قائلاً :
 ياناس هذا رجل له مقامه ومركزه ... مستشار سابق لا بد أن
 ترسل له المحافظة كم عسكري سوارى بجوار النعش ... فقلت :
 والله في الحقيقة أنا لا أعرف هذه الأشياء ... والحمد لله أنك
 حضرت في الوقت المناسب ، والبركة فيك ... فنهض هذا الصديق
 الوفي النشط من ساعته وأخطر المحافظة بالتليفون ، واتصل
 بجريدة الأهرام لنشر النعي ... ولما فرغ من كل ذلك عاد إلينا
 يقول : وأين هو المستشفى الذي تركتم فيه الفقيد ؟ .. فلما عرف
 العنوان خاطب الإسعاف بالتليفون ، ثم تركنا وأسرع بالخروج
 دون أن يلتفت إلينا ... ومضت ساعة أو ساعتان ... وإذا بنا نسمع
 بوق سيارة الإسعاف على بابنا ... فنزلت وفتحت باب الحديقة
 الكبير ... فدخل الصديق المهندس وخلفه رجال الإسعاف
 يحملون الجثمان ... وساروا به في ضوء القمر فوق ذلك الرصيف
 الطويل ، بخطى رتيبة وئيدة ذات إيقاع جايل مهيب ، على ذلك
 البساط ، في صمت الليل الرهيب .. نفيل إلى أنها جثة هاملة ،
 فوق أكتاف الأبطال ...

ووضع الجثمان في إحدى حجرات الجناح ... وكنا قد اتفقنا
 جميعاً على أن يكون تشييع الجنازة في الساعة الثالثة من بعد ظهر
 اليوم التالي ، حتى يستطيع الأهل والأقارب والمعارف الحضور
 بعد قراءة النعي في الصباح ... وبالفعل ما كاد الموعد يقترب حتى كان
 كل شيء قد تم إعداده ... ونصب صوان أمام البيت ... وجيء
 بالمفسلين ... فمسلى الصديق المهندس أن من الواجب أن أحضر
 ... وكان المنظر لا يلى ... لقد بدأت الجثة في التحلل
 فقد مضى على الوفاة نحو أربع وعشرين ساعة ... وكنا في مطلع
 الصبح ... حاول المفسلون أن يكتموا الرائحة بإطلاق البخور ...
 واجتمع في المكان بعض الأقارب والأعمام ، فرأيهم سيكون
 الهباء المر أمام المنظر ، حتى أولئك الذين كان بينهم وبين أبي قطعة
 خلال حياته .. ولكن دموعي أيا كانت جامدة كالصخر . لأنى كنت
 في واد آخر ... كنت أتأمل منظرًا عجيباً فلما يتكرر ... منظر وجه
 أعرفه وأحبه يتحول أمامي تحولات غريبة سريعة ... هذا الأنف
 الذى أعرفه لأبى قد بدأ يتخذ شكلاً آخر ... بدأ يلين كأنه قطعة
 عجين . والبطن قد انتفخ كأنه بالون يوشك أن ينفجر . معالم والدى

أخذت تتفكك أمامي ، كما يتفكك شكل سحابة في السماء ويتلاشى .
إن الفناء إذن ليس كلمة تكتب على الورق ويلو كها اللسان ! ...
كنت أتأمل كل ذلك مأخوذاً ، وقد نسيت تماماً أن الذي أتأمله
هو والد يجب أن أبكيه ...

شخص آخر أيضاً كان مثلي يراقب الأمور — ولكن من زاويته
الواقعية — محتفظاً بهدوئه : هو الصديق المهندس . . . لم يبك مع
الباكين ... ولكنه كان يصدر الأوامر والتعليمات إلى المسلمين ،
ليحترموا على الاتقان ، ويمنعهم من العجلة و الكفاية ، ... صائحاً
فيهم : « بالليفة والصابون من فضلكم ... الرغبة تكون ثقيلة ...
امسحوا الكف بالراحة ... هنا نأخذ غسيل ... الشغل لازم
ياخذ حقه ، ... وهكذا كان ذلك المهندس يراقب ويدبر كل شيء
كأنه أمام عمارة يباشر أعمال بنائها أو تزيينها ...

وخرجت الجنازة أخيراً من بيت الفقيد في يوم جمعة من شهر
مايو ١٩٣٦ على صورة من المهابة والجلال والوقار لم أكن أتوقعها .
يحف بالنعش أربعة جنود من السوارى على خيولهم المطهمة ،
وسرت أنا وأخي خلف النعش ، وسار خلفنا خلق كثير ، لم

أنتظر حضورهم ، ولا أدري من أين جاءوا ؟ ... لعلمهم من معارف
والدي أو من عارفي فضله الصامت ... هنا فقط ، وفي تلك اللحظة ،
خلبتني الدموع ... وحاولت جاهداً أن أنماسك ، حتى لا أجهش
بالحنا وأنا وسط الناس ...

وبالفنا المقبرة ... مقبرة الأسرة ... في ناحية المنارة برمل
الإسكندرية تلك المقبرة التي كان آخر من دفن فيها جدتي سالفقة
الدار . وأذكر يوم ذهبتنا لنشيع جنازتها أن فقهاء التراب ، بعد
قيامهم بمراسم التلاوة والتلقين . وكذلك الترابية ، بعد أن سورا
التربة وانتهوا من عملهم تجمعوا حول والدي يسألونه الأجر ، فأخرج
من جيبه قروشاً جعل ينفعهم هنا وهناك ، وهو يشق طريقه بين
الأيدي الممدودة المتدافعة ... فلما علا التصايح بطلب المزيد قال لهم
بنبرته الجادة الوقورة الممزوجة بالسخرية الخفية : « المرة الجايه ...
المرة الجايه ! ... » ولم يكن بالطبع يدري ولا أحد من الحاضرين
يدري أن « المرة القادمة » سيكون هو نفسه المدفون ! ...
منذ ذلك اليوم وأنا أحمداً الله أن التخلص من هذا البيت
الكبير لم يتم في حياته ... فقد انتفع به على الأقل في يوم مماته ...

من الألمان ، أخذها منى زكى عكاشة ليقرأها منذ زمن ولا أدرى
ما صنع بها ... وصح عزمى على أن أكتب إلى مصطفى ممتاز لمجرد
الحصول على أخبار .. أى أخبار عن المسرح تنقلنى ولو للحظات
إلى جو آخر ... ولم يمض يومان على رسالى حتى وصلنى الرد ...
خطاب عادى لم يستلقت نظرى منه شيء ... لكنى ما كدت
أفرض غلافه حتى طالعتنى من داخله حوالة نقود بريدية
صغراء ... فاحتاج فإبى ... كان الخطاب من الصديق مصطفى
ممتاز ... كتب فيه يقول :

... قد اتفقت نهائياً مع زكى عكاشة فى أواخر يونيو الماضى
وأضيت عقد الاتفاق ، بعد أن كادت من الاعيىه وأكاذيبه
ملا يمكن أن يتقدر بشمن ... ولولا حاجة تدفع بالمرء إلى الأناة
وسعة الصدر بما تعلم ومالا تعلم ، لمزقت الرواية وقطعت كل صلة
لى بهذا الفن المنحوس .. وقد حصل الاتفاق على ثلاثين جنيها .
هذا وبما يملك معرفته عن العقد أن فيه بنداً يقضى برد ثمن
الرواية إذا لم يقرأها قلم المطبوعات ...

كما أن فيه بنداً آخر بدفع غرامة مقدارها مائة جنيه إذا

لم أجد إذن فى الجو الذى يكتنفنى فى ذلك البيت فى ذلك
الصيف البعيد من مطلع العشرينات مشجعاً على أى نشاط ، حتى
ولا المطالعة ... كان فى عزمى أن أنتهز فرصة إجازة الصيف وأبدأ
العمل فى مسرحية عن المرأة الجديدة ، التى أخذت تخلع واليشمك ،
خصوصاً بعد مظاهرة السيدات المشهورة وتفريق البوليس لهن
وعلى وجوههن البراقع البيض ... كان حقاً من معالم ثورة ١٩١٩
اشتراك السيدات فيها لأول مرة فى تاريخ مصر ... مما كان يبشر
بقرب تحقيق أحلام قاسم أمين فى مطالبته بالسفور ... وكانت
لى أفكار معينة عن مستقبل المرأة وسفورها أردت أن أبرزها فى
مسرحية ... لكن جو بيتنا وخوفى أن يكتشف أهلى ما أفعل ،
وهبوط همى لعدم معرفتى بمصير ما سبق أن كتبت من مسرحيات .
كل ذلك أقعدنى أياماً فى حالة خمول ، فإلى جانب خاتم سليمان ،
اللى أجهل ماتم فى أمرها كنت قد كتبت بمفردى كما ذكرت تلك
المسرحية الأخرى التى أسميتها والعريس ، وهى الكوميديّة الخالية

أعطيت هذه الرواية نفسها إلى أى جوق آخر ... أما عن الميت الحى، (وهى مسرحية لأحد زملائنا فى التأليف لست أذكر الآن من كان) فقد رأيت إعلانها على الجدران ... وأما عن نفسى فيظهر أن ساشتغل مع عباس علام فى رواية «خالد بن الوليد» . وإن كنت أفضل أن أبحث لنفسى عن موضوع آخر مستقل ... هذه هى أهم الحوادث عندي قد أبلغتها إليك ... أما عن تقاعدك عن المطالعة أو عمل أى شىء فهو مالا أراه لك رأياً ... وحبذا لو أنك انتهزت فرصة صفاء الذهن وجمال ما حولك من المناظر لتعمل عملاً جدياً ممتعاً ... وعسى أن يصانى منك قريباً ما تبشرنى به من شروءك فى عمل جديد ... وتفضل بقبول فائق تحياتى ... ودمت لأخيك الخاص — ممتاز .

أعاد هذا الخطاب والحوالة الى بداخله وفيها نصيبي — إلى نفسى الأمل والرغبة فى العمل ... فطوبت حوالة البريد بكل عناية لحين الذهاب لصرفها ... ثم قمت أشمر عن ساعد الجد وأشرع فى كتابة « المرأة الجديدة » ... وحدث أنى تصفحت إحدى مجلات ذلك العهد التى تأنى بأخبار المسارح وما نعهده لوسمها القادم ، فإذا بي

أرى بين روايات الافتتاح لجوق عكاشة إعلاناً عن « العريس » وعن « خاتم سليمان » ... فما أن وجدت روايتى « العريس » يعلن عنها فى الصحف حتى أيقنت أنها قبلت ، وربما دفع بها إلى البروفات دون انتظار لتوقيع عقد ... فقد كان زكى عكاشة يعامل المؤلفين كما لو كانوا لا وجود لهم ولا شأن ... إذ ما من أحد منا سبق له أن رفض ثمناً عرض عليه أو طالب بسحب روايته ... كنا دائماً صاغرين لقبول ما يقدم إلينا ... وحسبنا أن نرى أعمالنا تظهر على المسرح .. كنا كلنا من الهواة المجاهدين ... وإذا كنا ننتظر أجراً فما ذلك لأنه يضمن أو ينفى من جوع ، بل لأنه يشعرنا على الأقل بوجودنا وبأهميةنا فى نظر أنفسنا ... وبأننا نعمل عملاً جدياً مطلوباً ... على أن هذا العمل كان قبل كل شىء يسرنا نحن ويغمر قلوبنا بالسعادة والمتعة ... ولم يكن لدينا من الغرور أو حتى من الاعتداد بالنفس ما يجعلنا نظن أننا نعمل شيئاً ما فى تاريخ المسرح المصرى .. كلمة « تاريخ » بالحرف الكبير ، وكلمة « أدب » وكلمة « فن » ، بالمعنى الخطير الذى لا كتبه الأفواه بعد ذلك زهواً أو احساساً بحمل رسالة عظمى ... كل ذلك لم يكن معروفاً

لدينا وقتئذ ... كان كل شيء يجري لدينا بسيطاً لا يحمل أكثر من معناه ولا يتجاوز أبعد من حدوده ... على أن الإنتاج المسرحي في تلك المرحلة ، شأنه شأن الإنتاج الأدبي والفكري كان أغلبه يعتمد على الترجمة والتصير والتعريب ... وكانت المسرحية الأجنبية الممصرة تسمى «اقتباساً» كما كانت الرواية الأجنبية المترجمة بتصرف كما عند المنفلوطي - تسمى «تعريباً» ، والتعريب في الأدب والتصير في المسرح ولم تكن كلمة الاقتباس دقيقة المعنى اللغوي ... لكنها كانت تعني في العرف الجاري أن المسرحية ليست تأليفاً خالصاً ... ولا ترجمة خالصة ... بل هي نقل الموضوع من جو إلى جو ، ومن شخصيات أجنبية إلى شخصيات مصرية أو شرقية ... فالأقتباس المصري كان على غرار روايات الريحاني وبديع خيرى والكسار وأمين صدقي وعباس علام وسليمان نجيب وأنا في «العريس» ... والاقتباس الشرقي كان على غرار «العشرة الطيبة» للمرحوم محمد تيمور وبعض مسرحيات إبراهيم رمزي وروايتنا «خاتم سليمان» إلخ ... والعجيب في ذلك العهد هو الشعور الطبيعي بواجب الأمانة الفنية ... فإذا روجعت إعلانات تلك الروايات لوجد تحتها كلمة «اقتباس» فلان ...

إني أحتفظ حتى الآن ببعض إعلانات اليد ذات الألوان الحمراء الخضراء والصفراء للعريس وخاتم سليمان طبع تحتها كلمة اقتباس بقلم فلان ... ما كان أحدهما يسمح لنفسه أن يكتب كلمة «تأليف» إلا إذا كان هذا قد حدث فعلاً ، أو كان ابتكاره أو جهده قد وصل إلى درجة التأليف .. أما إذا كانت الرواية مترجمة فإن اسم المؤلف الأجنبي كان يذكر في جميع الإعلانات ، مهما تكن قيمة المترجم أو المترجمين فالمنفلوطي في تعريبه للقصاص ، وعثمان جلال ومحمد مسمود للمسرحيات كانوا جميعاً يحرصون كل الحرص على إبراز اسم المؤلف الأصلي المترجم أو المترجم عنه ، فإذا لم يتيسر ذلك - لما حدث للمسرحية من تغييرات كادت تنقلها إلى شيء جديد - فكان يكتب في ذكر كلمة «اقتباس» بقلم فلان ... وحدث أن أراد عباس علام التحمل من كلمة «اقتباس» هذه التي جرى عليها العرف ، فابتدع - ولعله أول من ابتدع - تلك الكلمة الغامضة التي تحمل شتى المعاني حين تذكر بمفردها وهي كلمة : « بقلم » ... فكان يضع تحت مسرحياته كلمة « بقلم » وحدها حاذفاً كلمة « اقتباس » التي تسبقها عادة ، وبهذا يترك الأمر معلقاً يفسر كما يفسر ... هل هو تأليف بقلم أو اقتباس.

بقلم ؟ ... وأذكر أن النقاذ في ذلك العهد تذكروا بهذه الطريقة
بإحدى الأمر وأطلقوا عليه فيما بينهم اسم : « عباس علام بقلم » إلى
أن شاعت هذه الطريقة بين الكتّاب جميعاً وأصبحت شيئاً طبيعياً ...
على أن الاقتباس قد خدم المسرح المصري خدمة مشكورة في مرحلته
الأولى ... فمذمرن كتاب المسرح على أصعب ناحية في كتابة
المسرحية وهي تلوين الشخصيات ... فالموضوع المقتبس لم يكن في
حد ذاته ذا أهمية كبرى ... فشكسبير وموليير وجوته كانوا يقتبسون
الموضوعات ... إنما المهم حقاً في المسرح هو ابتكار الحوار وإعادة
خلق الشخصيات خلقاً حياً جديداً مبتكراً ... لكن المقتبس المصري
لم يكن قد وصل إلى هذه المرحلة ... لأنها في المسرح من أرقى مراحل
الابتكار ... كان كل جهده منصرفاً إلى ناحية أخرى هامة بالنسبة إلى
تكوينه الفني : هي مجرد نسج جو مصري وصبغ الشخصية الأجنبية باللون
المحلي ... فمحمد عثمان جلال في تمصير « الشيخ متلوف » مثلاً عن
قارتوف « لموليير » يحسه المشاهد ويلبسه لأول وهلة ... كانت هذه
الخطوة لابد منها على كل حال في التأليف للمسرح المصري والعربي
وإن كان من العجيب أن الاقتباس في المسرح الأوروبي والأمريكي

أصبح اليوم بدعة العصر ... فكثير من المسرحيات الهامة التي
تعرض الآن في العواصم الكبرى هي اقتباسات يقوم بها كتّاب
المسرح عن مسرحيات مشهورة ناجحة ... ففي فرنسا مثلاً قد يدهشنا
أن نرى مؤلفاً مثل سارتر ، يقوم باقتباس مسرحية « الممثل كين »
عن مسرحية المؤلف الفرنسي أيضاً « اسكندر درماس الكبير » ...
وأن أرى « جان كوكتو » يقوم باقتباس مسرحية أمريكية هي
« حربة اللذة » لتيسى ويليامز ... وإذا تتبعنا المسرح الانجليزي أو
الألماني أو الأمريكي فسنجد مثل هذا أيضاً ... على أن الاقتباس
في أوروبا وأمريكا وهو المسمى « الإعداد أو التكيف أو النص
الجديد » ينفذ عند حد التغييرات في النص لاختلاف روح الدعاية
والسخرية والتشبيهات والأمثال ونحو ذلك بين بلد وآخر ، فالأقتباس
أي الإعداد أو التكيف عندهم يقتصر على جعل النص الأصلي
ملائماً لذوق البلد المنقول إليه ، ولكنه لا يتعدى ذلك إلى تغيير
الجو أو الأسماء ... لأن الجو الأوروبي والأمريكي متشابه في الجملة ...
فالاقتباس المسرحي عندنا إذن في بعض الأحوال أعقد منه عندهم
إنه أحياناً يكاد يكون نصف تأليف خصوصاً في تلك الأيام الخوالي

التي كنا نكتب فيها قبل سفور المرأة... كان علينا في مجتمعنا الحجابي وقتئذ أن نغير في العلاقات الاجتماعية الموجودة بين الرجال والنساء في مجتمع سفوري... كنا إذا أردنا اقتباس مسرحية أجنبية يلتقي فيها رجل وامرأة وقعنا في حيص بيص... كيف نضع فوق خشبة المسرح المصري وقتئذ رجلاً وامرأة وجها لوجه لا تربطهما صلة رحم... كان من المستحيل أن نجعل زوجة فلان «تتكشف» على زوج علانية... كنا نتحايل على ذلك بشئ الطرق.. فنجعل هذه المرأة ابنة عم ذلك الرجل أو أنه هو ابن خالتها، وهكذا... كان الرجال والنساء في جميع مسرحيات ذلك العصر تجمعهم صلة القرابة... ويستطيع أن يراجع ذلك من شاء أن يراجع... كان تغير هذه العلاقات الاجتماعية حسب مقتضيات بيئتنا يقتضى تغييراً في الحوار والشخصيات وبعض مواقف المسرحية، مما يخرجها كثيراً عن الأصل، على نحو يجعل معنى «الاقتباس» عندنا مغايراً تماماً لمعناه في المسرح الأوروبي أو الأمريكي المعاصر... كان هذا العمل إذن بمثابة مدرسة لتكوين كتاب مسرحنا، وإتاحة الفرصة لمن أراد منهم أن يفرد جناحيه في المستقبل ليطير بمفرده...

كان لكل كاتب من كتاب المسرح عندنا كاتب أوروبي يفضلُه... كان عزيز عيد مثلاً مخرماً بجورج فيدو... عمل على ترجمة أهم أعماله ترجمة حرفية وأظهرها على المسرح أشخاصها الأوروبيين المبراهين بدون تغيير... أما أنا فقد كنت أعجب بكاتب آخر من كتاب الفودفيل اسمه: «ألبان فلابريج»، اقتبست عنه مسرحية «العريس»... وظل «فلابريج» هذا علماً في نظري من أعلام المسرحية الكاميكية... إلى أن سافرت فيما بعد إلى فرنسا فعملت لدهشة أنه كاتب مغرور لا مكان له بين الأسماء الضخمة التي تناق هناك في عالم الأدب... وكان قد شاخ وانزوى... ففي ذات يوم بينما كنت ألهج جريدة «الطائر» أذا بي أرى سطرين لا ثالث لهما في آخر صفحة تنعى «المسيو ألبان فلابريج»، كاتب فودفيل كتب بضع مسرحيات وتوفي عن ثمانين عاماً... فقلت في نفسي: سبحان الله!... أهذا هو فلابريج كله... وأطرقت أسفاً وترحمت عليه... ولعلّي الوحيد الذي أسف عليه بين ملايين البشر فوق هذه الأرض!... تلك كانت مرحلة المكتابة المسرحية في مصر... أما مرحلة متألف الفعلي فإنها لم تبدأ عندي على نحو جاد إلا بعد

سفرى إلى أوروبا والارتشاف من منابع الثقافة الحقيقية والتكوين الحقيقى لبنى الفكرية ...

لكن العجيب فى أمرى مع ذلك أنى فى باريس لم أوصل السير فى هذا الخط الذى اتبعته فى مصر ... خط الفكاهة والفودفيل والأوبريت والمسرحية الجماهيرية عامة ... لقد كانت كل هذه الأنواع لم تزل قائمة فى فرنسا ، فيما يسمى : مسارح «البولفار» الذى يماثل يومئذ عندنا شارع عماد الدين — بملاهيته ومسرحياته وكتابه المستوائين على ناصية النجاح أمام الجماهير الواسعة ... فإن الذى حدث هو أنى زهدت فى هذا الفن السهل ، ولم يغرنى نجاحه الهين المضمون ... وسرت فى اتجاه جديد مع ركب آخر من الكتاب والمؤلفين والمخرجين القائمين بثورة تجديد ضد الطريق الأول الناجح ... ركب «ابسن» و«بيراندللو» و«برناردشو» و«ماترلذك» ... كتاب ومؤلفون وجدوا العشر كل العشر فى الظفر بجمهور واسع وقتذاك ... لأنهم نبذوا وسائل التصفيق المعتادة ليشعروا طرقاً جديدة ... وإذا كانوا قد انتصروا بعد ذلك فبفضل جماعات من المثقفين ما وهنوا وما يأسوا من التبشير بفنهم ولم أرهم

ينتصرون فى ذلك الوقت . وقت وجودى بباريس فى تلك الفترة . بل رأيتهم فى مرحلة جهادهم المستميت ... رأيت «ابسن» يمثل فى مسرح صغير أمام جمهور قليل ولأيام معدودات ... ورأيت مسرحية «سانت جون» أو «جان دارك» أحدث مسرحيات «برناردشو» تمثل لأول مرة فى باريس أمام جمهور قليل من المشاهدين نصفهم لا يفهم لها رأساً من ذنب .. ولم يجرؤ على تقديمها فى باريس يومئذ إلا الممثل والفرج الروسى الجريح «جورج بيتوفيف» ... وقد قام فىنا قبل رفع الستار بهمان ويحذر طالباً منا الصبر قائلاً تلك الجملة التى لم أزل أذكرها : إنه فى مثل هذه المسرحيات إنما يمشى فوق جبل رفيع . أما «بيراندللو» فكان أحدثة خاصة المثقفين من أهل باريس يومئذ كذلك : كانت تعرض مسرحياته لأول مرة فتدير الرؤوس بالاستغراب والاستنكار ولا تتم مع من فى الصالة إلا الهامس : «هل فهمت شيئاً؟ ... لا ، لا ، لا أنا ! ...»

ما الذى جرفنى إلى هذه الفئة ؟ ما الذى أغرانى بهذا البلاء ؟ ما الذى أبعدنى عن أضواء النجاح السهل ؟ ... النجاح «البولفارى» الجماهيرى لست أدرى ... لعلمها نزعة عندى فى الحياة والفن ...

حقاً ، أرائى أختار أحياناً الطريق الصعب الذى يتعذر معه النجاح ، وأترك الطريق المألوف المعروف المؤدى حتماً إلى نجاح مضمون . ولعلمها أيضاً النزعة العقلية الفكرية عند والدى قد وجدت أخيراً البيئة الصالحة لظهورها فى هذه المذاهب المسرحية الجديدة القائمة على الفكر ... ربما ... ومع ذلك فإن هذا الاتجاه عندى لم يجد صعوبة فى أن يستقر داخل بيئتنا الأدبية ... فالبيئة الأدبية فى بلادنا كانت فعلاً مستعدة لتقبله . وقد أحسنت بالفعل استقباله ... فى حين أن البيئة المسرحية كانت لاتزال فى راد آخر ... وخاصة بعد عودتى من الخارج ... فقد اختفت حتى المترجمات الجيدة ، وخضع المسرح المصرى وقتئذ إلى تيارين اثنين : التيار الأضحكى والتيار الإيبكائى وكان لابد إذن من تيار ثالث هو التيار الثقافى ... لذلك أنشئت الفرقة القومية عام ١٩٣٥ وأسندت إدارتها إلى الشاعر خليل مطران ، وعهد بمسئولياتها الفنية إلى المخرج زكى طليمات ، بعد عودته من بعثته فى باريس ... فافتتحت بمسرحينى « أهل الكهف » ثم « تاجر البندقية » ترجمة « خليل مطران » ، و « أنتيجون » ترجمة الدكتور طه حسين ، و « الملك لير »

ترجمة إبراهيم رمزى إلخ ... مسرحيات هوجمت بحجة مستواها الثقافى الرفيع ... وقد كان بالفعل ظهور مثل هذه المسرحيات دفعة واحدة وعلى مسرح كبير وفى ذلك الإطار الفنى الجاد الجاف ، شيئاً من الناس وصددهم ... ونجح الهجوم فى القضاء على اتجاه الفرقة بمساعدة الأحزاب السياسية المتذبذبة ... على أن الخطأ فى حقيقة الأمر كان فى عرض مثل هذه المسرحيات العسيرة على جمهور واسع من الهداية دفعة واحدة ، وهو ما لم يحدث حتى فى أوروبا نفسها ... وكان الواجب عرضها على مسرح طليعى خاص يحدد عدد مفاهيمه ويراده من المثقفين ... ولو أن هذا حدث منذ ذلك التاريخ ... واستمر المسرح الطليعى الصغير فى ركن هادئ ، بعيداً عن العواصف ، حتى رسخ وتطور على مدى تلك الأعوام الطويلة ، وتولدت فيه بيئة مسرحية جادة مئة للتيار الثقافى الذى قصدناه ، بمؤلفيها ومخرجيها وممثليها وجمهورها لكننا اليوم فى وضع آخر ... ولما كانت مسارح الجماهير الكبيرة نفسها منذ مدة طويلة قد تطورت وصارت فى مستوى آخر ... لكننا جعلنا المعركة فى ميدان أوسع مما ينبغى ... وفى مواجهة الجماهير التى اعتاد أكثرها أنواع

المتعة السهلة الى يقدمها خصوم اقوياء اعتبروا الاتجاه الجديد تحديا لوجودهم ...

نعم ... لقد كان افتتاح الفرقة القومية فعلا بدء معركة ... من دلائل ذلك الخطاب الذي نشرته جريدة الاهرام في عددها الذي صدر بتاريخ ١٨ ديسمبر ١٩٣٥ بعنوان : « من مؤلف أهل الكهف الى مدير الفرقة القومية ، ربما كان من المفيد أن أنشره هنا ... وها هو ذا نصه :

عزيزى الأستاذ خليل مطران

أحب أن أثبت كتابة تهنئى لياك بهذا الفوز المبين
لقد شأدت رواية الاقتحاح فى ليلتها الرابعة ... وتبينت أن الأمر أجل من أن يكون أمر قصة وفرقة ... إنما هو أمر إقرار مذهب من مذاهب التمثيل لم يكن مألوفاً فى مصر والشرق العربى ... فلقد كان المعروف لجمهورنا من قبل أن المسارح تؤم للمتعة الرخيصة الزائلة ... لا للمتعة العقلية الباقية ... حتى قصص شكسبير وأمثالها ما كانوا يشاهدونها لذاتها ولحوارها ، بل لما أدخل عليها من غناء وألحان أو لما جاء فيها من مواقف مشيرة تهز أعصابهم

هون أن ينال حوارها الأدبى من أذهانهم منالاً ... إلى أن أمسك بالزمام إمام الصناعتين ، وكأنما أراد القدر أن يقيمه إمام صناعة ثالثة ، فبين للناس فى موقعة حاسمة أن التمثيل إن هو إلا فصل مجيد من كتاب الأدب العالى ... نعم ... لقد كانت موقعة ... لا بينى أنا وبين الجمهور كما قال صديقنا الدكتور طه حسين (فى جريدة الجهاد) ... ولكنها بينك انت وبين المذهب السابق الهائد للتمثيل ... وقد كان لك النصر ... وبانتصارك انتصر الفن الحقيقى ... فأهنتك مرة أخرى ... وأهنىء معاونيك وعحق فكرتك المارعين ومخرجى ومثلى الفرقة القومية الزاهرة والسلام ٩

المخلص

توفيق الحكيم

القاهرة فى ١٧ ديسمبر ١٩٣٥

فيها لا شريك لي... أما وخاتم سليمان، فكانت تدريباتها قد انتهت...
وجاءنا كامل الخلعى يسألني أنا ومصطفى ممتاز :

« هل الألحان أعجبتكم ؟ ... »

فكان ردنا الطبيعي :

« نعم أعجبتنا ، ... »

فد يده قائلا :

« يدكم بين هل البه شيش ، ا ... والله ما تركنا إلا بعد أن
قبض من مصطفى ممتاز ومنى ، يبلغ جنيه مئاة ، وأعطانا إيصالا
بذلك قال فيه الناس :

« استلمت من ... حضرتي ممتاز أفندي وتوفيق أفندي مؤلفي
رواية خاتم سليمان مائة غرض صاغا كمكافأة على حسن الألحان التي
وضعناها في روايتيها ... وهذا وصل بالاستلام ، ... »

كامل الخلعى

١١ نوفمبر ١٩٢٤

ملحن رواية خاتم سليمان

ولست أذكر لماذا هذا الإيصال ؟ ... ولا من الذي طالبه
به ؟ ... إنني لم أزل احتفظ بين أوراقى بهذا الإيصال العجيب بخط

انتهت الإجازة الصيفية وعدت إلى القاهرة حاملا مسودة
« المرأة الجديدة » وقد أتممتها ... كان شهر أكتوبر قد أقبل ،
فوجدت مسرح الأوبكبة قائما على قدم وساق ، يجرى التدريبات
على « خاتم سليمان » و « العريس » ومسرحية غنائية أخرى اسمها
« الدنيا وما فيها » للشيخ يونس القاضي المؤلف الملحق بفرقة منيرة
المهدية ... كان قد تركها واتجه إلى العكا كشة ... ولعل يونس
القاضي - وهو أيضا مؤلف الأغنية المشهورة وقتئذ :

« أرخى الستارة اللي في ربحنا أحسن جيرانك تجرحنا ، ... »
لعله الوحيد الذي لم يكن يقتبس عن مسرحية أجنبية لجهله
باللغات الأخرى ... لهذا كانت مسرحياته عبارة عن مشاهد غنائية
لا رابط بينها ولا ضابط ... لكنها كانت صالحة كأطار الموقف
الغنائى ... كان اهتمامي الخاص بالطبع متجها إلى مسرحيتي « العريس »
وقد قرر لي زكي عكاشه نظيرها ولا مرد لقراره مبلغ عشرين
جنيها فقط ، بحجة أنها خالية من الألحان ، وأن المؤلف الوحيد

يد ذلك الممثل الكبير الشهير في عصره .. ويا له من فرق بين فنان
الأمس ذاك ، وفنان اليوم الذي يقتنى العماره والسيارة ! ...
فأنتى أن أذكر أن دخام سليمان ، تلك لم تكن فى الواقع أول
مسرحة غنائية لى ... فأنى قبل أن أعرف مصطفى ممتاز ، وبعد أن
وقع فى يدى ذلك المجلد الذى اشتريته لمسرحيات والفريد دى موسيه ،
وكان عنوانه « كوميديات وأمثال » ، اخترت من بينها كوميديّة
تسمى « كارهوزين » استخرجت منها عام ١٩٢٢ مسرحية غنائية
كاملة « أوبرا » جعلتها فرعونية باسم « أمينوسا » نظمت بعضها
ثم انصرفت عنها ، فأخذها منى زميل لى فى الحقوق (محمد السعيد
خضير وكيل مجلس الدولة بالمعاش) لإتمام نظمها ... ولم أدر
ما فعل بها ... إلى أن أخبرنى يوماً أنه سلمها للعكا كشة ... وكان
فى شأنها أخذ ورد مع سيد درويش الذى قبل إنه طالب بأجر
منهم لتلحينها ... فسلموها إلى كامل الخلعى ... فكان فى شأنها أيضاً
أخذ ورد ، كما هو وارد فى إشارات كتبها كامل الخلعى بخطه على
ورقة لم تنزل موجودة عندى هى الأخرى ... وهذا نصها :

« وردت هذه الرواية ثانية إلى جوق إدارة شركة ترقية التمثيل

العربى بعد أن ألفت موسيقية نصف فصل منها ... لأننا لم نتحد
على ثمنها من جهة ... ولأن أرباب الأدوار فيها لا يؤخذون
بخناء أدوارهم إلا بعد أن يذهب أغلبه ضياعا لطول الوقت ...

أول مارس ١٩٢٣ كامل الخلعى - الموسيقى بمصر
« وردت إلى ثانية فى ١٠ ديسمبر ١٩٢٤ ... ولكن بعد أن ذهب
تلحين ما ألفتة تماما ... وسأبدأ بوضعها بإتقان وتودة ... وسأجتهد
أن تخرج للناس بعد معنى ستة شهور من تاريخه ... لأنها تحتاج
إلى تنقيح فى نظمها الشعرى وإبداع فى تأليفها الموسيقى ... »

١٠ ديسمبر ١٩٢٤ كامل الخلعى - الموسيقى بمصر
ولم أعرف ماذا تم فى أمر تلك المسرحية ... ولم أحرص على
معرفة شىء عنها ... ولم أقابل كامل الخلعى منذ ذلك اليوم الذى قبض
فيه منا مبلغ الجنيه مناصفة بينى وبين شريكى ... ولكن المسرحية
على كل حال لم تظهر ... واتجه النشاط إلى إعداد مسرحيات أخرى
فقد كانت المنافسة شديدة فى ذلك الموسم بين مختلف الفرق ... ولست
أدرى كيف كانت القاهرة وقتئذ تحتل كل تلك الفرق المسرحية
من مختلف الأنواع ، دون إعانة أو رعاية من الدولة ... كان الفنان

في ذلك العهد يعاني من شظف العيش من الانكار والاستنكار ،
ولكنه يصمد ... لأن روح الفن وجذوته الملهمة المضيئة في
أعماقه كانت تدفئه وتنير حياته الشاقة كان يكفيه تشجيع الجمهور
الواعي وكان الجمهور يقبل على المسرح لأنه لا يجد غيره . . فالسينما
المصرية الصامتة أولا ، وفيما بعد الناطقة ، لم تكن قد ظهرت
بعد . . إن السينما حقاً قد أثرت — حتى في أوروبا — على المسرح
في أول الأمر ، إلا أن الجماهير ما لبثت أن عادت إلى المسرح
بعد أن أخذ يجدد في وسائل تعبيره ليشعر الناس أن خصائصه
مختلفة عن خصائص السينما حتى وإن نطقت ...

كان من علامات ازدهار المسرح المصري في ذلك الوقت نجاح
فرقة رمسيس التي أنشئت حديثاً ، واستطاع يوسف وهبي مؤسسها
أن يفف في الدرام أمام جورج أبيض في التراجيديا ، وأن يخرج
فيها مسرحيات قيمة ممتازة مثل « غادة الكاميليا » أبرز فيها نبوغ
الممثلة الكبيرة روز اليوسف ... بل لا أدل على نهضة المسرح
وقتئذ من أن تعرض نفس المسرحية على مسرحين مختلفين في
نفس الوقت كان عزيز عيد قد انفصل بعد ذلك عن فرقة رمسيس

وأسس مع فاطمة رشدي فرقة جديدة منافسة تعرض تقريباً نفس
منوع ... فرأينا يوماً هذا المظهر الفريد في بلدنا ... كلا الفرقتين
يعرض في نفس الأسبوع نفس المسرحية أظنها « النسر الصغير »
أو « يوايوس قيصر » لست أذكر بالضبط ... المهم أن الجمهور
ما كان يضيق بذلك بل كان يرحب بهذه المنافسة الفنية الرائعة ...
ويذهب إلى الفرقتين معاً ليشاهد ويقارن ... وكان على فرقة عكاشة
كنايب أمام المنافسة أن تخصص في نوع معين . وتخصصت بالفعل
في الأوبريت والأوبرا والمسرحية المصرية واللهجة والشرقية الجوف
ومخصص الريحاني والكسار في الفرع الهزلي الاستعراضى ...
وظهرت « العريس » وكذلك « خانم سليمان » سنة ١٩٢٤ ...
وقد حرصت أول الأمر على أن أحذف اسم الأسرة من
الإعلانات ، حتى لا أستلفت نظر أهلى ... جعلت اسمي — وخاصة
في الإعلانات الأولى — هكذا :

« حميد توفيق » ... فقط ، لا غير ...

وبهذا ظل أهلى إلى وقت ما لا يشعرون بشيء مما أفعل في

هذا الجو والمجال ...

وما كنت أفرغ من تقديم « المرأة الجديدة » لفرقة عكاشه ،
حتى شرعت في كتابة مسرحية غنائية « أوبريت » هي « على بابا » ،
التي عهد بتلحينها إلى « زكريا أحمد » ، كما عهد بنظم أغانيها كما رغبت
إلى « بديع خيري » ... وذلك بعد أن أتممتها وأرسلتها إليهم من
الخارج ، ولعلني لم أرسل النظم الذي بدأت به ، لبعدي عن الملحن ...
فقد كنت سافرت إلى فرنسا بعد قيدي في جدول المحامين ... لم يكن
هناك بالطبع ما يبشر وأنا بالحقوق بأى رغبة عندي في تلك المهنة
مهنة القانون ، وأنا الذي ما كان يصاحب إلا أهل الفن . حتى أثناء
الدراسة ... كنت أوالى حضور التدريبات « البروفات » يومياً ...
وكنت أحياناً كثيرة لا أكاد أغادر خشبة المسرح . وأود لو ألصق
بها التصاقاً طول نهاري ، بضوئها القليل وضجيجها الكثير أمام
حصالة مقفلة نهاراً غارقة في الظلام ... ومع ذلك كان كل شيء
أمامي زاخراً باهراً ، حتى مشاكل أهل الفن كان يحلو لي متعابعتها
والاشتراك فيها ... كانت مثلتنا الأولى ومطربتنا في روايتنا
« خاتم سليمان » ، لا تعرف القراءة ولا الكتابة ... فعينوا لها شخصاً
يحفظها دورها ... فكنت أراها في ركن بين الكواليس ، على

« المسرح » (هكذا كانت تلفظ كلمة المسرح وقتئذ ، وهو يحفظها
الدور كلمة كلمة ، كأنها دجاجة يلقي إليها الطعام حبة حبة ...
بينما الملحن « كامل الخملعي » يجري « بروفة » على ألحان المجموعة
ويصبح على قائد الموسيقى وشيخها المتمكن وقتئذ « عبد الحميد علي » :
« ياسي عبد الحميد ... الموسيق في ناحية واللحن
في ناحية ... ويدب بينهما الخلاف ... فيلتفت إلى الخملعي قائلاً :
« اشهد الحق يا توفيق أفندي » ، ... وكثيراً ما أكون بمفردي
في بروفات الصباح ، لأن شريكي مصطفى ممتاز لا يمكن أن يزوغ
من أعمال وظيفته بوزارة الداخلية كما أستطيع أنا الزوجان من
مدرسة الحقوق ... لذلك كنت أحمل أنا وحدي نفقات
الجنون الفني للحن العبقري ، وصياحه بين لحظة وأخرى :
« اعدلوا لي دماغى بسجاره وإلا وشرفكم ابطال الشغل
النهارده » ... فكنت أبادر ، خوفاً من وقف تدريبات روايتنا ...
إلى شراء علبة سجائر من جيبي أعدها خصيصاً لمثل هذه الأزمات ...
أما روايتي « العريس » التي لم يكن بها ألحان ، فإن كل شيء فيها
كان يجري بهدوء أثناء تدريباتها ... اللهم إلا ذات يوم رأيت

مثلاً قديراً حقاً يقوم بدور حلاق في الرواية ، لم أكن أبصرته من قبل بين أفراد الفرقة . . . فلما أعجبني إتقانه لدور الحلاق ، وسألت عنه قيل لي إنه ليس بمثلاً ولكنه حلاق حقيقي ، دكانه قريب ... وقد جاءوا به استسهالاً فصحت قائلاً :

« وافرضوا يوم التمثيل كان يحلق لزبون في دكانه ، هل يترك ذقن الزبون ويحضر ليؤدي الدور ؟! ... أو افرضوا أن الفرقة سافرت بالرواية إلى الأقاليم ، هل سيغلق دكانه ويسافر معكم ؟ ... فهدأوا من ثأرتي ضاحكين قائلين :

« ساعتها يحملها ربنا ،! ... »

ولا أدري حتى اليوم أكان ذلك منهم جداً أم مزاحاً ... هكذا كان حضور تلك البروقات من أمتع لحظات حياتي في ذلك العهد ... وكانت صحبة أهل الفن هؤلاء لا تعد لها عندي صحبة ... حتى وإن لم يوجد عمل أو رواية تربطنا ... لم يكن يمضي على يوم وأنا في مصر قبل سفرى إلا وأذهب إلى جوق عكاشة ، أجالس الممثلين والملحنين ... أذكر ذات يوم أني جلست أتحدث مع الملحن المشهور « داود حسني » ، ... في مسرحية « الأوبرا » ، شمشون ودليلة ...

كانت أول أوبرا كاملة عربية ... وقد لاقى نجاحاً كبيراً ... وإنه لمن العجب حقاً أن تعرض بنجاح وقتئذ مسرحية كلها غناء دون أي كلام ... كان داود حسني يصنعي إلى حديثي وهو يترنم بلحن دور جديد للطربة « نعيمة المصرية » ... وإذا هو يلتفت نحوي فجأة ويقول :

« فذكر لنا في كلمتين من كلامك لنعيمة المصرية ... »
وطال يغري بكتابة بعض الأغاني للتمثّل ... ولم أنقبّل الفكرة بتحمس ، وإن كنت بدأت وأنا في جلستي معه أنظم مطلع أغنية لمحمد إسماعيل على نسق أغاني تلك الأيام ... ومطلعها هل ما أذكر :

« حلو النوم ينسى قوام ، والحب عنده مالوش درام ، ... »
فقال لي وهو يهز رأسه :
« حلو ... أكل ... »

ولكني لم أكل ولم استمر ... وفتر اهتمامي وانصرفت به إلى الحديث في الأوبرا ... وقد كان في حديثه وسمائه وملبسه على نقيض كامل الخلعي — كان يبدو عليه الاتزان والوقار إلى حد

يكاد يخرج من طراز أهل الفن ... كان في هيئته ومظهره أقرب إلى الموظف الكبير المحترم ... ولكن ما أن يأتي ذكر الموسيقى والفن حتى تنفجر من نفسه كل كوامن الفنان ... أخرج لي من جيبه كراسة قال لي إنها أوبرا جديدة عهد إليه بتلحينها ... تناولها من يده وانظرت فيها فإذا هي أوبرا فرعونية بعنوان « ليلة كليوباترا » تأليف « حسين فوزي » ... وأردف داود حسنى مضيفاً أنها سلمت إليه بعد أن رفض « كامل الخلعي » تلحينها ... فقد كان نظمها لا يسير على طريقة الشعر كما يفهم الخلعي الذي اعتاد القصيدة الغنائية على غرار شعر « فرح أنطون » وعلى نسق :

إن لم أصن بمهندي ويميني * ملكي فلمست إذن صلاح الدين ١١
كان نظم « ليلة كليوباترا » أحياناً قصير الأبيات جداً ، لا تعدى فيه الشطرة كلمتين ، وطويل البحر إلى حد يملأ الصفحة ... فلما رأى كامل الخلعي ذلك صاح منقجراً :

كيف يمكن تلحين ذلك ١٢ ... هذا شريط ترمواى وليست

قصيدة ١٣ ...

ولم ير كما رأى بعده داود حسنى : أن مثل هذه البحور تليح

للتلحين أنغاماً أكثر تحرراً وتمشياً مع طبيعة الأوبرا ، ويظهر أن كامل الخلعي لم يقلب بقية الصفحات ليرى التنوع في البحور والقوافي والأوزان ... ومضيت في قرائتي لمنظومات الكراسة وأنا أعجب لرفض كامل الخلعي مثل هذا العمل الجيد .. ولا شك أن سابق نهربي وخبرني الماضية في نظم الأوبرا الفرعونية « أمينوسا » ، جعلني أقدر من غيري على الحكم والتقويم الصحيح لمثل هذه الكراسة ... واستغرقت فيها وطال استغراقي ، فلم أعد أشعر بما حولى ، إلى أن نهني داود حسنى وهو يقول :

« جرى إليه ١٤ ... انت المطلوب منك تلحينها أو أنا ١٥ ... »

فرددتها إليه وأنا أوصيه بها خيراً ... وسأله عن مؤلفها الذي لم أكن سمعت باسمه ، فوعدني أن يريني إياه عندما يأتي إلى التياترو ... وحدث بالفعل أن أشار لي داود حسنى ذات يوم إلى شخص يدخل من باب التياترو وقال :

« ها هو ياسيدى المؤلف ١٦ ... » فنظرت فوجدت شاباً حليفاً يضع رباط رقبة على شكل أشوطة عريضة جداً مما يضعه المصورون والموسيقيون « الرومانتيك » ١٧ ... كان مظهره مظهر

فنان حقاً ... أقرب إلى أن يكون رساما أو موسيقاراً ! ... أما
أنا فلم يكن لي من مظهر الفنان إلا الشارب الحليق ... تلك كانت
علامة الفن وقتئذ ... إذ ما من أحد في ذلك العهد كان يحسر على
خلق شاربه إلا الفنان ... أذكر أن بعض المعارف من غير أهل
الفن قابلني ونظر في وجهي ثم صاح :

« أين شاربك ؟ ... »

فرد عليه أحد العارفين بهوايني : ... »

« عامل فنان يامسدي ! ... »

ذلك أن إطلاق الشوارب وقتلها أحيانا وتبريمها كان هو
الطبعي المألوف ... أما ذلك الذي يزيل شاربه فهو الخارج على
إجماع الناس ، المنخرط في زمرة أهل الفن والعياذ بالله ! ...
ولست أذكر أي حادث « حسين فوزي » في ذلك اليوم ...
فقد مر أحدنا بالآخر عن بعد كما تمر الأطياف البعيدة أو الظلال
المنعكسة فوق الجدران ... إلى أن تقابلنا في باريس ... ونشأت
بيننا الصداقة ...

كان الدكتور حسين فوزي متخرجاً في مدرسة الطب وينتمي

إلى العلم ... وكنت أنا متخرجاً في مدرسة الحقوق وأنتمى إلى
القانون ... وجئنا إلى باريس ... هو للتبحر في دراسة العلم ...
وأنا للتبحر في دراسة القانون ... وقد استطاع هو الجمع بين العلم
والآداب والفن ، وخاصة الموسيقى ... ولم أستطع أنا التفرغ
للقانون ، وجرت في الآداب والفن جرفاً ... حتى انتهيت إلى الانقطاع
لها كل الانقطاع ...

فقلنا أتم بها المرحلة الابتدائية، ولم تكن تعد المرحلة الثانوية،
كان عليه أن يلتحق بمدارس فرير الخرنفش بالقاهرة... وهكذا
نزل معي في ذلك المسكن... واستأجرنا خادماً يعنى بشؤوننا من
طبخ وخلافه. لم يكن أحد من أهلنا يستطيع الإقامة معنا
بالقاهرة... لا والدي ولا والدتي، لما سبق بيانه من اشتغالها
بالخدم والبناء والأطيان والرهون... عشنا بمفردنا معاً...
ولم يكن أخى مجداً كل الجد هو الآخر في دراسته... فقد اتجه
ميله إلى تعلم الرقص وحضور حفلاته، وكانت تدهشني جرأته
في ارتياد فنادق كبرى مثل الكونغرنتال الميرافس من يرافس
وليس في جميعه أكثر من خمسة قروش... فاجأته ذات مساء
وهو يقص بالمقص أحد جواربي السوداء، ويفصل منه شيئاً
كالانقشطة الفيونكة، ومضى هكذا بكل جرأة ليدخل
الكونغرنتال حيث كانت تقام حفلة راقصة كبرى بملايس
السهرة... قلت له مذعوراً: أنت تدخل هكذا هناك لترقص،
وأنا أنتفض من الرهبة لمجرد سيري أمام هذا الفندق؟...
ثم أين تقولك التي ستدخل بها هذا المسكن؟... فكان يخرج لي

عندما أصبح امتحان الليسانس على مدى شهرين، لم أكن
قد بدأت في الاستذكار الجدى... كنت منذ عامين قد غادرت
مسكن الأعمام — لأن العم المدرس كان قد شرع في الزواج —
واتخذت لنفسى مسكناً صغيراً في حي شبرا، ما لبث أن لحق بي
فيه أخى الأصغر زهير، جاء والتحق بمدارس الفرير بالخرنفش،
استعداداً للتقدم منها إلى الشهادة العامة... فهو وإن كان قد بدأ
دراسته الابتدائية في مدرسة محرم بك بالإسكندرية، إلا أنه
سرعان ما اضطر إلى تغييرها. ذلك أن مدرسة محرم بك كانت
وقتئذ — وبالعجب العجيب — هي المدرسة الابتدائية الأميرية.
الوحيدة بالإسكندرية كلها بضواحيها... ولما كان بيت الأسرة
في آخر الرمل... فقد كان عليه أن يستيقظ كل صباح في الساعة
الخامسة في برد الشتاء القارس ليصل إلى مدرسته قبيل الثامنة...
هذا الإرهاق قد اضطره إلى ترك هذه المدرسة والالتحاق
بمدرسة قريبة في حي الرمل بياكوس... كانت بالطبع مدرسة أجنبية.

من حبيبه القطعة الفضية ذات الخمسة القروش ويقول باسمها هادئاً :
المسألة في غاية البساطة ... أجلس على أى مائدة وأضع سافاً فوق
ساق وأطلب «واحد غازوزة» ثمها مع البقشيش لا يزيد على خمسة
قروش وأظل أراقص طول الليل ، ... إلى دائماً أحسد أخى
على جراته هذه ... وفي فرنسا كان حاله أعجب ... لحق بي بعد انتهائه
من المرحلة الثانوية بالخرافش ، ليدرس الزراعة في مدينة
«تولوز» ... فكان يأتى إلى زيارتي في باريس في أجازات رأس
السنة أو عيد الفصح وكنت أنا غارقاً في الكتب ... أجاهد في خضم
معركة ثقافية هضنية ، فيها لى يوماً أن أراه هبط على واستولى
في غفاتي على البذلة الجديدة الوحيدة التى جعلت أوفر وأدبر ثمها
عاماً كاملاً ، ولم أكن لبستها بعد ... ضمنت بها على نفسى ، فإذا لى
أراها عليه ... وقد جال بها جولة في الشانزلزيه وعاد مصطحباً
فتاتين فانتين ، طالباً لى أنا القيام بمهمة العشاء ، باعتباره ضيفاً
على في باريس ... فلما غمزته اضبق ذات اليد وهمست له :
«النساء سهل ، ولكن عشاءهن صعب» ...
قلل محاولاً إقناعى :

وهل أنا أخطأت إذ فكرت فيك ... طبعاً واحداً ذلك ... واختر
أنت التى تعجبك منهما ، أما أنا فالكل عندي سواء ... ومع ذلك فأخى
هذا لم يعرف الحب فى حياته ... على كثرة ما عرف من نساء ... أقصد
الحب كما كنت أفهمه ويفهمه الخيالون والعاطفيون من أهل الشعر
والفن ... فكما أنه لم يترنم قط فى حياته بيت واحد من الشعر ،
فإنه لم ياتمب قلبه مرة بهذا الذى نسميه نحن «الحب» ... وهو لم يكن
يطرق المقام طويلاً في مدينة واحدة ، على نقيضى أنا الذى لم أتحرك
من باريس ، فهو قبل «تولوز» ذهب إلى «جرينوبل» ... وبعدها
إلى «ستراسبورج» ثم إلى «إيل» ... وفى كل مدينة له مغامراته ...
وهو يكتر من التدخين إلى حد مزعج ... وأنا ما وضعت قط
فى سيجارة ... ويعنى بلباسه عناية فائقة ، وأنا ما حملت قط
فى حياتى منديلاً حريراً ... أو لبست قفازاً ولا حتى فى أشد أيام
الشتاء برداً ... لم أدا ل نفسى قط باقتناء مثل هذه الأشياء البديعة ...
وتصادف أن اجتمعنا مرة فى مصيف بأوروبا بعد أن كبر
واشتغل بالزراعة ، فلما نزلت من القطار ... وكان هو قد سبقنى
واستقبلنى على المحطة ، دهش إذ لم يجد يدي غير حقيبة واحدة

صغيرة فيها كتب ، وليس معي غير بذلة واحدة هي التي عليّ ...
ومضى بي إلى فندقه فإذا بحقائبه تمتليء بنحو ست بدل على كل
لون ، مع عديد من فاخر الأحذية ومجموعة من أربطة العنق
الحريرية الثمينة ... إنه كان دائماً يتنقل هكذا بهذه الملابس كلها ...
ومنذ كان طالباً في فرنسا برع في لعبة البوكر ، . . . وكانت
في باريس وقتئذ دجلة ، من عتاة المصريين شبه المنفيين اجتمعوا
في شبه عصابة قمار لاصطياد أغنياء مصر القادمين للفسحة . . .
كنا نعرف القهوة التي يجتمعون فيها ، أنا وغيري من الزملاء
الجادين فهرب منهم بجلدنا . . . وإذا بأخي هذا قد هبط عليهم
— ولست أدري كيف — ففرحوا به واستعدوا لاصطياد
ما معه . . . فلم تمض ساعة حتى كان هو الذي اصطاد ما معهم
وتركهم كالمجانين . . . ولقد برع قديماً في السباحة أيضاً
— وأنا لم أعرف العوم في حياتي — حتى كاد يصبح ذات يوم
من أبطال السباحة لولا إصابته بالربو ... ثم حذق الرماية وكاد
يصبح من أرائل أبطالها في نادي الصيد ، لولا المرض الذي
أقعده ... هذا هو شقيق الوحيد ، كنت أتمنى أن تكون لي مثل

هذه الطبيعة المنطلقة ... على أنه فوق هذا حاد الملاحظة ، سريع
الفهم ، نافذ الذكاء ... ألمس ذلك من آرائه في كل ما يتصل بميدان
عمله المباشر : الزراعة مثلاً أو جماعات الناس المختلفة التي خالطها
أو صادفها في حياته ... إنه هو الذي كان يجب أن يكون الفنان ...
وأنا المزارع . . . ولو تم ذلك لظفر الأدب والفن في بلادنا
بإبداع حقيقي ... ومع ذلك لم تجمع بيننا ظروف الحياة كثيراً ...
فنحن لا نراسل ولا نتزاور ... حتى في أشد حالات المرض ...
ولا يؤثر ذلك في حب أحدهما للآخر ... أطول فترة عشناها معاً
كانت تلك التي أنحدث عنها ... أيام ذلك المسكن الصغير في حي
شبرا ... أي عندما كنا في مطلع الشباب الأول هو يحضر للتقدم
إلى الشهادة الثانوية العامة ، وأنا أحضر لشهادة ليسانس الحقوق ...
وكان كل منا في شأنه ... ولست أذكر كيف ومتى كان يراجع
دروسه ؟ . . . في أي حلبة رقص ؟ . . . فقد كنت في أواخر
العام لا أعرف لي رأساً من قدم ... كان الشك قد بدأ يساورني ...
هل أستطيع حقاً الحصول على الليسانس ذلك العام ؟ . . .
وقد أضعت أكثر شهوره بين المسارح والفنانين والملاحين !! ...

مادام هذا الزميل ساهراً ما يزال ... فكيف أنام أنا المحتاج
أكثر منه إلى ساعة واحدة ... لم يكن « حلى بهجت بدوى » في
الحق محتاجاً إلى كل ذلك العناء في آخر العام ... فقد كان منقطعاً
للدراصة من البداية ، لا يشغله شاغل ... ما كانت تربطنا بعد أى
صداقة ... كانت مجرد معرفة ، نبعت من مجرد لقاء قديم عابر في
المرحلة الثانوية بالمدرسة العباسية بالإسكندرية ... كان فيما أذكر
يستلقت النظر في المدرسة بصغر سنه ؛ فلم يكن من زمرتنا
ولم يكن هناك كذلك من شئ يؤكد الصلة بيننا في مدرسة
الحقوق ... على العكس ... كانت الحرية التي وجدناها في المدارس
العليا ، يفكك الروابط بين الطلاب ... وخاصة الحرية الى منحها
لنفسى في الحضور والغياب ، لمشاغل الفن ... وما كانت الصداقات
والشمل ، تتكون هناك إلا على أساس التقارب في السن والطول
والضخامة والميول والنزعات والمشارب ... كل ما كنت أعرفه
عنه وقتئذ هو ما يعرفه عنه الجميع من أنه أحد الطلاب الخمسة
الأوائل المبرزين النابغين المحافظين على ترتيب الأولوية في كل
الامتحانات النقل السابقة ... وكنت أتطلع إليه من بعد مع رفاقه الخمسة

الأوائل دائماً. وكأني أتطلع إلى ظواهر خارقة ، ولسان حالى يقول :
« لو تكرموا علينا بعشر مائى رؤوسهم لننجح به ؟ » لم يكن
قط « حلى بهجت بدوى » هو السليد الصغير العادى الذى صادفته
في المدرسة الثانوية ... ذلك الذى كنت أراه العصر بعد انتهاء
الحصص ، يتلصقاً في العودة إلى منزله ، لينضم إلى فريق الكرة
« الشراب » ... في أرض فضاء خارج المدرسة ... لم أكن بطبعى
مبالاً إلى أى نوع من أنواع الألعاب ... اللهم إلا لعبة « محولجى
السيافور » ، وأنا غلام ، عند ما كنا نقطن في دمنهور على شريط
السكة الحديد ... كانت نافذة حجرة مجاورة لكشك الإشارات ...
فوضعت عليها من الخارج قطعة خشب طليها بلون « السيافور » .
فكنت إذا رأيت « السيافور » ، الحقيقى مفتوحاً مارور القطار
فتحت أنا أيضاً سيافورى ... وتنبيه ذات مرة عامل الإشارات
« الحقيقى » ، إلى عملى فضحك ... وصار قبل أن يفتح السكة للقطارات
ينظر أولاً إلى نافذتى وينمز لي بعينه أن « خذ بالك القطار ظهر ،
افتح له السكة » ، ... تلك هى اللعبة التى كانت تروق لي في صباى
وتملؤنى متعة وسروراً وزهواً أن أتصور نفسى افتح السكة

للقطار... أما ألعاب الجرى المألوفة في الصغر ، فلم تكن مما يروق
لى كثيرآ .. ويظهر أن أهلى لاحظوا ذلك... فقد دهشوا إذ رأوني
ذات عصر أجرى فى الشارع بخلاف عادتي لأعبا مع بعض صبية
الجيران ، فلما تحروا الأمر اتضح لهم أنى إنما أجايرهم توسلا إلى
غرض آخر : هو أن أظفر بدعوة منهم إلى حفل فرح أقيم عندهم
تلقى فيه الأغانى والفصول الفكاهية من بعض المطربين والمشخصين .
كذلك لم أتعاق بألعاب التسلية مثل الطاولة : ولقد حاول والدى
نفسه عندما كبرت قليلا أن يعلننى الطاولة التى كان يعرفها كما يعرف
كل شئ لمجرد المعرفة — فى أحد المقاهى ، لقتل الوقت ، وقد
كنت معه مرة وهو فى انتظار أحد السماسرة ، ولكن هذه اللعبة
أيضا لم تدخل عقلى ولا مزاجى ... بل حتى أصـدقائى فيما بعد
لم يستطع تحمسهم للطاولة أن يغرينى ... كنت أتركهم هم يلعبون
وأزعم لهم أنى أراقبهم ، وأطلق العنان لأشطح مفكرا فى أشياء
أخرى ... وأعل خصلة « السرجان » جاءتنى من هنا ... وكنت
أحيانا أحاول أنا إغراءهم بترك الطاولة والدخول فى مباراة
أجدى فى صورة جدل حول موضوع من الموضوعات ... وخيل

إلى بعد ذلك أنى كدت أتعلق بلعبة « البلياردو » لأن من الممكن
أداؤها والعقل يفكر فى شئ آخر ... وهذا خطأ ... فكل لعبة
يجب أن تمارس لذاتها بكل الجوارح ، وفشلت فيها أيضا ... وهذا
من أكبر أخطاء حياتى أن لا أتعلق بلعبة ... تركت حياتى جافة
مجردة ...

أما الألعاب الرياضية أو البدنية فى المدارس ، فما كانت أيضا
لمتهوينى ... لذلك كنت أجتاز هذا الفريق المتحمس لكرة
« الشراب » عند انصرافى من المدرسة دون أن أتوقف لألقى عليهم
نظرة ... إلى أن كان ذات عصر ، وجدت « حلى بهجت بدوى »
قد احتضر طريقى وقال لى :

تعال قف حارساً للمرمى فى فريقنا ، لأنه ينقصنا واحد... فلما
اعتذرت بقولى إنى لا أعرف هذه اللعبة ، قال إنها من أسهل
الأمور ، وما على إلا أن أقف بين حجرين يمثلان المرمى ، وأمنع
الكرة من الدخول بينهما ... وقبل أن أجيب كان قد أحاط بى
هو وفريقه ووضعونى وضعا وسط مرماهم ... ودار اللاعب أمامى
حامى الوطيس ، وتلاطم موج المتزاحمين من الفريقين ، وجعلوا

يتدافعون بالمناكب ويتقاذفون الكرة بالأقدام ، واحتدم اللعب
وعلا اللجب واشتد الضغط على المرمى الذى أنا حارسه... وانتشر
التراب فوسخ الثياب... وثار الغبار فأعمى الأبصار وملا الخياشيم ،
فتركت المرمى إلى من ينعاها ، ورحت أسب مثل هذه اللعبة
السهيفة ... وأسخر من لاعبيها ... وما من واحد منهم قد فطن
فى زحمة الهجمة والمعمعة إلى أن المرمى خال غار لا حارس له
إلا الله ! ... على أن عين حلى بهجت لم تلبث أن لمحتنى فاقرب
منى وقال برفق :

أرجوك المسأله جسد وتهمنا ... ولا يصح أن تنهزم أمام
الفريق الآخر وأنت حارس مرمانا ...
فأثر قوله فى نفسى ونهضت قائلاً له :
« اطمئن ... لن تنهزم أبداً ، ولن تدخل الكرة
مرمانا أبداً ، ... »

ورقفت فعلاً بين حجرى المرمى ... ولكنى أمام كل هجمة
من الفريق الآخر كنت أرحح الحجرين بعيداً دون أن
يشعروا ... وأصبح بذلك مرمانا متنقلاً متحركاً لا يمكن أن تصل

إليه كرة الخصوم أبداً ... تلك هى الصورة الأولى لصلى بحلى
بهجت بدوى ... أما صداقتنا الحقيقية فلم تنشأ إلا فى فرنسا ...
وفد علينا — بعد شهور من سفرى إليها — فى بعثة تضم مصطفى
القللى ، الذى أصبح فيما بعد عميداً لكلية الحقوق وأحد المشرعين
لقانوننا الجنائى وأحد محامينا الكبار ، وعبد الحكيم الرفاعى الذى
أصبح فيما بعد محافظاً للبنك الأهلى ثم للبنك المركزى ... وسرعان
ما ربطت الصداقة بين ثلاثة منا بنوع خاص ، حتى أصبحنا
فى باريس نسمى بالثالث الذى لا تتفصل أضلاعه فى نظر الزملاء
من مبعوثى الحقوق الذين عاصرونا ولحقوا بنا ... كان هذا الثالث
مكوناً من : حلى بهجت بدوى ، ومصطفى القللى ، ومنى ... ذلك أن
ما كان يربطنا نحن الثلاثة من بين طلاب الدكتوراه فى الحقوق
هو ذلك الشئ الزائد على القانون ، الذى كان يميز حلى بدوى
ومصطفى القللى : حب الثقافة والرغبة فى المعرفة ... كان القللى
شاعراً قديماً ، له قصائد رصينة أيام ثورة ١٩١٩ لكن هذا لم يمنعه
من التفوق والتخرج من بين أوائل الليسانس ... وأصبح بذلك
له الحق أن يوفد فى بعثة ... وعند ذاك قال قائل :

« إنه شاعر ، ... »

وكانت هذه كافية وقتئذ لتضيق عليه البعثة لو لا عون من الله ...
من يومها والقللى يخشى هذا الوصف ... ويكب على القانون يتبحر
فيه ... على أن الطبيعة الداخلية لا تقهر ... فهو وإن كان قد قطع
كل صلة له بقرض الشعر إلا أن تذوقه لكل ما هو فن وثقافة
ظل حياً ينمو ويتطور ... أما حلى بهجت بدوى فهو شخصية
عجيبة ... لم نعرف عنه اتجاهها فنياً بعينه ، ولم يمارس بنفسه نوعاً
من أنواع الفنون ... ولكنه عقلية ممتازة فتحت نوافذها على كل
ألوان المعرفة ، وقلب حساس بكل أنواع الفنون ... بينما نراه غارقاً
في أشد فروع القانون جفافاً — وهو القانون المدنى — ميدان تخصصه ،
نراه إذا جاء ذكر الشعر أو الموسيقى أو الأدب القصصى أو المسرحى
يتحدث فيه ويعيش بوجدانه كما لو كان ميدان اختصاصه أو كانت
معلقة عليه أنفاسه ، فإذا خرجنا من هذا إلى علوم الاقتصاد أو
السياسة أو الحوادث العامة فى باريس أو الأخبار والأحوال
الدولية فى العالم كانت مشاركته فى كل ذلك مشاركة الباحث
المتعمق ... إنه كان التكامل العقلى والعاطفى على أتم تكوينه

فى إنسان ... وما كان يخفى عنى خطوط المستقبل كما رسمها لنفسه ...
لقد كان فى حسابه أن يكون وزيراً ... ولم تكن هذه الكلمة عنده
من مطامع الشباب الرخيصة ... بل كان لها معنى عميق ... الوزير
أو رجل الدولة فى نظره يجب أن يكون مكوناً تكويناً محيطاً ، لأنه
سيحيط يوماً بكل مستقبل أمة ... فى نواحيها المختلفة ... ومع ذلك ،
وبالرغم من هذا التخطيط لمستقبله فإنه لم يسع فيما بعد كما سعى بعض
زملائنا إلى كرسى الوزارة ، من أسهل وأبخر الطرق ، بالالتجاء
إلى الأحزاب أو الاتصال بالشخصيات السياسية ... على العكس ...
لقد ظل متعففاً أنوفاً بعيداً عن الصغار السياسى والدجل الحزبى ، عاكفاً
على عمله كأستاذ فى الجامعة حيث وضع كتاباً فى القانون المدنى ليس
كسائر الكتب التى ألفت فيه فقد كانت شخصيته المتفردة المحيطة تجعل له
نظرة خاصة حتى فى القانون ... كانت له فكرة تراوده دائماً من زمن
ويقاتلنى بها كامل من آماله ، وهو أن يؤلف فى القانون المدنى شيئاً على
نمط خاص ... لاحظته هو وعجب أن رجال القانون جميعاً لم يلتفتوا
إليه ... ووضع كتابه ونال عليه جائزة الدولة الكبرى ... ثم قلب فى
مختلف المناصب الكبيرة والوزارة التى تطلع إليها فى شبابه فى متناول

اليوم ، ولا يتقدم إليها ... إلى أن طلبوه وزيراً للبلدية قبل ثورة ١٩٥٢
فرفض ... وألحوا عليه فأصر على الرفض ... ذلك أنه لم يكن يريد الوزارة
لمجرد أن يكون وزيراً ... لم يقبل إلا فيما بعد عندما أحس أنه يستطيع
أن يفعل شيئاً ... وبالفعل صنع أشياء ... عندما كان وزيراً للتجارة
وللاقتصاد ... إلى أن احتيج إليه في منصب أكبر فكان هو أول
رئيس لهيئة قناة السويس عند تأميمها ... حتى اختاره الله إلى
جواره والوطن لم يزل في حاجة إليه ... إلى كل ما ذكرته ذكرت معه
مراحل العمر كلها : من عهد الكرة والشراب ، إلى عهد باريس
والشباب ، إلى عهد الرجولة والوظيفة ... عندما كان أستاذاً بكلية
الحقوق ، وكنت أنا مديراً للتحقيقات بوزارة المعارف اتفقنا على
السكن معاً في شقة بالجيزة ... كان يعرف عن العزوف عن مشاغل
السكن وإدارة شئونه . فكان يتولى ذلك عنى ، عن طيب خاطر ،
كل ما كان يخشاه منى ، كما كان يقول ، هو أن يستيقظ ذات صباح
فيجدنى قد حملت حقائبي وفررت ، تاركاً له خطاباً أعلنه فيه بسأى
وضجرى من هذه الحياة وعودتى إلى الفندق ، فيتحمل هو وحده
أعباء عقد إيجار ذلك السكن الكبير ... أدخل هذه الفكرة في رأسه

يوماً صديقنا الدكتور حسين فوزى ، عندما كان يأتى إلى زيارتنا من
الاسكندرية حيث كان يدير وقتئذ معهد الأحياء المائية ... كان
يذكره بما كنت أفعله في باريس ... من التنقل المفاجئ من فندق
إلى فندق ، ومن حى إلى حى ، ومن «أسرة» إلى «نزل» ... ويروى له
ما حدث معه يوم رجوته أن ينقل لى فى الخفاء أمتعتى وعفشى
من منزل أسرة كنت أقطن بينها فى «كوربفوا» ... فذهب صديقى
فوزى وهو يتعثر خجلاً ، فقابلته ربة الأسرة ... تلك التى كانت
تصاحبه على البيانو وهو يعزف على الكمنجة ، كلها زارنى ...
صحبته جاء للعزف والتطريب ، وهو ما جاء إلّا للعزف ،
والنهرى ... كان «حلى» يسمع من «فوزى» أمثال هذه
الحكايات فيلعب الفأر فى عيه ويلتفت إلى قائلها فى ابتسامته الوديعه :
«إياك تعملها معى ؟ ...»

فكنت أطمئنه وأزيل مخاوفه ... وبالفعل لم «أعملها»
ولم نفرض شركة السكن إلا عندما شرع هو فى الزواج ... عندئذ
فقط عدت إلى سكنى الفنادق ، وأنا أسأله عما يجب أن أهدى إليه
بمناسبة زواجه ، فإذا به لدهشنى وعجبنى يطلب شيئاً لا يخطر على

البال ، لكنه ، على كل حال لا يمكن أن يخطر إلا على بال من كانت له ثقافة وحلى بهجت بدوى ، وشخصيته ... قال :
المهدية الوحيدة التي أطلبها هي : المسودة الخطية الأولى
لكتابك « عودة الروح » ...

وعندما مرض مرضه الطويل لم أكن أنا مع ذلك من بين عواده العديدين ... كان يعرف شعوري على البعد ، ويعرف طبعي السيء ويغفره لي . والمرة الواحدة التي لقيته فيها قبيل وفاته استقبلاني بابتسامته الودودة الصافية ... وعندما تدفقت الخطب والكلمات في حفلة تأبينه لم أكتب عنه كلمة ... ولكنني واثق أنه كان في قبره يحمل لي نفس الود ونفس الحب ... لأنه كان عظيماً ...

رحمة الله عليك أيها الصديق الوفي ! ... يامن كان لشبهك ... لمجرد شبهك خلف النافذة أكبر حافظ لي على الجلد والمذاكرة ... وإذا كنت قد نلت ليسانس الحقوق في ذلك العام الميتوس منه ، فإن الفضل كان لظلك المائل عن بعد رمزاً للإرادة والإصرار ! ...

كان لوجود اسمي بين الحاصلين على ليسانس الحقوق أكبر مفاجأة لي ... فقد ذهبت بعد الامتحان مباشرة إلى الاسكندرية بين الأسرة في ذلك المنزل الكبير ، وأنا أبعد الناس عن التفكير في النجاح ... كان كل تفكيري متجهاً إلى إتمام تلك الأوبريت أو الأوبرا كوميك ، « على بابا » كما كنت أسميها ... حتى تكون معدة للوسم المقبل ... وفجأة دق جرس التليفون ... فلم ألق إليه بالا ... ولكن أذني سمعت صبيحة فرح من والدتي وهي تردد في التليفون قائلة :

« الله يبارك فيكم ! ... الله يبارك فيكم ! ... » .

فقلت لنفسي بغير اكتراث :

« يباركون لمن ياترى ! » ...

ولم ألبث أن رأيت كل من في البيت يدخل ويصيح بي :

« مبروك » ...

فقلت :

لماذا؟...

فقالوا :

« نجحت في الليسانس ... »

فلم أصدق ... إلى أن جاءوا بالصحف ... وطالعت فيها العبارة
المألوفة وقتئذ : نجح في شهادة الليسانس الأفندية الآتية أسماؤهم :
وبحثت عن اسمي بسرعة فوجدته قبل الأخير باسمين ... فحمدت الله
أن قد وجد اثنان أسوأ مني !! ... وكان فرحي عظيما ، فحسبي أني
نجحت وملت الليسانس والسلام ... ولكنني بعد الفرحنة جعلت
أتأمل المستقبل بعين الحيرة والتساؤل ... الآن ماذا أنا صانع ؟ ...
المحامية ؟ ... النيابة ؟ ... لم تكن ميولي متجهة في هذا الطريق ...
لم أفكر طويلا ... فقد شغلت عن التفكير بمجيء جوقة عكاشة
إلى الإسكندرية ذلك الصيف لتمثل رواياتها — ومن بينها رواياتي —
على مسرح كان يسمى « تيانرو زيزينيا » وانغمرت بالطبع وسط
الممثلين والمطربين . كنت ليل نهار بينهم ، وكانوا قد نزلوا في فندق
متواضع بشارع البورصة ، مملوء بحانات البيرة ... كان الممثل
الكوميدي الأول المرحوم محمد بهجت لا يحلو له إلا النزول من

فندقه إلى قاعة الطريق يجلس إلى إحدى موائد الحانة على الرصيف
بالجلباب والقبقاب ... وكان مدير الفرقة زكي عكاشة قد نزل في
فندق آخر فاخر يليق بمقامه ، مكتفياً بالمرور كل صباح في عربة
لا ينزل منها ؛ بل يشرف من عل بكل تعاظم على أعضاء فرقته .. فما
أن كان يرى محمد بهجت في جلسته تلك حتى يقول له بازدرأ :
« جلاليه وقبقاب في الشارع العمومي ... الكوميديان الكبير
بتاعنا ١٤ ... »

فيرد عليه محمد بهجت رحمه الله بقوله :

« وانا كنت طلعت بالقبقاب والجلالية في دور السلطان
صلاح الدين أوريكاردو قلب الأسد ١٤ ... أنا هنا في الشارع
سلطان زمانى ١٤ ... بقبقاب ، بصرمة قديمة ... أنا حر ١ ... »
فيترفع زكي عكاشة عن الرد ويصعرخده ويكثني بأن يأمر
الحوذي بصلف وعجرفة :

« سوق يا اسطى ١ ... »

فما أن تباعد العربة حتى يهصق محمد بهجت في أثره بصقة كبيرة
وهو يقول :

« رح ... داهيه تسمك في تقل دمك ... »

ثم يلتفت نحوي وأنا جالس إلى المائدة بجواره :

« مش كده في محله ١٩ ، فأوافق على كل تصرفاته راضياً ضاحكاً .

لست أدري من الذي أبلغ أهلي بانغماسي في وسط « المشخصاتيه » .

أهو أحد المعارف أو الأقارب لمخني بينهم ١٩ ... كل ما أعلم هو شعور

داخلي بأنهم بدأوا يرتابون في أمري . وفي ذات يوم جابهني والدي

بأمر مستقبلي ... وقال لي إن التحاق بالنيابة العمومية متعذر الآن

لأنه لا يلتحق بها غير أوائل الدفعة وأنا من الأواخر . فلامفرأذن

من اشتغالي بالمحاماة فترة ، وإنه جادر بالفعل وأدرج اسمي في جدول

المحامين المشتغين ودفع عني الرسم والاشتراك ، واختار لي المكتب

الذي أعمل به . فلما رأى عدم تحمسي وانصرافي ، صارخني بقوله :

« تعال قل لي ... انت غرضك تشتغل بالتشخيص ؟ ... »

فقلت له ملطفاً العبارة :

« أنا أحب الأدب ، وأريد الاشتغال بالأدب ... »

فقال بامهجة خوف ونصح وتحذير :

« انت تريد أن تفعل كما فعل لطفى ؟ ... »

فسأله :

« لطفى من ؟ ... » فقال :

« لطفى السيد ، كان زميلنا في القضاء فجعل يقول الأدب

الأدب إلى أن ترك القضاء واشتغل جرنالجي ، ولم تنفعه شغلة

الجراند فعاد إلى الوظيفة ... وساعده الزملاء القدماء من أمثال

ثروت باشا وصدق باشا فوضعه في النهاية في مخزن اسمه

دار الكتب ... ، — شاء القدر الساخر فيما بعد أن أترك

الوظيفة أنا أيضاً بعد وفاة والدي لأشتغل في الصحافة « جرنالجي » ، ثم

أعود إلى الوظيفة في نفس هذا « المخزن » المسمى دار الكتب ...

ومن عاب ابتلي ..

والواقع أن الأدب أو الاشتغال به وحده لم يكن من الأمور

التي تؤخذ على سبيل الجد في مجتمع لم يكن يمنع الاحترام والجاه

والمال إلا للباشوات أو لأصحاب السلطان والمناصب في الحكم

والإدارة والقضاء ... ولولا أن « شوقي » الشاعر كان له منصب

هام في السراي ، وكانت له ثروة لنظر إليه المجتمع وقتئذ نظره

إلى زميله حافظ إبراهيم : لا أكثر من صعلوك أو مهرج في أعين

كبار رجال الدولة ، يتمطفون عليه بوظيفة يلقون بها إليه في من
وترفع ... لم تكن هنالك أمثلة مشجعة في الأدب ... كان الأعلام
المتربعون على عرش الشعر والنثر ، هم : شوقي ، وحافظ ، والمنفلوطي .
على أن اهتمامي الخاص بالمسرح جعلني أكثر التفاتاً إلى محيط كتابه
الأعلام من أمثال محمد مسعود ومحمد تيمور ولطفي جمعه وإبراهيم
رمزي ... لم أعرف وشوقي ، شخصياً إلا فيما بعد ... عندما اتجه إلى
المسرح ، وتالياً لتأليف « مصرع كايوبانرا » ... كنت وقتذاك في
باريس ... وجاءها هو ذات صيف ... وتلاقينا في مقهى « داركور »
الذي كنت أتردد عليه بالحي اللاتيني ... قال لي إنه كان يحضر
تدريبات كثيرة لمسرحيات جوق عكاشه ، ومن بينها فيما يظن
مسرحية لي ، إذ قيل له يومئذ إن مؤلفها غائب في باريس ...
وسألني قائمة بكل المسرحيات الفرنسية التي تدارت كايوبانرا
ليطلع عليها ...

أما قبل سفرى فكنت أسمع من حين إلى حين أن شوقي بك الشاعر
الكبير ضجر من هجوم بعض شباب الأدباء والشعراء عليه وعلى شعره ...
كما بلغ مسمي أن شارباً أزهرياً مكفوفاً نابهاً يهاجم بمقالاته

العنيفة علماء الأزهر المتجمدين — دون أن يخطر لي على بال
أنه بعد نحو عشرة أعوام ستنشأ بيني وبين هذا الأزهرى النابغة
صداقة ... وسنمرح معاً على جبال الآب ونسجل معاً مرحناً
في كتاب — لكن كل ذلك لم يكن صداه وقتئذ يتعدى بيته ،
ولم يكن قد اتخذ الدوى الذي يصل إلى كل الآذان ، ولا اتخذ
من الإتساع والأهمية ماسمى فيما بعد بمدرسة التجديد ... على أن
هذا كله قد تغير بعد أعوام قلائل تغيراً سريعاً مذهلاً ...
إذ ما كدت أعود من فرنسا حتى وجدت أوضاع مصر السياسية
في تطورها السريع ، وما نتج عنه من برلمانات وأحزاب تنفق
الأموال بغير حساب على السنة حالها من الصحف والكتتاب ،
قد رفعت من شأن الصحافة وكتابها ، في الوقت الذي تدهور فيه
المسرح وكتابته ... عدت فلم أجد جوقه عكاشه ... لقد أفلست
واختفت ... ومسرح رمسيس أخذ في الترنح والاحتضار ...
وأسماء : محمد مسعود وعباس علام ولطفي جمعه وإبراهيم رمزي
وغيرهم ... قد انطفأت بانطفاء أضواء المسرح ... ولمعت أسماء
جديدة مع النماذج نجم الصحافة ... برزت أسماء طه حسين وهيك

والعقاد والمازنى ... لم تعد هذه الاسماء تذكر فامضة باهتة ضائعة بين الاضواء الكبيرة التي كانت تسيطر على سماء الشعر والادب والمسرح قبل مغادرتى مصر ، بل هي الآن بدورها مضينة واضحة بارزة في أفق السياسة ، ثم الادب ... ذلك أن أولئك الشباب بدأوا فى الصحف السياسية ونموا بنموها ، ولما كانوا يحكم تكوينهم وهيوهم شعراء وأدباء فقد انتهزوا الفرصة وجعلوا يقررون لشعرهم وأدبهم مكاناً ... كانوا يكتبون المقال السياسى المطلوب ، ثم يحتفظون لهوايتهم الأدبية بصفحة أو بضعة أعمدة ، قد لا تهتم أحياناً رجال السياسة ولا أصحاب الصحف من أعضاء الأحزاب ، ولكنهم يحتملونها منهم كرامة للمقالات السياسية ... وهكذا استطاعوا أن يتابعوا تجديدهم فى النقد والشعر والادب ... فى حين أن كتاب المسرح قد انتهوا بانتهائه ... وقد فجعت حقاً بما حدث للمسرح ... فى الوقت الذى عدت فيه حاملاً فى جعبتى محصولاً غزيراً لمختلف ثقافته ... وخطر لى أن أبحث عن صديقى القديم مصطفى ممتاز ، اتنسم منه روائح عهدنا الغابر ... فوجدته قد انصرف انصرافاً تاماً عن الكتابة

على الاطلاق ، وقال لى فى نبرة حزن وأسى :
« المسرح مات ، ... »
وسألته عما يفعل إذن ؟ ... فقال بهدوء وجد :
« أشغل بتحويل النحاس إلى ذهب ، ... »
وخلته يمزح ... وإذا به يؤكد لى أن هذه هي هوايته الآن ...
وأنه يطالعها فى الكتب القديمة ، وأنه غارق لأذنيه فى تلك الكتب وقد أحاط ببعض ما فيها من عجائب وعلوم وأسرار ... ولما سأله عما إذا كان قد استطاع فعلاً أن يحول شيئاً من النحاس إلى ذهب ؟ ... — وقد كادت تغريبنى أنا أيضاً الهواية — أجاب أنه قد تم له ذلك بالفعل ... إلا أنه بعد أن جمع كل ما وصلت إليه يده من أواني البيت النحاسية وصهرها وأطلق عليها البخور وقرأ التعاويذ لم ينتج منها إلا قطعة صغيرة جداً من الذهب ، لا يساوى ثمنها نصف ثمن النحاس الذى صهر ... وتلك كانت المشكلة التى تشغله ويحاول أن يجد لها حلاً ، هذا فضلاً عن صعوبة استحضار الجن بالبخور والتعاويذ ... لأن هذا مرهق غاية الإرهاق ... فلما رأى فى وجهى الدهشة جعل يشرح لى

حقيقة عالم الجن وما يحدث فيه ، وصلته بعالمنا الأدنى ، شرحاً مستفيضاً بحديثه الطلى المقنع الممتع ، ودراسة المفصلة الطويلة لهذه الشئون ، حتى خلت نفسى آخر الأمر محاطاً من كل جانب ؛ «بسم الله الرحمن الرحيم» اخواننا ، أهل تحت ، ووجدت صعوبة كبرى فى أن أعود إلى نفسى وأطفو على سطح الحياة اليومية التى جئت منها ... وغمرنى الموضوع غمراً ، وأنا دائماً أصدق أعاجيب القوى الخفية ، سواء أطلق عليها اسم الجن ، أم اليوم اسم الألكترون ... فلما أفقت قليلاً أردت تغيير الجو ، والعودة بصديق القديم إلى الحديث فى المسرح ، فأبدت له الرغبة فى معاودة الكتابة للمسرح بطريقة جديدة وانجاء آخر وتأليف حقيقى بعد الاطلاع والخبرة والدراسة التى اكتسبها من الاتصال الثقافى بالفن والأدب فى الخارج ... فقال لى يا خلاص وصراحة : «اسمع كلامى لا تتعب نفسك ! ... هذا مجهود ضائع ... المسرح المصرى كعهدنا به قد انتهى ! ...»

وقد صدق ... فالمسرح فى مصر وقتئذ كان فعلاً قد مات ولم أحاول مرة أخرى الحديث مع ذلك الصديق القديم فى أمر

المسرح ولم أقابله بعد ذلك إلا عرضاً منذ سنوات ، وكان قد تقاعد واستبدل بمعاشه أطيافاً من مصلحة الأملاك ، مثل كثيرين غيره من الموظفين السابقين الذين وقعوا تحت الإغراء ، وتسلبوا من المصلحة أرضاً محتاجة إلى استصلاح فى نظير جنيتهاهم المضمونة نقداً وعداً أول كل شهر ... فلما رآنى صاح بروحه المرحلة قائلاً :

هذه المرة قد نجحت فى تحويل الذهب لا إلى نحاس فقط بل إلى تراب !

رحمة الله على ذلك الصديق العزيز والمسرحى الممتاز ...

على أن موت المسرح فى تلك الفترة أمر يدعو حقاً إلى التساؤل عن أسبابه ... وما من شك أن تطاحن الأحزاب السياسية كان قد صرف الأذهان عن الفن وأهله ... كما أن الأزمة المالية التى احتاجت العالم عامة ومصر خاصة حوالى عام ١٩٣٠ — ولعل هذا أهم سبب — قد أثرت فيما أثرت على المسرح ... لم أجد إذن أمامى أى مجال لتمثيل ما كنت قد كتبت فى ذلك الحين من مسرحيات متنوعة ... لم يبق على نشاطه الأول إلا فرق

الهواة مثل جمعية أنصار التمثيل ... فوجدت فيها حلقة الاتصال
بالماضى فكتبت لها خاصة مسرحية «رصاصه في القلب» ...
وسلمتها للزميل القديم سليمان نجيب وأردت بها أن تخرج عن
الكوميديات المقتبسة الكاريكاتورية المعتمدة على النكتة
اللفظية ومواقف المفاجآت الهزلية الى كان بطلها كشكش بك
وبربرى مصر الوحيد ... وأن أجعل الحوار فقط بين شخصيات
طبيعية هو الذى ينبعث منه كل الأثر ... ولكن الخمول لم يلبث
أن دب أيضاً في جمعية أنصار التمثيل فبقيت هذه المسرحية أيضاً
بلا تمثيل ... إلى أن قامت الصحافة الجديدة الناهضة بتخصيص
مكان لى كان هو بمثابة «مسرح خاص بى» على الورق ، أعرض
عليه ما يحلو لى من صور الحياة والمجتمع غير مقيد باضطراب
أحوال الفرق المسرحية من حولى وأزماتها المتكررة فى ذلك
الحين ، مما حال دون انقطاع حبل اتصالى واهتمامى بالمسرح
والتأليف المسرحى ...

لم يكن إذن من السهل — بعد حصولى على ليسانس الحقوق —
أن أقنع والدى بجدية العمل للأدب ، وما يمكن أن يكون له من
مستقبل ... والأسماء اللامعة فيه وقتئذ ، كما ذكرت ، لا تشجع على
الاحتجاج بها ... فلطفى السيد لم يكن قد أصبح بعد مدير الجامعة أو
وزيراً ... وشوقى بك الشاعر لو ذكرته لوالدى لرد على بأن مكانته
فى المجتمع مستمدة من وظيفته السابقة فى السراى ومن ثرائه
الواسع ... أما حافظ إبراهيم المسكين فحجته ضدى لالى ...
فقد أدى به الأدب إلى التسول فطلب الوظيفة فعيّنه وكيلاً لدار
الكتب ... والمفلوطى كان دائماً موظفاً هو الآخر ، وكذلك
محمد مسعود ، وإبراهيم رمرى أما لطفى جمعة محامياً ... لا بد إذن
فى النهاية من الوظيفة أو مافى حكمها حتى يمكن حمل كارثة الأدب
فى بلادنا ... وحى أولئك الذين استطاعوا حمل هذه الكارثة
بمعاونة الوظيفة ، لم يسلبوا من لعنة تلاحقهم فى وظائفهم وأعمالهم
الأخرى بسبب الأدب ... ومع ذلك لم يكن والدى يكره الأدب

في حد ذاته ، أو يزدرية في قرارة .. نفسه فهو مازال يحتفظ بحبه
القديم له... وإطالما سمعته في خلوته يترنم بأبيات من شعر الجاهلية
يدلل بها على أمر من الأمور ، أو تصرف من التصرفات أو يصف
بها شخصاً من الأشخاص... حقاً لم ينظم بيتاً واحداً من الشعر منذ
تزوج... فقد كان كل نظمه وهو شاب أعزب... ولست أدري
لماذا لم أنهم بجمع ما نظم... ربما لأنى لم أكن أعلم أنى سأكتب
عنه يوماً أو عن نفسه... على أن الذى يخيل إلى هو أن شعر والدى
ربما كان يتجه في أكثره إلى الحكمة ، ليس لأن العواطف لانهمة...
على العكس... لقد كان رحيماً انسانياً تحت مظهر جاد من الرزانة
والاتزان... لم يكن فياضاً بالعاطفة جياشاً بالشعور المتفجر كزبد
البحر العاصف مثل والدى... فقد كانت له القدرة على أن يفصل
عاطفته عن عقله... كان كل شيء عنده — حتى أحب الأشياء —
وأقدسها — يخضع لميزان عقله وفحصه ويعطيه ماله وما عليه بالحق
والعدل... على عكس والدى التى تملكها العاطفة ولا تعرف الفحص
ولا الميزان... فهى الانطلاق والإغراق إما حب فياض وإما كره
ملحق... لا وسط عندها ولا اعتدال... لكن نفس والدى مع ذلك

كانت شيئاً صافياً مستقراً محتفياً تحت سطح بحر هادى... لم يكن
يكثّر الضحك... لم أره مرة يقهقه... بل لم أسمع منه ضحكا أو صوتا
يما يندرج تحت هذا الوصف... كل ما رأيت وسمعت منه في تلك
المواقف التى تستدعى الضحك هو الابتسام والهمهمة الخفيفة...
لأنه كان مدققاً حقاً في المال والكلام وفي كل أمر... على نفسه وعلى
غيره... يخرج من جيبه القرش والكلمة بحرص ونقص... على نقبض
والدق السخية دائماً بطبعها... تخرج النقود والكلمات بيسر جارف
وكرم صاخب... وأمام هذا التناقض بين والدى ورثت أنا فيما
أعتقد الحيرة بينهما... فأنا في الغالب أميل إلى الاقتصاد والإمسك
عن كل إنفاق... سواء في نقود أو كلمات... وأعل هذا من أسباب
تفضيلي المسرحية... فهى فن اقتصادى بخيل... الكلمات فيها محسوبة
ببدقة... والوقت فيها مقيد والحيز فيها محدود... لا محل فيها للإسراف
والانفلات... غير أنى أحياناً تظهر على نوبة انفلات خاطفة
أو إسراف في القول والمال مفاجيء لا ألبث أن أفيق منه فأمسك
ثم أنطلق ثم أمسك... وهكذا... كما تنطلق منى أحياناً غضبية
مفاجئة أو انفعال ملهيب مباغت أو تدفق كلامى متحمس غافقن

أحداً في تواضعه وقلة احتفائه بنفسه في ملابس أو مأكلاً أو مجلساً ،
ولا سمعته قط افتخر أمامنا بعمل له أو قول ... ولا شاهدت قط
أحداً مثله في نزوعه إلى الظلام والاختفاء بعيداً عن الأضواء ...
ولا في ميله إلى الانزواء عن المجتمعات الصاخبة أو السمر مع
السامرين في الحفلات والنوادي ... ولا عرفت قط أنه سهر ذات
ليلة في ملهى من الملاهي ... كانت حياته جافة صارمة ... لا يعرف
من وسائل الترفيه غير المشي على الأقدام طويلاً .. فإذا قابله أحد
في شارع وسأله إلى أين ؟ ... أجاب بإشارة غامضة من يده ،
لا يستطيع أحد أن يفهم منها شيئاً ... وإجاباته دائماً فيما يتعلق
بشخصه لا يمكن أن تنير سائله ... فهو لا يحب أن يلقي ضوءاً على
شخصه ، أو يريح الناس في أمره ... تلك كانت طبيعته ... أما والدتي
فهي على نقيضه ... معتدة بنفسها ، تحب الضوء وتكره الخمول
والظلام ... وبين هذين النقيضين ورثت كذلك حالة حيرة بين
الرضا بالضوء والنفور منه ... دون أن أدري أحياناً لماذا أَرْضَى
ولماذا أَسْخَطُ ... بل لماذا أبتعد عن المآدب العامة والحفلات
والدعوات والاجتماعات ... حتى ليالي عرض مسرحياتي ذاتها قلباً

آنس اليوم من نفسي الرغبة والدافع لحضورها ... إلى حد جعل
البعض يعتقد أن أتكلف ذلك تكلفاً ... والحقيقة أني أضيق بهذا
الطبع وأتأذى منه لأنه يجرمني الكثير ... على أني لا أدري بعد
أهو طبع ثابت عندي أم هو إحساس طارئ ادواعي الحالة
الصحية والسأم النفسي ... لست أدري بعد ... لكن المؤكد عندي
هو أني فعلاً أنزعج وأنفر من أي اجتماع عام وخاصة إذا تعرضت
فيه إلى إلقاء كلمة أو طلب إلى فيه الكلام ... فقد شعرت بعد أول
مرافعة لي في كرسي النيابة أمام محكمة الجنايات أني لا أصلي لمثل
هذه المواقف ... فأنا لست مربع البديهة ولا حاضر الذهن ...
بما يجعلني أبحث سدى عن الكلمات والمعاني الهاربة من رأسي في
اللحظة المفاجئة ... ويستولي على نوع من الفزع والارتباك ...
وحتى القراءة من ورقة أتلثم فيها إذا سلطت على عيون وأضواء
وأحسست من حولي بمستمعين ورقباء ... ولا أعرف من أين
جاءتني هذه الكارثة ... فوالدي — كما علمت — كان من أبرع
المتكلمين والمترافين منذ كان وكيلاً للنيابة ... إلى حد أن فاضله
يوماً أحد كبار المحامين وكانوا يومئذ لا يحملون شهادات — على

أن يعمل معه محامياً وشريكاً نظير مرتب ما كان يتقاضاه يومئذ
إلا المستشار ، لكنه اضطر إلى الرفض ... لأن أباه أراد في
سلك القضاء ، كي يخيف به المحضرين الذين كانوا يفدون للحجز
عليه ... هذا هو والدي ... أما والدي فهي الجرأة والذلاقة
والانطلاقة بعينها ... لا تعرف الارتباك في أي كلام
ولا الاضطراب في مواجهة أي موقف ... أنا إذن المسئول
وحدى عن هذه العلة ... ولست أدري سببها ... إلا أن تكون
حالة الوحدة والصمت التي لازمتني شطراً كبيراً من حياتي ...
شيء آخر كان يتصف به والدي : هو روح السخرية والفكاهة
التي تنبعث من أقواله وأفعاله ، دون تعمد ، ودون أن يبدو على
وجهه الرزين أي تغير ... كانت جلساته في المحاكم — كما قيل —
ممتعة مليئة بالمفارقات التي تبدر منه وهو جاد هادئ لا يبتسم ...
كان هناك رواة — كما علمت — يتذاكرون نوادره ...
منهم المرحوم المستشار زكي خير الأبوتيجي الذي قيل إنه كان
متخصصاً في نوادر « إسماعيل الحكيم » ... فقد بدأ حياته
القضائية تحت رياسته ، ويقول إنه عندما عين قاضياً بمحكمة

أسيوط ، ذهب لاستلام عمله بها فرحاً نشيطاً ، وإذا رئيس المحكمة
وكان والدي ، يستقبله بنظرة فحس وارتباب ويقول له :
« هل عندك ما يثبت أنك حقيقة القاضي الجديد ؟ ... »
فارتبك القاضي الشاب إذ لم يكن يتوقع أن يشك فيه ويطلب
بإثبات شخصيته ...

ومضى والدي يقول له :

« من يدرينا أنك لست إلا نصاباً محتالاً جاء يزعم أنه هو
القاضي المعين بمحكمة ؟ ... كيف نجلسك معنا في الجلسة لمجرد
ادعائك أنك القاضي الجديد ؟ ... إذهب باحضرة إلى حال
سبيلك ! ... »

وحار القاضي الشاب الخجول ... ولم يدر ما يصنع ؟ ...
وكيف يذهب إلى حال سبيله وهو معين في هذه المحكمة ؟ ...
فالتفت إلى والدي مستعطفاً قائلاً :

« هل يعقل أني اقتحم المحكمة وأجلس معكم في الجلسة
وأنا غير معين في الوظيفة ؟ ... هل يبدو علي وجهي أني محتال
أو أني قاض ؟؟ ... »

فنظر والدي إلى وجهه ملياً ثم قال له :
 ومن هذه الجهة يصعب الحكم ... فأنت من وجهة يمكن أن
 تكون هذا أو ذاك ... لكن على كل حال ادخل واجلس
 معنا وانجازف ، على عهدتي والسلام ...
 لا أظن والدي كان جاداً في هذا التصرف ... ولكنه أحياناً
 كان يمزح في صورة الجد ... وعندئذ يختلط جده بهزله ، دون أن
 يبدو الفرق للعيان ... لم تكن شخصية والدي تلك ولا ميوله الدينية
 إذ أن مما يحله يتجنب الأدب ... على العكس ... إنه فيما يخيل إلى أن كان
 يود في دخيلة نفسه أن تتاح له الفرصة للإنطلاق على سجيته ،
 وانخاذ الشعر والأدب مجاله وميدانه ... تلك ولاشك كانت رغبته
 المكبوتة ، كبتها في نفسه مجتمعه وظروفه العائلية والمالية ... هذا
 الترف المسمى يومئذ « الأدب » ، لم تكن تسمح به حالته المالية
 بالتأكيد ، لا قبل الزواج ولا بعده ، وخاصة بعده ، والرغبة
 المكبوتة عند الآباء ربما كانت هي التي يورثونها للأبناء ...
 ولو أن والدي تمكن من إفراغ كل ما في نفسه من رغبات
 وميول أدبية لأعفاني أنا وحررتني من « نزعة الأدب » ، ولكن

أنا قد انصرفت طليقاً إلى شيء آخر ... ان أبناء رجال مثل
 لطفي السيد أو أحمد شوقي لم ينزعوا إلى الأدب لأن آباءهم
 لم يكتبوا تلك النزعة ، بل أفرغوها وأطلقوها بكل طاقتها وقوتها
 في حياتهم ... لقد ألقى والدي إذن على كاهلي أنا ما لم تهينه له
 ظروفه هو أن يحمله ... فما أنا إلا سجين رغبته هو التي لم يحققها
 بل إنني سجين أشياء كثيرة أورثني إياها ، فيها الطيب وفيها الردي
 كما ورثت عن والدي خيراً وشرها ... فهي طيبة القلب ولكن
 فيها روح شر ، خصوصاً مع المعتدي ... غير أنها لا تعرف
 الخبث إطلاقاً فهي صريحة ، صراحة متحدية ... أحياناً ...
 ولا تطيق أن تخفي في صدرها شيئاً ... أما والدي فهو طيب نادر
 الشر ، لكنه كثير الخبث ، قليل الصراحة ... وقد ورثت أنا
 من كل هذا بنسب متفاوتة ...

هذا السجن الذي أعيش فيه من وراثات كأنها الجدران ،
 هل كان من الممكن الخلاص منها ؟ ... حاولت كثيراً كما يحاول
 كل سجين أن يفلت ، ولكني كنت كمن يتحرك في أغلال أبدية ...
 وبدأت المأساة لعيني عندما خيل إلى يوماً وأنا أحلل نفسي ، أني

لا أعيش حياتي إلا في نسبة ضئيلة ... أما النسبة الكبرى فهي تلك العجينة من العناصر المتناقضة التي أودعت تلك النطفة التي منها تسكونت ... والنسبة الضئيلة التي تركت لي حرة من حياتي قضيتها كلها في الكفاح والصراع ضد العوائق التي وضعها أهلي أنفسهم في طريقي، ومن خلفهم المجتمع كله في ذلك الوقت ... فوالدي الذي أورثني حب الأدب هو نفسه الذي يصدني عن الأدب ... ووالدي إلى أورثني الإرادة تقف بإرادتها دون رغباتي الفنية ... حريتي الباقية لي إذن هي فرصتي الوحيدة وسلاحى الوحيد في مقاومة كل تلك العقبات ... وحريتي هي تفكيري ... أنا سجين في الموروث، حر في المكتسب ... وما شيدته بنفسى من فكر وثقافة هو ملكى . وهو ما اختلف فيه عن أهلى كل الاختلاف . هاهنا مصدر قوتى الحقيقية التي بها أقاوم ... نعم ... تفكيري وتكوينى الفكرى ... هنا كل حريتى ... الإنسان حر فى الفكر سجين فى الطبع ... ولست أدري أهى مجرد مصادقة أن أكتب عن تكوين الفكر فى «زهرة العمر» قبل أن أكتب عن تكوين الطبع فى «سجن العمر» ... إن

زهرة عمرنا الفكر، وسجن عمرنا الطبع ...

غير أن والدى أمام إصرارى على تسكريس حياتى للأدب — رغم الصعوبات والنصائح والعقبات التي تحاول صدى — بدأ يفكر فى أمرى جدياً ... فجعل يعرض على مخاوفه بصراحة ... قال إنه لا يسكر على الأدب إلا باعتباره عملاً أساسياً فى الحياة . فواجهه كأب أن يوجه ابنه إلى الطريق المأمون ... والأدب ليس بالطريق المأمون الذى يكفل العيش لمن لا ثروة له ... وهو يعلم أنى لن أرث ثروة يمكن الاعتماد عليها ، حتى يصح لى الانقطاع إلى الأدب كما يفعل شوقي الشاعر ، أو حتى لطفى السيد الذى سيرث يوماً عن والده الثرى السيد باشا أبو على ما يغنيه عن الارتزاق ... لا بد لى إذن فى عرف والدى من وظيفة تعولانى ولا بأس معها من إشباع هوايتى للأدب ... وختم والدى حديثه معى بقوله «ومع ذلك فهى هو ذا لطفى السيد ... إنه موجود ... تعال معى نعرف رأيه» ...

وقادنى إلى زيارة صديقه وزميله القديم ... وكأنى به تذكره فجأة ... فما من شك عندى فى أن والدى ما كان قد التقى بصديقه

القديم هذا منذ أعوام وأعوام ... فهو بطبعه يزهد في إنشاء أو إحياء الصلات المفيدة ، حتى مع أصدقاءه الأقدمين من لمعوا في الحياة ... وقد ورثت أنا عنه هذه الخصلة السيئة وزدت عليها ، إلى حد ضيق وعجزى عن مراعاة أبسط قواعد المجاملات أحياناً من تهينة وتعزية وسؤال عن الصحة ، حتى بالنسبة إلى أعز الناس ... كما أنزعج أيضاً من سؤا لهم عنى ... وقد عرف ذلك المتصلون بي ... ففهموني ، وتركوني لطبعى هذا . أما عن دائرة اتصالي فهى أسوأ . فأنا لم أحارل عقد صلات ، حتى مع من كان يجب أن أتصل بهم من أدباء وفنانين ، وخاصة من كتب عنى أو مثل لى فى الخارج ... لقد كنت فى باريس أخيراً على مقربة من بعضهم فلم أقابل أحداً منهم ... ولقد سئلت هناك عن تربطنى بهم الصلات من أدبائهم فلما أجبت :

« لا أحد ، ... »

قوبلت إجابى بدهشة ، ثم وجهت إلى دعوات اللاتقاء بالبعض فتقاعدت ، لا زهداً بل أنزواء جثمانياً غريباً غير مفهوم ... إني أجفل دائماً من أى صلة جديدة ... لا افتح باب

نفسى بسهولة لأول طارق ... وهذا التصرف الغريب بتكرر كثيراً فى حياتى ويضايقنى ... وكلما لمت نفسى عليه وعزمت على تغييره أقع فيه مرة أخرى ... قلة نشاطى وحركتى هى دائى العضال ... وقد أضاع هذا الداء على كثيراً من الفرص والمتع فى الحياة والفن ... إني أعمل وأقعد عن السعى لإنجاز العمل ... أنشط إلى العمل وأكسل عن النجاح ... وإذا كان قد صادفنى فى الحياة نجاح فإن كثيراً منه قد هبط على رأسى من حيث لا أدرى ولا أتوقع ... إني فى أغلب أحوالى قاعد هامد ... فى حوار دائم مع نفسى ... فى حركة دائمة داخل عقلى ... أفك الكون وأركبه ... وكل شىء فى العالم والمجتمع يهمنى ويهزنى ويحركنى ... ولكن جسمى لا يتحرك كثيراً ... إن لدى القدرة على أن أجلس الساعات بمفردى لا أصنع شيئاً ... وكثيراً ما يدهش الداخل علىّ إذ يرانى أحياناً قاعداً جامداً ، ليس أمامى كتاب أو ورق أو قلم ، ولا حراك بي كأنى تمثال من حجر ... على أنى ما انعزلت قط ولا انزويت إلا بالجسم وحده ... وإياه لمن الغريب أن أعيش دائماً بكل روحى وجوارحى وتفكيرى فى كل مشكلات عصرى ،

ولا أجد من جسمي مثل هذه الحركة وهذا النشاط ... عرضت لي مناسبات كثيرة للحركة والنشاط ... دعيت إلى السفر في كل مكان، وهيئت لي فرص لمشاهدة ما كان يجب أن أشاهد ومقابلة من كان يجب أن أقابل ... لكن قدرتي على إضاعة الفرص أكبر من قدرتي على انتهازها ... ولكأنى بالقدر يمحى الفرصة وهو مطمئن لوجود الجهاز الذي يستطيع عندي أن يضيعها ... إنى لم أستطع حتى أن أنتهز فرصة وجود لطفي السيد نفسه على مقربة منى ، رئيساً للجمع اللغوى ، وأنا عضو فيه ، لأتصل به الاتصال الذي يتيح لي التزود بالمعلومات التي لا يعرفها غيره عن والدى وشبابه وجيله ومعاصريه ... حتى مأسطرته هنا في هذا الشأن كان الذي جاء به مشكوراً هو صديق كريم كالعقاد رحمة الله عليه ورضوانه ... نقلاً مباشراً عن « عبد العزيز فهمي » الذي لم أتصل به هو أيضاً إلا عرضاً ... على أن همودى المادى وقعودى الجثمانى إلى هذا الحد ليس في الواقع نتيجة ورائة ... فمن الإنصاف القول إن والدى ، رغم زهده في أشياء كثيرة ، كان كتلة حركة ونشاط في محيطه ... لا يقعد مثلى عما يرى فيه نفعاً لعمله ... ولا يضيع

فرصة لمجرد هموده أو قعوده ... أما والدى فهي الحركة الدائبة بعينها ... لا تعرف القعود أو الإنزواء حتى وهي مريضة ... فحص الطبيب قلبها مرة وأمرها بملازمة الفراش ، فلم تطق الرقاد يوماً واحداً ، وفضلت الموت على القعود ، ونهضت تحمل مظلتها وتسير في الغيط ، تراقب البذر والحصاد وتطهير المصارف وعلف المواشى ، ثم تعود إلى الجرن تقف على دراس القمح أو الأرز ، أو وزن القطن ونحو ذلك من الأعمال الشاقة ... أنا إذن المستنول وحدى عن كسلى وفشلى ... ولا أدري العلة ... وعجزت عن العلاج ... مع أن رأي دائماً أن الحياة قيمة في ذاتها وحركتها ... وإذا كان أحد أشخاص « أهل الكهف » عندي قد قال :

« إن أية حياة منحة ، وأثن منحة تعطى لمخلوق هي الحياة » ... فإنى أنا نفسى مع الأسف لم أستطع الانتفاع بهذه المنحة كما ينبغي ... لقد ضاع منى الكثير من قدراتى ومن موهبتى — إذا كان لها وجود بسبب طبيعنى المشقوبة كالغربال بمائة ثقب من القعود والتردد والإهمال ، بل إن السبب الرئيسى في عرف الطب

— لما يتهدد اليوم صحتي — هو قلة نشاطي وحركتي ... إني دائماً أحاسب نفسي على كل ذلك ... وأسألك :

هل كان من الممكن أن أكون أفضل مما أنا في مجال الخلق الفني مع مثل هذا الطبع ؟ ... هذا الطبع الذي سجنني وفوت علي الكثير من الفرص الفنية ؟ ... يضاف إليه طبيعة الظروف المحيطة بالأدب ذاته والفن في مجتمع معين في زمن معين ... تلك الظروف التي اقتضت من مثلي إضاعة الكثير من الوقت والجهد لتعرف مواضع الخطى في فنون جديدة لم تكن أرضها وقتئذ معبدة ؟ ... لا أدري ... كل الذي أدريه هو أنني ساموت وأنا أتساءل :

لماذا لم أكن أفضل مما كنت ؟ ... وما هو هذا السجن الذي يجبسنني فيما أكون ؟ ...
كذلك سألت نفسي :

ما هو هذا الفن الذي نتجشم من أجله هذه المتاعب ؟ ... ما من شك أنه شيء محبوب ... لأنني أشعر نحوه بحب منذ فجر الطفولة ... إن كل إنسان يولد وهو محب للفن في صورة من

صوره ... فالإنسان إنسان لأنه يجب أن يتأمل ذاته ويعجب بها أو يضحك منها أو يفكر فيها ... إن الفن هو أداة إنسانية لتأمل ملاحظها ومعرفة نفسها ... وهذا ما دفعها إلى التفكير والتطور ... ولو أن الحيوان تأمل ذاته وعرفها وحللها لانقلب إنساناً في التو واللحظة ...

وأعود إلى والدي فأقول إنه قادني إلى صديقه أحمد لطفي السيد ... كان يومئذ مديراً لدار الكتب ... دخلنا عليه فرحب بنا ... وأجلسنا إلى جواره ... كان جالساً إلى ذلك المكتب الذي ظل على حاله بعد ذلك سنوات وسنوات ... عين المكتب هو هو لم يتغير ... وفي نفس الموضع من نفس الحجرة ... قال له والدي : هذا ابني توفيق ... حصل على ليسانس الحقوق وقييد في جدول المحامين المشتغلين ، لكن ميله متجه إلى الأدب ، ...

فبدأ على وجه لطفي السيد الرضا والارتياح ... وبأدب يؤيد رأيا سبق أن خطر لوالدي وتكرر فيه ... قال لوالدي :
« أرسله إلى أوروبا ، يحضر الدكتوراه ، فإذا عاد بها عين

أستاذاً في الجامعة الى ترمع الحكومة إنشاءها وفتحها قريباً
أو في القضاء المختلط حيث الإقامة في مدن كبرى كالقاهرة أو
الإسكندرية أو المنصورة مما يتيح له إشباع هوايته للأدب ...
فالتفت والدى نحوى قائلاً :
أظن هذا هو الحل ...

ونهمضنا منصرفين شاكرين ... وشيئنا لطيف السيد إلى الباب
ونحن نحمل نسخة من كتاب ترجمه عن أرسطو أهداه إلينا ...
وما كدنا نخرج إلى ميدان باب الخلق حتى كانت فكرة السفر
إلى أوروبا قد تأكدت لدينا ... وجعل والدى يحسب ما سيكلفه
ذلك من نفقات ... لكنه لم يحجم ... لقد كان سفرى هذا في نظره
إنقاذاً لى من هذا الوسط الفنى الذى علم بأمر انغمارى فيه ، دون
أى أمل فى اهتمام جدى بمحاماة أو غيرها من الأعمال المحترمة ...
وعدنا إلى الإسكندرية وفاتحنا والدق فى أمر السفر ... فوجمت
قليلاً ... ولم تتحمس أول الأمر ... لأنها كانت قد وضعت فى
رأسها خطة أخرى : هى أن تزوجنى من عروس غنية وارثة ،
مما يؤمن حياتى ، فى رأيها العملى ، ويحيطها بالضمان ... فقد

كتبت بالفعل ذات يوم خطاباً لوالدى تقول له فيه :
اليوم حصل خبر غريب مفرح ولكن الخوف ثم الخوف
من الحمار توفيق وعليك أن توضع له عقله فى دماغه ويقبل هذه
العروسة الهدية وأنا منتظره حضورك لاجل تتوجه للمجلس
الحسبى قبل كل شئ وتعرف ما هو متحوش للعروسة وكام لم يرادها
بالظبط ... إلخ ... إلخ ...
هذا ما خطته والدق ...

لكنى أنا ووالدى لم نزل بها حتى اقنعناها برأينا ... ولست
أدرى كيف لم يخطر بهاها وقتئذ أن زواجى إذا حدث يوماً فإنه
يكون على غرار زواج والدى نفسه ، من حيث بعده عن التفكير
فى مثل هذا الاعتبار ... فالأساس عندى هو كما كان عنده :
التوافق فى العقاية والتفاهم فى الحياة ... ولا شئ غير ذلك .. وقد
تزوجت فيما بعد بالفعل خير زوجة ...

وبادر والدى يهـى وسائل السفر ... ويسأل البنك عن طريقه
تحويل المبلغ الشهرى اللازم لى هناك .. ويتحرى عن أقل مستوى
للمعيشة فى فرنسا ... ثم حجزنا مكاناً لى بالدرجة الثانية على باخرة

فرنسية قديمة اسمها ، الجنرال متزنجر ، ...
وفي يوم السفر عانقت والدتي وجدتي ودموعهما تنهمر ...
وذهبت بحقائبي مع والدي إلى الميناء ... وصعدت إلى الباخرة ...
ووقفت على ظهرها ، أتطلع إلى والدي على الرصيف ، وهو
واقف تحت شمسيتها البيضاء يلوح لي بيده ، ثم بمنديله ، والباخرة
تتحرك ... كان منظره ، منظر هذا الأب الرزين وهو يكمتم
شعوره تحت قناع وداع هادي ، مما أسال دمعتي على الرغم مني ...
وابتعدت مصر واتجهت أنا نحو المصير المجهول ...

وقضيت في باريس تلك الأعوام الموصوفة بالتقريب في
كتابي « زهرة العمر » ...

وعدت إلى بلادي ... عدت بالحقيبة ذاتها التي كنت قد
حملتها معي ، وكان بها بدلتان وأربع فانيالات وأربعة قصان
وستة مناديل ... عدت بها جميعاً لم ينقص منها شيء ... كما عدت
بصناديق خشبية مملوءة بما جمعت من كتب على مدى تلك
الأعوام ... كل ذلك عدت به ... ما عدا شيئاً واحداً لم

أعد به ... وهو مازدهيت للحصول عليه : الدكتوراه في القانون ...
فإن ببطء الفهم عندي ، وواعيتي الضعيفة ، بالإضافة إلى أعباء
الجهاد الثقافي الشامل الذي ألقيت بنفسي كلها في لجته ، مع النهم
الفكري الذي استولى على أمام موائد الحضارة الكبرى ...
كل هذا لم يترك لمثلي القوة ولا القدرة على حمل عبء آخر ...
عدت فاستقبلني أهلي كما يستقبل الخائب الفاشل ...
وتصادف أن سمعوا أصوات فرح على مقربة من منزلنا ، فلما
سألوا عن الخبر قيل إن سرادقا أقيم وأكواب « شربات » تقدم
ابتهاجا بحار زميل لي عاد من الخارج ناجحاً فالحاً ظافراً بشهادة
الدكتوراه ، فازداد مركزى سوءاً ... ورأيت الهم والغم والأسى
في عيون أهلي ... وسمعتهم من حولي يتهاصون : « يا خيبتنا ! ... »
يا خيبتنا ! ... »

وبعد :

هذه مرحلة من حياة ... لم أرد منها قص حكايتها ... فلم ألزم
فيها بالطريقة المألوفة في سرد تاريخ الحياة حسب الترتيب الزمني
لتتابع الوقائع ... ولكنني مزجت الأزمان والأحداث في أكثر

الاحیان کی اصل مباشرة إلى لب المقصود هنا وهو : محاولة
كشف شيء عن تكوين هذا الطبع الذى أتخبط بين قضبان سجنه
طول العمر ...

—